

سلسلة من الأدب العالمي للشباب

أسرار الثورة الروسية

Secrets of
the Russian Revolution

رواية تاريخية

الدكتور / خليل سعادة



إعداد وتقديم

وفيق صفوت مختار

دار الطائفة

سعادة ؛ خليل ، ١٨٥٧ - ١٩٣٤

أسرار الثورة الروسية : Secrets of
The Russian Revolution / رواية تاريخية -
خليل سعادة ؛ اعداد وتقديم وفيق صفوت مختار
القاهرة: دار الطلائع للنشر والتوزيع ، ٢٠٢٠ .

٢٤٠ ، ٢٠ سم

سلسلة من الأدب العالمي للشباب ، (١٢)

تدمك: ٩٠٥ ٥ ٢٧٧ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص التاريخية ٢ - القصص الحربية
أ - مختار ، وفيق صفوت (معد ومقدم)

ب - العنوان

٨١٣,٠٨٧١



٣٢ شارع أحمد فخري

- مدينة نصر - القاهرة

تليفون: ٢٣٥٤٦٣٩٢ (٢٠٢ +)

فاكس: ٢٣٥٤٦٣٩٣ (٢٠٢ +)

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٠٨٥٢

التزقيم الدولي: 5 - 905 - 277 - 978

تصميم الغلاف الفنان: زكريا عبدالعال

• جميع الحقوق محفوظة للناشرة •

يحظر طبع أو نقل أو ترجمة أو اقتباس أي جزء من هذا
الكتاب دون إذن كتابي سابق من الناشر، وأية استفسارات
تطلب على عنوان الناشر.





هذا هو الإصدار الثاني عشر من سلسلة الأدب العالمي للشباب، والذي نُقِّدَته ونحن علي ثقةٍ بأنَّه سيكون بإذن الله تعالى عملاً متميزاً وفريداً في دقة اختياره، وطريقة عرضه.

لقد قمْتُ بالاطلاع علي أغلب الإصدارات العربيَّة التي تناولت رواية « أسرار الثورة الروسيَّة » للكاتب الكبير الدكتور/ خليل سعادة ، كي يتسنى تقديم الأجل والأحق بالقراءة الممتعة الشيقة .ولقد كانت الترجمات التي تمكنت من العثور عليها قليلة بعض الشيء ، وكانت ترجمات تتسم ببعض الصعوبة في كلماتها أو عباراتها.

مقدمة



وكما هو مُعتاد في منهجنا الذي قد ارتضيناه منذ البداية فقد تخلصت من الأحداث الغارقة في التفاصيل التي قد لا تخدم العمل الذي نُقِّدَته. كما حاولت الابتعاد عن الكلمات الصَّعبة والعبارات الغامضة التي جاءت في بعض الترجمات. كما حاولت أن أقدم بعض الهوامش لتوضيح ما قد يصعب فهمه علي القارئ، من مصطلحات أو مفاهيم تضمنتها الرواية.

وبعد هذه المُعالجات الفنيَّة والدراميَّة للرواية أري أنَّها أصبحت مُعدة للقراءة السهلة اليسيرة، في عدد صفحات ملائم للغاية، دون أن يؤدي الاختصار إلي أي خللٍ في مسار الأحداث، أو بنيتها الدرامية.

حافظت بالطبع علي ما جاء في النَّص الأصلي للرواية الذي كان مصدرِي الرئيس في تقديم هذا العمل، والابتعاد تماماً عن التَّصوُّص التي جاءت منسوخة بشيءٍ من الاختصارات المُخلَّة إخلالاً أضر بالعمل الأصلي للرواية.



وبهذا أكون قد انتهجت الفلسفة التي نتبناها في دار الطلائع للطبع والنشر والتوزيع بقيادة الكاتب والناشر الصديق « عبد اللطيف عاشور »، التي تُحتَم علينا تقديم تلك الأعمال العالمية الفريدة علي أعلى مستوى من الكفاءة، والأمانة، والمصداقية، والشفافية، مع العرض الشيق الرشيق للأحداث، وكذلك الحفاظ علي المضمون الأصلي للرواية شكلاً ومضموناً، وفقاً للترجمات الأكثر رصانة ومصداقية. كما أود أن أنوّه بأنّ كافة العناوين الرئيسة لفصول الرواية قد تمّ وضعها بمعرفتي الشخصية، وذلك لخلق نوع من الجاذبية والإثارة التي لا بدّ منها.

وكما هو معتاد مع سائر الروايات التي صدرت من قبل فإنّني أقدم تمهيد يسبق فصول الرواية وأحداثها للكاتب أو الكاتبة أحاول فيه أن أسرد السيرة الذاتية من جهة، والسيرة الأدبية من جهة ثانية، مع تدعيمها بالصور التي تخدم الموضوع بما يُحقّق للقراء متعة إضافية.

خالص الأمنيات بقراءة ممتعة شيقّة.

وفيو صفون مختار

القاهرة، في مارس 2020



تمهيد

وُلد الطبيب والكاتب والناشط السياسي اللبناني الدكتور "خليل سعادة" في عام 1857م، ببلدة "الشوير" في لبنان. وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة "المرسلين الأمريكيان"، ثم تابع دراسته الجامعية في الكلية "السوريّة الإنجيليّة" (الجامعة الأمريكية في بيروت حالياً) حيث نال بكالوريوس الطب.

أظهر "خليل سعادة" اهتماماً خاصاً بالقضايا الفكرية والاجتماعية رغم توجهه العلمي الأكاديمي، وكان يكتب خلال سنين دراسته الجامعية الأبحاث الفكرية السياسية، وظهر له أوّل مقال في مجلة "الجنان" التي كان يصدرها الأديب والمؤرخ المُعلّم "بطرس البستاني" (1819-1883م) في بيروت، وعنوانه: "تأخر بلادنا وتقدمها".

مارس مهنة الطب في بلدته "الشوير"، وفي بيروت بعد أن تخرّج طبيباً في عام 1883م. تعاون الدكتور "خليل سعادة" مع كلّ من: عالم النبات والأكاديمي الدكتور "جورج إدوارد پوست" George Edward Post (1838 - 1906م)، الأديب والناقد اللبناني الشيخ "إبراهيم اليازجي" (1847 - 1906م) والطبيب والباحث اللبناني الدكتور «بشارة بن جبرائيل زلزل» (1851 - 1905م)، على إصدار مجلة طبية علمية صناعية هي مجلة "الطبيب" التي استمر صدورها عدة سنوات إلى أن أغلقت.

انتقل الدكتور "خليل سعادة" إلى القاهرة وفيها أصدر عام 1886م عن المكتبة الشرقية أوّل كتاب لغوي بعنوان: "الطوالع السعدية في آداب اللغة الإنجليزية". كما

نشر روايته الأولى باللغة الإنجليزية " الأمير السوري أو الأمير مراد " في عام 1893م
معتبرها قصةً شرقيةً تتضمن أهم العادات والتقاليد في لبنان و"حوران".

وفي القاهرة أسس مع بعض الأفراد "الجمعية المركزية" التي لعبت دوراً سياسياً
سرياً مهماً، وكان هدفها المطالبة بحكم ذاتي للعرب ضمن إطار السلطنة العثمانية.
كتب في جريدة الأهرام أبحاثاً طبية وسياسية في السنوات من 1902 م إلى 1903 م،
وكانت تربطه علاقات وثيقة مع زعماء الحركة الوطنية المصرية.

في صيف عام 1905م أنجز روايته الأولى باللغة العربية - التي نحن بصدد
تقديمها للقارئ المصري والعربي - "أسرار الثورة الروسية"، وهي رواية تاريخية تُعالج
الظروف التي أدت إلى اندلاع ثورة 1905 في "بتروغراد". ونشر أيضاً روايته الثانية
بالعربية: "أسرار الباستيل" وفيها يُعالج الثورة الفرنسية.

في العام 1906 م ترجم إنجيل برنابا من الإنجليزية، ونشر كتابه الطبي "الوقاية
من السّل الرئوي وطرق علاجه". وكان الدكتور "خليل سعادة" يُراسل من القاهرة
جريدة "التايمز" البريطانية ويتقاضى مبلغ خمس جنيهات إسترلينية لقاء كلِّ مقال.
وفي عام 1908م، وبعد عودة العمل بالدستور العثماني عاد إلى وطنه وبدأ نشاطاً
مكثفاً بهدف تشييد المستشفى اللبناني - السوري لمعالجة الأمراض المتوطنة ولكنه
اصطدم مع القنصل الفرنسي الذي لم يحضر حفلة مسرحية أقيمت خصيصاً لجمع
التبرّعات للمستشفى وامتنع عن دفع ثمن البطاقات التي كان قد احتفظ بها. وجه
"سعادة" للقنصل مقالاً لاذعاً على صفحات جريدة "لسان الحال" مندداً فيه على
سياسة فرنسا الاستعمارية في سورية. وكان لهذا المقال أو الكتاب المفتوح أثر كبير
في الرأي العام، لأنَّ مَنْ كان يقف في وجه قنصل فرنسا في ذلك الزمن كمن يقف
في وجه قوّة كبيرة.

عاد الدكتور "خليل سعادة" إلى القاهرة في عام 1909م، ونشط مُجدّداً في





الكتابة في صحيفتي “الأهرام”، و”التايمز“. كانت أبرز أعماله انجازه “قاموس سعادة الإنجليزي” الذي يقع في مجلدين، وفيه ابتكر “سعادة” لأول مرة مئات من الكلمات الفنية في جميع فروع العلوم والفنون، ولم تكن هذه الكلمات معروفة بالمعاني التي وضعها لها.

وبسبب نشاطه الأدبي والوطني، أبلغ من قبل السلطة الحاكمة بعدم رغبتهم ببقائه في مصر، فاضطر إلى الهجرة نحو أمريكا الجنوبية في مطلع العام 1914م حيث امضي هناك العشرين سنة الأخيرة من حياته.

وفي مدينة “بيونس آيرس” العاصمة الأرجنتينية أصدر “سعادة” مجلة “المجلة” من أجل الخدمة الوطنية والعلمية. كما كتب أبحاثاً تاريخية وسياسية باللغة الإنجليزية في جريدة “ستاندرد”، وذلك في السنوات من 1914م إلى 1915م، كما أسس “نقابة الصحافة السورية في الأرجنتين” في نهاية عام 1915م بهدف حماية حقوق الصحفيين السوريين في الغرب. وأسّس أيضاً “الجامعة السورية” في أكتوبر (تشرين الأول) عام 1916م بهدف تقارب أبناء الجالية ومعالجة الأمور الثقافية والاجتماعية والدفاع عن مصالحهم كمواطنين.

كانت قمة أعماله التنظيمية دعوته إلى المؤتمر الديمقراطي الوطني السوري الأول في “بيونس آيرس” الذي عُقد في الخامس عشر من فبراير (شباط) عام 1919م. انتخب هذا المؤتمر لجنة تنفيذية تابعة له، فأرسلت البرقيات إلى مؤتمر الصلح المنعقد في “فرساي”، وإلى الرئيس الأمريكي “توماس وودرو ويلسون” Thomas Woodrow Wilson (1856 - 1924م)، وإلى زعيم حزب الأحرار البريطاني، ورئيس الوزراء “ديفيد لويد جورج” David Lloyd George (1863 - 1945م)، وإلى وزراء الخارجية في “واشنطن”، و”باريس”، و”لندن”، و”روما”، للمطالبة باستقلال سورية وللاحتجاج على إعلان فرنسا “حمايتها لسورية”.



بعد انعقاد هذا المؤتمر، أعلن الدكتور "خليل سعادة" عن تأسيس "الحزب الديمقراطي الوطني"، ونشر برنامجه السياسي في "المجلة"، وكان شعار الحزب المذكور "الاستقلال مع البداوة، خير من العبودية مع الحضارة". وقد لعب هذا الحزب دوراً بارزاً في بث الوعي الوطني في الجاليات السورية في المهاجر الأمريكية في فترة كثفت فرنسا نشاطها في أوساط أبناء الجاليات السورية، وقد أسمع هذا الحزب صوته لحكومات الحلفاء في مؤتمر الصلح مطالباً بالحقوق الطبيعية لسورية، أي: "الاستقلال".

في عام 1919م انتقل "سعادة" إلى "سان باولو" العاصمة البرازيلية، حيث أقام فيها واستدعى عائلته من لبنان. بعد فترة أصدر صحيفته الأسبوعية "الجريدة" واعتبرها صلة وصل بين الوطن والجاليات اللبنانية والسورية والفلسطينية ولسان حال النهضة العصرية. تحولت "الجريدة" إلى منبر لكافة الأقاليم الوطنية في المهاجر الأمريكية الجنوبية حيث ظهرت فيها القصائد الأولى للشاعر اللبناني "إلياس فرحات" (1893 - 1976م)، والشاعر «رشيد سليم الخوري» (1887 - 1984م) المعروف بـ "الشاعر القروي"، و"شاعر العروبة". كما ظهرت أيضاً المقالات الأولى للسياسي والصحافي اللبناني "أنطون سعادة" (1904 - 1949م) الذي عمل مساعداً لوالده في تحرير تلك الصحيفة.

في العام 1923م، وبعد توقف "الجريدة" عن الصدور أعاد "سعادة" إصدار مجلة "المجلة" من "سان باولو" حيث استمرت بالصدور لمدة سنتين. وفي مقالات كتبها في الصحف الصادرة في البرازيل، وجه "سعادة" نداءً للجالية السورية يدعو فيها إلى التبرُّع بهدف إقامة تمثال للقائد العسكري السوري "يوسف العظمة" (1884 - 1920م)، الذي استشهد في مواجهة الجيش الفرنسي الذي قدم لاحتلال سوريا ولبنان للشهيد. أقبلت الجالية على التبرُّع وكُلف فنان إيطالي بصنع التمثال وجرى إرساله إلى دمشق حيث انتصب 1951م، في ساحة البرلمان السوري وسط العاصمة دمشق.





في مطلع عام 1930م كلفه عمدة "الرابطة الوطنية السورية" في "سان باولو" أن يتولى رئاسة تحرير جريدتها "الرابطة"، وتولى "سعادة" هذا المنصب حوالي أربع سنوات متتالية. كما أُنتخب بعد فترة رئيساً شرفياً "للرابطة الوطنية السورية" وبقي في هذا المنصب حتى وفاته في العاشر من أبريل (نيسان) عام 1934م.

ترك الدكتور "خليل سعادة" أبحاثاً عديدة لم تنشر حتى الآن، إضافة إلى رواية مخطوطة بعنوان "أنطونيو وكليوباترا". وقد عني في الفترة الأخيرة من حياته بدراسة وتلخيص النظرية النسبية لعالم الفيزياء الألماني "ألبرت أينشتاين" (Albert Einstein) (1879 - 1955م). ومما يجدر ذكره أن الدكتور "خليل سعادة" كان يُجيد إضافة إلى اللغة العربية اللغات: الفرنسية، والإنجليزية، والإسبانية، والبرتغالية، والتركية.

وفيق صفوت مختار





قبل أن تقرأ

تُعتبر الثورة الروسية من أكثر الأحداث المؤثرة في التاريخ، ولكنها لم تكن نتيجة تطورات آنية بل كانت نتيجة تداعيات تاريخية كثيرة في الإمبراطورية الروسية، وقد أدت تداعيات مقتل " ألكسندر الثاني" Alexander II (1818 - 1881م) واسمه الحقيقي (يكولايفيتش رومانوف) في البداية إلى حدوث ثورة تُعتبر من أعقد الثورات.

الإمبراطورية الروسية:

تُعتبر الإمبراطورية الروسية التي أسسها "بطرس الأكبر"، أو "بيتر العظيم" Peter the Great (1672 - 1725م) عام 1721م، الوريث الطبيعي لقيصرة مسكوفي، والتي كانت تقبع تحت حكم عائلة "رومانوف"، واحدة من أقدم الإمبراطوريات في العالم. وعندما توفي تاركاً وراءه فلسفته ومنهجه في الحكم، والذي سرعان ما أصبح موضع جدال بين السياسيين والفقهاء الدستوريين والقانونيين.

وبعد وفاة "نيكولاي الأول" Nikolai I (1796 - 1855م) تولى "ألكسندر الثاني" عرش الإمبراطورية في عام 1855م، وفي تلك الفترة كانت هناك رغبة عارمة للشعب والسياسيين في حدوث إصلاح شامل؛ فظهرت حركة إنسانية أخذت بالتنامي شيئاً فشيئاً تهاجم العبودية ودعت إلى إلغائها، وقد تمّ تشبيه هذه الحركة في السنوات اللاحقة، بحركة دُعاة إلغاء العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية قبل نشوب الحرب الأهلية فيها.

في عام 1859 م، كان هناك أكثر من 23 مليون عبد يعيشون في ظل ظروف أسوأ من تلك التي عاشها فلاحو أوروبا الغربية في القرن السادس عشر؛ وبناءً على هذه الوقائع والضعفات التي مارسها هذه الحركة والرأي العام، قام "ألكسندر الثاني" بإلغاء نظام العبودية بنفسه بدلاً من انتظار أن يتم إلغاؤه من قبل الشعب عن طريق الثورة.

كان تحرير العبيد في عام 1861 م أهم حدث في القرن التاسع عشر في التاريخ الروسي. وبداية نهاية عهد احتكار الطبقة الأرستقراطية للسلطة. أدى التحرير إلى توريد العمالة الحرة إلى المدن، الأمر الذي نجم عنه نمو القطاع الصناعي، وزيادة حجم الطبقة الوسطى وتأثيرها على المجتمع؛ إلا أن الحكومة لم تقدم للعبيد المحررين الأراضي التي عملوا فيها وعاشوا عليها طيلة سنوات، وعوضاً عن ذلك فرض على هؤلاء الفلاحين دفع ضريبة خاصة إلى الحكومة مدى الحياة، والتي بدورها دفعت ثمناً للمالكين تعويضاً لهم عن الأرض التي فقدوها. وفي أحيان عديدة رهن الفلاحون الأرض نتيجة فقرهم الشديد وعدم مقدرتهم على تسديد هذه الضريبة. امتلكت جميع الأراضي التي سُلِّمَت للفلاحين من قبل "المير"، وهو مجتمع القرية، أي أن هذه الأراضي كانت عبارة عن ملكية مشتركة بين جميع أفراد القرى وكبارها، وكان "المير" يُقسِّم الأراضي بين الفلاحين ويُشرف على إدارة المقتنيات والحقوق الحيازية المختلفة. فعلى الرغم من إلغاء العبودية، إلا أن إلغائها تحقق بشروط غير مواتية للفلاحين، وبناءً على هذا، لم تفتقر التوثرات الثورية بل بقيت على حالها، على الرغم من النوايا الطيبة لـ "ألكسندر الثاني".

في أعقاب اغتيال منظمة "نارودنايا فوليا" الإرهابية المجهولة للقيصر "ألكسندر الثاني"، في عام 1881 م، ورث العرش ابنه "ألكسندر الثالث" Alexander III (1881 - 1894 م) الرجعي الذي أحيا القول





المأثور لـ "نيكولاي الأول": "أرثوذكسية، وأوتوقراطية، ووطنية". اعتقد "ألكسندر الثالث" أنه بإمكانه إنقاذ روسيا من الفوضى عن طريق إبعادها عن التأثيرات التخريبية عليها من قبل دول أوروبا الغربية. فأبرمت روسيا في عهد هذا القيصر اتحاداً مع جمهورية فرنسا لاحتواء القوة المتنامية لألمانيا، كذلك فرضت كامل سيطرتها على آسيا الوسطى وانتزعت تنازلات إقليمية وتجارية مهمة من الصين.

يذكر في هذا السياق و بوجه خاص "قسطنطين بوبيدونوستيف" Constantine Pobedonostev مستشار القيصر الأكثر نفوذاً، ومُعَلِّم "ألكسندر الثالث" ونجله "نيكولاي الثاني"، والنائب العام للمجمع المُقَدَّس من عام 1880م وحتى عام 1895م؛ والذي درَّس تلاميذه الملكيين الخوف من حُرِّيَّة التعبير والصحافة، وكرههم بالديمقراطية والساتير، والنظام البرلماني الأمر الذي كان من شأنه قتل وقمع الثوريين.

ومع حلول القرن العشرين، ومع دخول الثورة الصناعية في روسيا، شكَّل الليبراليون الروس اتحاد "زيمتوف" الدستوري، (1903م)، واتحاد التحرير (1904م) الذي دعا إلى إقامة ملكية دستورية. انتظم الاشتراكيون الروس في مجموعتين رئيسيتين هما: الحزب الاشتراكي الثوري، وحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي. وفي عام 1903م انقسم حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي إلى جناحين في مدينة لندن، "المناشفة" أو المعتدلين و"البلشفية" أو المتطرفين. اعتقد "المناشفة" بأنَّ الاشتراكية الروسية سوف تنمو تدريجياً بشكلٍ سلمي، وذلك أنَّ نظام القيصر ينبغي أن يتحوَّل إلى جمهورية يتعاون فيها الاشتراكيون مع الأحزاب الليبرالية البرجوازية على بناء الوطن. ودعا "البلشفة" بزعامة «فلاديمير ألييتش أوليانوف» Vladimir Ilyich Ulyanov،



المعروف بـ"لينين" Lenin (1870 - 1924م) إلى تشكيل نخبة صغيرة من الثوار المهنيين، تخضع لانضباط الحزب القوي، لتكون بمثابة طليعة الطبقة الكادحة من أجل الاستيلاء على السلطة بالقوة.

الحرب الروسية اليابانية:

وقعت الحرب الروسية اليابانية في المدة من 1904 م إلى 1905م، حيث أدى الخلاف الناجم على امتياز روسيا في غابات كوريا واحتلالها لمنشوريا إلى تفاقم حاد في العلاقات الروسية اليابانية؛ وبالرغم من ضعف المواقف الروسية في الشرق الأقصى لم يتنازل "نيكولاي الثاني" عن حقوقه، ممّا حمل اليابان على البدء في الحرب على روسيا. لقد تسبّب هجوم الأسطول الياباني قبل إعلان الحرب رسمياً على الأسطول الروسي الراسي في ميناء "بورت آرثر" ليلة التاسع من شهر فبراير عام 1904م، تسبب في تعطيل أهم السفن الحربية الروسية وساعد على إنزال القوات اليابانية في كوريا ومنشوريا بدون أن تلقى مقاومة.

بدأ اليابانيون بمحاصرة ميناء "آرثر" في مطلع أغسطس 1904م مستفيدين من عدم حسم القيادة الروسية، فأجبرت في 2 يناير 1905م حامية القلعة على الاستسلام؛ وتمّ تدمير ما تبقى من الأسطول الروسي في "بورت آرثر" من قبل اليابانيين، أو أنّ طاقمها الذي قام بنفسه بتفجير السفن. وفي فبراير من نفس العام، أجبرت اليابان الجيش الروسي على الانسحاب بعد انهزامه في معركة "موكدن" وتدمير الأسطول الروسي الذي نقل إلى الشرق الأقصى من بحر البلطيق خلال معركة "تسوشيما" في الرابع عشر، والخامس عشر من شهر مايو عام 1905م. وانتهت الحرب بعقد معاهدة السلام في مدينة "بورت سموت"



بتاريخ 22 أغسطس 1905 م ، وبموجب شروط السّلام تنازلت روسيا عن حقوقها بالقسم الجنوبي من جزيرة "ساخالين" وحققها باستتجار شبه جزيرة "لياو تونج" والسكة الحديد في منشوريا الجنوبية. كانت نهاية الحرب بهزيمة مفجعة للجيش الروسي أمام القوّة الناشئة في ذلك الوقت ما قلب موازين القوّة في منطقة الشرق الأقصى، وما كان لديه أكبر الأثر في استنزاف موارد الدولة الروسيّة، وكان له دور كبير لكشف الفساد الحادث في مؤسّسات الدولة الروسيّة.

الثورة الروسيّة 1905م:

في 22 يناير 1905، قاد القس "جابون" (الذي قام بإنشاء نقابات العمال بالرغم من أنّه كان متعاوناً مع الشرطة السريّة القيصريّة) مسيرة سلمية للقصر الشتوي في "سانت بطرسبرغ" (التي كانت في هذا الوقت تفتقر إلى الكهرباء) لتقديم الالتماس الذي كتبه القس "جابون" الذي كون صورة واضحة لمشاكل وآراء العمال، ودعا إلى تحسين ظروف العمل وعدالة الأجور وانخفاض ساعات العمل في اليوم إلى ثماني ساعات؛ وتضمنت مطالب أخرى لوقف الحرب الروسيّة اليابانيّة والأخذ بالاعتراع العام.

كان القيصر في حاجةٍ إلى أن يستجيب لمطالب العمال لرفع حالة الاكتئاب التي سيطرت علي روسيا، ولكن حدثت المواجهة بين الحرس الإمبراطوري والمشاركين في المسيرة ممّا يُعرف بـ "الأحد الدامي" وبالرغم من أنّ القيصر لم يكن موجوداً في ذلك الوقت بالقصر الشتوي، إلّا أنّ اللّوم قد أُلقي عليه؛ علماً أنّ عدد القتلى غير مؤكّد، وبينما صرح مسؤولون حكوميون بالقصر بأنّهم سجلوا 96 قتيلاً و333 جريحاً، ادعت مصادر المعارضة أنّ أحداث "الأحد الدامي" أودت بحياة أكثر من 4000 قتيلاً.



تُعتبر أحداث "الأحد الدامي" نقطة تحوّل في روسيا القيصرية حيث أدت إلى الإحساس بضرورة القيام بانتفاضة عامّة ممّا أدى لحدوث ثورة فبراير 1905م. وقد وصف "نيكولاي الثاني" هذا اليوم: بأنّه يوم مؤلم ومحزن. وقد تمّ إغلاق نقابات العمال التي أنشأها "جابون" إثر ذلك اليوم.

وقعت الثورة الروسيّة عام 1905م في فبراير؛ ووافق في إثرها "نيكولاي الثاني" على إنشاء "مجلس الدوما" الإمبراطوري باختصاصات استشارية، ولكن الاضطرابات استمرت وبلغت ذروتها في إضراب عام في أكتوبر 1905م، ففي يوم 14 أكتوبر، قام السياسي "سيرغي ويت" Sergey Witt (1849 - 1915م) رئيس مجلس الوزراء، و"ألكسيس أوبلينسكي" Alexis Oblinsky بتقديم بيان أكتوبر إلى القيصر، وهو بيان تابع عن كُتب مطالب "اتحاد زيمتوف"، ومنح الحقوق المدنية الأساس، والسماح بتشكيل الأحزاب السياسيّة، وتوسيع نطاق حق الانتخاب نحو الاقتراع العام، وإنشاء "مجلس الدوما" باعتباره الهيئة التشريعيّة المركزيّة.

انتظر القيصر "نيكولاي الثاني" وجادل لمدة ثلاثة أيام، ولكن في النهاية وقّع على الوثيقة المتعلقة في 30 أكتوبر 1905م، نظرًا لرغبته في تجنّب حدوث مذبحة، وإدراكه أنّ هناك عدم كفاية في القوّة العسكريّة المُتاحة لكي يفرض خلاف ذلك. وعلى الرغم من توقيعه، أعرب القيصر عن أسفه للتوقيع، وقال أنّه يشعر: "بالمرض مع العار على خيانة سلالته خيانة كاملة".

الخلفية الثقافيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة:

كان الاعتقاد السائد لدى كثير من الفلاحين أنّ الأرض يجب أن تنتمي إلى مَنْ يعمل بها؛ وفي الوقت نفسه، كانت حياة الفلاحين تتعرّض لتغيّرات ثقافيّة واجتماعيّة باستمرار نتيجة الأعداد المتزايدة من سكان القرى



الفلاحين الذين هاجروا من وإلى المدن، وما جلبوه إلى ثقافة القرية من خلال السلع المادية والصحافة. وكان للعمال أسباب وجيهة للسخط، من بينها:

- 1- مساكن مكتظة مع ظروف صحّية يُرثى لها في كثيرٍ من الأحيان.
 - 2- ساعات طويلة في العمل (عشية الحرب العالمية الأولى كان متوسط ساعات العمل 10 ساعات يومياً لمدة ستة أيام في الأسبوع؛ والكثير منهم كان يعمل من 11 إلى 12 ساعة يومياً قبل عام 1916م).
 - 3- خطر دائم من الإصابة والوفاة، والظروف الصحّية سيئة للغاية، بل وجود قواعد انضباط قاسية ليس فقط من خلال الغرامات، ولكن بالتأديب الجسدي أحياناً.
 - 4- الأجور غير الكافية (في أعقاب عام 1914م كانت تكاليف المعيشة قد زادت زيادة حادة في زمن الحرب).
- في الوقت نفسه، كانت الحياة الحضريّة الصناعيّة في نظر الأغلبية كاملة الفوائد، على الرغم من أنّها يمكن أن تكون خطيرة في نفس الوقت. بالرغم من كلّ المصاعب، كان هناك الكثير من التشجيع على التوجه إلى حياة المدن حيث اكتساب مهارات جديدة وتأثيرها على العمال من خلال الشعور باحترام وثقة في الذات، ورفع مستوى الرغبات والطموح. واجه العمال الذين يعيشون في المدن السلع التي لم يكونوا يروها في القرية. الأهم من ذلك أنّ الذين يعيشون في المدن كانوا يتعرّضون إلى أفكار جديدة حول دور السياسية على النظام الاجتماعي.
- أمّا الأسباب الاجتماعيّة للثورة الروسيّة فقد جاءت أساساً نتيجة قرون من الاضطهاد من قبل النظام القيصري، والذي فجره فشل "تيكولاي الثاني"



في الحرب العالميّة الأولى، وبينما كان الفلاحون في الريف الزراعي قد تتحرّروا من العبودية في عام 1861 م ، إلّا أنّهم لا يزالوا يدفعون مبالغ فداء للدولة ممّا أثار استياء الفلاحين، وكان ممّا يزيد من تعقيد المشكلة هو فشل قانون "سيرغي ويت" عن إصلاح الأراضي.

في وقتٍ مبكر حدثت ثورات الفلاحين واضطرابات في بعض الأحيان، وذلك بهدف ضمان ملكية الأرض التي كانوا يعملون عليها. تألّف سكان روسيا بشكل رئيس في ذلك الوقت من الفلاحين الفقراء حيث كان 5,1 ٪ من السكان يملكون 25 ٪ من الأراضي.

وقد أدّى التطوُّر الصناعي المتسارع إلى اكتظاظ المناطق الحضرية للعمال الفقراء؛ فارتفع عدد سكان العاصمة "سانت بطرسبرغ" من 600,033,1 إلى 600,905,1 بين عامي 1890 م و 1910 م، كما شهدت "موسكو" نمواً مماثلاً؛ وخلق ذلك النموّ "بروليتاريا" جديدة بسبب اكتظاظها بالعمال الذين كانوا أكثر ميلاً للاحتجاج والإضراب عن العمل من الفلاحين. ففي إحصائيات أُجريت عام 1904 م في "سانت بطرسبرغ"، وُجد أنّ مُعدل سكان الشقة الواحدة يبلغ 16 فرداً، بمُعدل غرفة واحدة لكلّ 6 أفراد، وكُلّ ذلك بدون مياه جارية، بالإضافة إلى تراكم أكوام من النفايات التي تمثل خطراً على صحّة العمال. بالإضافة إلى كُّل هذه الظروف السيئة كانت الهجمات وحوادث الإخلال بالنظام العام في تزايد سريع قبيل الحرب العالمية الأولى ممّا أدّى لتفاقم الأمور.

الحرب العالميّة الأولى:

اندلعت الحرب العالميّة الأولى في أغسطس عام 1914 م ممّا أدّى في البداية إلى تهدئة الاحتجاجات الاجتماعيّة والسياسيّة، حيث تمّ التركيز في





القتال ضد العدو الخارجي المشترك. في الأسابيع القليلة الأولى من الحرب انضم العديد من المواطنين الروس إلى المظاهرات المناهضة للألمان، ولكن هذه الوحدة الوطنية لم تدم طويلاً. حيث طالت الحرب غير الحاسمة، ولذلك فإن رد الفعل الأكثر انتشاراً في الدفاع عن أرضهم وحياتهم لم يترجم بالضرورة إلى الحماس للقيصر أو الحكومة.

كان دخول تركيا إلى الحرب سبباً في قطع طرق التجارة الخارجية لروسيا والعزل التام لها مما أثر على البضائع بالنقص، بل أيضاً انخفاض شامل في كمية الأسلحة.

كانت المعركة الرئيسة الأولى في الحرب كارثة كبيرة للغاية علي روسيا: ففي عام 1914 م وقعت معركة "تانبيرغ"، حيث فقدت القوات الروسية ما يزيد على حوالي 30.000 قتيل بالإضافة إلى حوالي 90.000 جريح وأسير، بينما عانت ألمانيا من إصابة حوالي 20.000 جريح فقط.

وفي عام 1915 م، اتخذت الأمور منعطفاً سيئاً بكُلّ الأشكال عندما تحوّل تركيز ألمانيا للهجوم على الجبهة الشرقية. وتفوق الجيش الألماني ذو التدريب والقيادة الأفضل، وممّا زاد الأمر سوء عدم فعالية تجهيز القوات الروسية والبولندية، خلال حملة "تارنوف" الهجومية في أكتوبر 1916م، كانت روسيا قد خسرت ما بين 1.600.000 و 1.800.000 من الجنود، بالإضافة إلى 2 مليون أسير و مليون مفقود، بحيث كان مجموع ما يقرب من 5 مليون من الرجال الروس ما بين قتيل وأسير وجريح.

بدأت تقارير العدو المسرية عن هذه الخسائر المذهلة تتسرب إلى الشعب، وقد لعبت دوراً محدوداً في أعمال التمرد التي بدأت في الانتشار، وفي عام 1916م كان الجيش الروسي عبارة عن مجموعة من الجنود



الجوعى تفتقر إلى الأحذية والذخائر وحتى الأسلحة ممّا أدى إلى تفشي الاستياء العام بين الجنود بالإضافة إلى انخفاض الروح المعنوية الذي انتشر نتيجة لسلسلة من الهزائم العسكرية.

كانت معدلات الترقى داخل الجيش علامة أكثر وضوحاً لهذه المذبحة الكارثية، ففي نهاية عام 1914 م أي بعد خمسة أشهر من الحرب، كان حوالي 390 ألف من الرجال الروس لقوا حتفهم وأصيب ما يقرب من مليون. كانت القوات المدربة التي يتم استدعاؤها في وقت الحرب عملة نادرة، طبقة الضباط شهدت التداول بسرعة، سيما في المستويات الأدنى، والتي كانت تملأ بسرعة من الجنود، وكان هؤلاء الرجال عادة من الفلاحين أو العمال وشاء القدر أن تلعب دوراً كبيراً في تسييس القوات في عام 1917 م. لم تقتصر الخسائر الفادحة في ساحات المعارك على الرجال فقط. بل كان الجيش يعاني أيضاً من نقص في البنادق والذخائر (وكذلك الزي الرسمي والمواد الغذائية)، وبحلول منتصف عام 1915 م، كان يتم إرسال الرجال إلى الجبهة بلا أي سلاح حيث الأمل في أن يتمكنوا من تجهيز أنفسهم بالسلاح من الجنود الذين سقطوا من الجانبين في ساحات المعارك. إلا أن الأمر زاد من إحساس الجنود بأنهم لا يجري التعامل معهم كبشر، أو حتى كجنود، بل كمواد خام يتم تبديدها لخدمة أغراض الأغنياء.

وبحلول ربيع عام 1915 م، كان الجيش في تراجع مستمر، والذي لم يكن دائماً بشكل منظم؛ بل كان من المألوف انتشار النهب والفوضى أثناء الانسحاب.

ومع العام 1916 م، كان الوضع قد تحسن في كثير من النواحي. حيث توقف انسحاب القوات الروسية، بل وكانت هناك حتى بعض النجاحات



المتواضعة في الهجمات التي شُنت في تلك السنة، وإن كان ذلك على حساب خسائر كبيرة في الأرواح. أيضاً، وتمَّ حلَّ مشكلة نقص الموارد إلى حدٍّ كبير من خلال بذل جهود كبيرة لزيادة الإنتاج المحلي، ومع ذلك، بحلول نهاية عام 1916م، كانت الروح المعنوية بين الجنود أسوأ ما كانت عليه خلال الانسحابات الكبرى.

وفي عام 1916م، وبالرغم من تحسُّن حظوظ روسيا في الحرب، ولكن واقع الحرب كان لا يزال بعيداً عن حياة الأفراد والأسر. ترجع جذور الأزمة إلى المعنويات (كما قال "يلدمان ألان"، وهو مؤرخ بارز في الجيش الروسي في الحرب والثورة): "يشكل أساس انتشار الشعور باليأس المُطلق في أن هذه المذبحة ستنتهي من أي وقت، وأن إمكانية تحقيق النصر شيء من المحال".

لم تحطم الحرب الجنود فقط بل بحلول نهاية عام 1915م كانت هناك إشارات إلى أنَّ الاقتصاد تحطم أيضاً تحت تنامي الطلب في زمن الحرب. وكانت المشكلة الرئيسة تتلخص في نقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار. كُلُّ ذلك مصاحب بانخفاض الدخل بمعدل ينذر بالخطر جعل من الصَّعب على المرء شراء الاحتياجات الرئيسة. وكانت هناك أيضاً مشكلة خاصَّة في العاصمة "سانت بطرسبرغ" حيث زادت مسافات شبكات النقل لنقل احتياجات الأفراد ممَّا جعل الأمور سيئة للغاية. نتيجة لكلِّ ذلك أصبحت المتاجر مغلقة في وقت مبكر أو كُلياً لعدم وجود الخبز والسكر واللحوم. في الواقع أصبح من الصَّعب على نحوٍ متزايد توفير وشراء المواد الغذائية.

عانى الشَّعب زيادةً مطردةً في الأسعار في الفترة من منتصف عام 1915م، وكذلك من انتشار الجريمة. نساءً من الطبقة العاملة في "سان

بـطرسبرغ“ أمضين حوالي 40 ساعة ووصلت أحياناً إلى نحو أسبوع في طوابير للحصول على الغذاء، بل أن كثير منهم تحوّل إلى الدعارة والتسول أو الجريمة.

لقد هُدمت الأسوار الخشبيّة للحفاظ على نيران موائد التدفئة، وانتشر التذمّر بين الأغنياء، وتساءل الجميع متى وكيف تأتي نهاية تلك المأساة؟ أبدي المسؤولون الحكوميون قلق متزايد حول كيفية استمرار صبر الناس. وفي أكتوبر 1916م كان هناك تقرير صادر عن فرع “سانت بطرسبرغ“ لشرطة الأمن، و“الأوكرانا“ (الشرطة السرية القيصريّة)، حذّر بصراحة من: “احتمال انتشار أعمال شغب في القريب العاجل من قِبل الطبقات الدنيا من الإمبراطورية نتيجة الغضب من عدم توفر أعباء الحياة اليوميّة.“

أنّحي باللائمة على “نيكولاي الثاني“ لحدوث جميع هذه الأزمات. كما نعى السخط بداخل “مجلس الدوما“ الإمبراطوري الذي أصدر تحذيراً له في نوفمبر 1916م. وذكر أنّه لا محالة، وقوع كارثة رهيبّة في البلاد ما لم يتم وضع الشكل الدستوري للحكومة بشكل واضح في أسرع وقت، ومع ذلك، تجاهل “نيكولاي الثاني“ كلّ ذلك.

“ألكساندرا”، و“راسبوتين“:



كان “نيكولاي الثاني“ اتخذ القيادة المباشرة للجيش والإشراف شخصياً على المسرح الرئيس للحرب في روسيا، وترك زوجته “ألكساندرا“ الطموحة، ورئيس الوزراء ولكنهم كانوا غير قادرين على إدارة الحكومة. بدأت تظهر تقارير عن الفساد وعدم الكفاءة في الحكومة الإمبراطورية، والنفوذ المتزايد للنس “جريجوري يافيموفيتش راسبوتين“ Gregory Yavimovich (1869 - 1916م) الذي تمكّن من علاج ولي العهد “ألكسي“،





والتأثير على الإمبراطورة "ألكساندرا" والعائلة الإمبراطورية ممّا أثار استياء الشعب على نطاق واسع.

حاصر الجدل نفوذ "جريجوري راسبوتين" بين العائلة المالكة الروسية، خصوصاً مع تكهنات حول علاقته مع زوجة القيصر والشائعات بأنّ له تأثير من العلاقات الجنسيّة مع زوجات العديد من المسؤولين. لهذا، في نهاية المطاف اغتيل "راسبوتين" على أيدي أفراد من العائلة المالكة. وعلاوة على ذلك، فإن تراث "ألكساندرا" الألماني، جعلها على صورة لا تحظى بشعبية في "سانت بطرسبرغ" في حين أن روسيا كانت في حالة حرب مع ألمانيا.

المرحلة الأولى (ثورة فبراير):

نتيجة للإحباط الذي ساد المجتمع، اندلعت هذه الثورة من دون قيادة محدّدة أو خطط رسمية، والتي يمكن اعتبارها مؤشراً على حقيقة أنّ الشعب الروسي كان قد اكتفى تماماً في النظام القائم.

وفي 23 فبراير عام 1917 م، أصبحت العاصمة "سانت بطرسبرغ" محور الاهتمام، حيث بدأ النّاس المشاركة في المظاهرات، وانضم إليهم الآلاف من عاملات النسيج اللاتي انسحبن من المصانع جزئياً للاحتفال باليوم العالمي للمرأة، ولكن أساساً للاحتجاج على النقص الحاد في الخبز. أعداد كبيرة من الرجال والنساء دعت إلى الإضراب، وتسربت الدعوة للإضراب إلى المصانع التي لا تزال تعمل حيث وجهت الدعوة للعاملين لديهم للانضمام إليهم. وسار الغوغاء في الشوارع، مع صرخات: "الخبز!"، و"أعطونا خبزاً!".

وبجهود المئات من النشطاء الاشتراكيين، انتشرت دعوة الإضراب العام في المصانع والمحلات التجاريّة في جميع أنحاء العاصمة. وبحلول 25



فبراير، أُغلقت - تقريباً - كُلّ الشركات الصناعية في "سانت بطرسبرغ" جنباً إلى جنب مع العديد من المحلات التجاريّة، وخدمات الشركات، وأصحاب الياقات البيضاء (الأطباء والمُعَلِّمون والطلاب) انضموا إلى العمال في الشوارع، والجلسات العلنية.

أدان "مجلس الدوما" الحكومة وطالب نواب المجلس من وزراء الحكومة تدابير أكثر شدة مع ملاحظة أنّ "مجلس الدوما" يتألف أساساً من البرجوازيين، ثُمَّ تطوّر الأمر إلى الضغط على القيصر لكي يتنازل ويقبل الهزيمة من أجل تفادي وقوع الثورة.

مساء يوم السبت 25 مارس، وبعد أن فقدت الشرطة السيطرة على الوضع، "نيكولاي الثاني"، الذي رفض أن يصدق هذه التحذيرات حول خطورة هذه الأحداث، وجه برقية إلى رئيس المفوضية لمنطقة "سانت بطرسبرغ" العسكرية الجنرال "سيرجي خابالوف" Sergey Khabalov ، يقول فيها : "أنا أوصيكم بالعمل بداية من الغد على وقف الاضطرابات في العاصمة، التي تُشكّل أمراً غير مقبول في الوقت الصّعب من الحرب مع ألمانيا والنمسا".

ومع بداية يوم 26 مارس، رفض معظم الجنود طاعة هذه الأوامر وانتشرت حركات التمرد بين عشية وضحاها التي بدأت في كثير من الأحيان عن طريق ضباط من رتبٍ صغيرة.

انضمت القوات المسلحة للعمال، الجنود الذي تمّ إرسالهم من قبل الحكومة لقمع أعمال الشغب كثير منهم انضموا إلى المتظاهرين وأطلقوا النّار على الشرطة، مع ربط شرائط حمراء صغيرة على حراب السلاح الخاص بهم، بل أنّ أعداد الجنود المارقين فاقت عدد رجال الشرطة، مع





هذا التفكُّك شبه الكامل للقوَّة العسكرية في العاصمة، انهارت فاعلية السلطة المدنية.

قدَّمت الحكومة استقالتها إلى القيصر الذي اقترح قيام دكتاتورية عسكرية مؤقتة، ولكن قادة المؤسَّسة العسكريَّة الروسيَّة رفضوا هذه الدور. وفي الوقت نفسه كان "نيكولاي الثاني" على الجبهة مع الجنود، حيث كان يراقب عن كثب هزيمة روسيا في "تانينبُرخ". وكان قد أصبح مرهقاً للغاية، وواعياً لحقيقة أنَّ التظاهرات كانت على تمتد نطاق واسع، بل إنَّه كان يخشى على حياته. وكان سوء الحالة الصحيَّة لابنه "ألكسي" (الذي كان يُعاني من اضطرابات الدَّم الهيموفيليا) يُسبِّب له صعوبات، فأجبر على العودة إلى العاصمة.

تنازل " نيكولاي الثاني" عن العرش:

عندما وصل القيصر أخيراً إلى العاصمة، اقترح قادة الجيش ووزرائه المتبقين (أولئك الذين لم يفروا يوم 28 فبراير تحت ذريعة فراغ السلطة) تنازل القيصر عن سلطاته وعرشه. فقد قبل "نيكولاي الثاني" الهزيمة وتنازل عن العرش في 13 مارس إلى شقيقه الدوق الأكبر "مايكل ألكسندروفيتش".

تشكيل الحكومة المؤقتة:

عرض على "مايكل ألكسندروفيتش" أن يصبح القيصر، ولكنَّه رفض لرغبته في أن يكون القرار من خلال الحكومة المؤقتة لحين إجراء استفتاء ديمقراطي في المستقبل. وأعلن نواب "مجلس الدوما" الإمبراطوري قيام الحكومة المؤقتة التي يرأسها الأمير "غريغوري لفوف



” Gregory Luffoff (1861 - 1925م) ، الإصلاحى المعتدل . وفى اليوم
التالى ألقى القبض على القيصر .

الأزمات التى واجهت الحكومة المؤقتة:

فى مذكرة دبلوماسية صدرت فى الأول من شهر مايو، أعرب وزير
الشؤون الخارجية عن: “رغبة الحكومة المؤقتة فى استمرار تعهداتها بالنسبة
إلى الحلفاء، واستمرار الحرب ضد قوات المحور لحين خروج روسيا
منتصرة ”، ممّا أثار سخط واسع النطاق.

وفى الأربعة أيام الأولى من تقديم المذكرة قام حوالى 100 ألف من
العمال والجنود فى “سانت بطرسبرغ”، وبعدهم العمال والجنود من المدن
الأخرى تحت قيادة البلاشفة بمظاهرات تحت لافتات كتبت عليها: “تسقط
الحرب”، وأدت المظاهرات الحاشدة إلى أزمة للحكومة الانتقالية.

وفى الأول من شهر يوليو، تجمع حوالى 500 ألف من العمال والجنود
فى “سانت بطرسبرغ: رافعين شعارات: “كُل السلطة للسوفييت ”، “فلتسقط
الحرب ”.

أمّا الحكومة المؤقتة فقد فتحت هجوماً ضارياً ضد الألمان، ولكنه
سرعان ما انهار فى 15 يوليو. وعززت الأبناء عن الهجوم وانهاره نضال
العمال والجنود. وبدأت أزمة جديدة فى الحكومة المؤقتة.

بدأ العمال والجنود فى مظاهرة عفوية يوم 16 يوليو مُطالبين بسلطة أكبر
للسوفييت، فقامت اللجنة المركزيّة بحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي
الروسي بتوفير القيادة للحركة العفوية.

وفى 17 يوليو، شارك أكثر من 500 ألف شخص فى تظاهرة سلمية فى
“سانت بطرسبرغ”. لكن الحكومة المؤقتة وبدعم من “المناشفة” قامت بشن



هجوم مسلح ضد المتظاهرين. حيث لقي 56 شخصاً مصرعهم مع إصابة 650 من الأشخاص.

انقلاب الجنرال "كورني洛夫":



بدأت مؤامرة ضد الحكومة، بقيادة "لافار كورني洛夫" (1870 - 1918م) Lavar Kornilov الذي كان القائد العام للقوات المسلحة منذ 18 يوليو، حيث اعترض علي سياسة "ألكسندر كيرينسكي" (1881 - 1970م) رئيس الوزراء في الحكومة المؤقتة إبان ثورة فبراير عام 1917 م، الرامية إلى ما وصفه بحل الجيش والهزيمة في الحرب.

استجابةً لنداء "البلاشفة"، بدأت الطبقات العاملة في موسكو إضراباً بحوالي 400 ألف عامل. واجتاحت موسكو موجة من الإضرابات والمظاهرات بل وامتدت الاحتجاجات إلى "كييف"، و"خاركوف"، و"إيكاترينبرج" وغيرها من المدن بغرض أن تتخذ الحكومة الروسية المؤقتة خطة للانسحاب من الحرب العالمية الأولى.

وفي 25 أغسطس، بدأ اليميني "لافار كورني洛夫" تمرداً عسكرياً وبدأ يتحرك في اتجاه "سانت بطرسبرغ". وبحلول يوم 27 أغسطس ناشدت اللجنة المركزية لحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي العمال والجنود والبحارة الاتجاه لـ "سانت بطرسبرغ" للدفاع عن الثورة. فقام الحزب البلشفي بتعبئة وتنظيم الشعب لهزيمة التمرد واتجه الحرس الأحمر إلى العاصمة، وبلغ عدد قواته حوالي 25 ألف مقاتل بالإضافة إلى حامية المدينة، وقام كل من بحارة أسطول بحر البلطيق، وعمال السكك الحديدية، والعمال في موسكو، والجنود في الجبهة وفي العمق بالدفاع بمواجهة الجنرال "كورني洛夫" قائد التمرد وهزيمته التي تمت على أيدي قوات غير نظامية.



بالرغم من نجاح الحكومة الروسية المؤقتة من إفشال تمرد الجنرال "كورنيلوف"، ولكن ذلك دلّ على ضعف الحكومة المؤقتة التي اضطرت للاستعانة بـ"البلاشفة"، في حين دلّ على قوّة "البلاشفة" وأدى إلى زيادة سلطتهم ونفوذهم.

ازدواجية السلطة:



في 31 أغسطس، اكتسح "البلاشفة" انتخابات اتحاد العمال (السوفييت) في سائر المدن الروسية. وفي الأوّل من شهر سبتمبر، تلقت اللجنة التنفيذية المركزيّة للسوفييت طلبات من 126 من مجالس السوفييت المحلية حتّها على الاستيلاء على السلطة.

وفي سبتمبر وأكتوبر 1917م، كانت هناك إضرابات من قبل العمال في "موسكو"، و"سانت بطرسبرغ"، وعمال المناجم من "دونباس"، والحدادين من جبال الأورال، وعمال النفط في "باكو"، وعمال الغزل والنسيج، وعمال السكك الحديدية. في هذه الأشهر القليلة كان هناك أكثر من مليون عامل شاركوا في الإضرابات، فقام العمال بالسيطرة على الإنتاج والتوزيع في العديد من المصانع.

المرحلة الثانية (الثورة البلشفية):



الثورة "البلشفية"، أو ثورة أكتوبر كانت المرحلة الثانية من الثورة الروسية عام 1917م، قادها "البلاشفة" تحت إمرة وقيادة "فلاديمير لينين" الذي كان قائدها بناء على أفكار الفيلسوف والاقتصادي الألماني "كارل ماركس" Karl Marx (1818 - 1883م)؛ لإقامة دولة شيوعية وإسقاط الحكومة المؤقتة. وتُعد الثورة "البلشفية" أوّل ثورة شيوعية في القرن العشرين الميلادي.





أسباب الثورة البلشفية:



كانت سياسات الحكومة الروسية المؤقتة قد دفعت البلاد إلى حافة الكارثة. اضطرابات في الصناعة والنقل، وازدادت الصعوبات في الحصول على أساسيات الحياة، وانخفض إجمالي الإنتاج الصناعي في عام 1917م بنسبة تزيد على 36 في المئة عما كان عليه في العام 1916م. كما أن 50 ٪ من جميع الشركات قد تم إغلاقها مما أدى إلى ارتفاع معدلات البطالة. وفي الوقت نفسه، ارتفعت تكاليف المعيشة بشكلٍ حاد. وتراجعت الأجور الحقيقية للعمال نحو 50 ٪ عما كانت عليه في العام 1913م. وكانت ديون روسيا في أكتوبر 1917م ارتفعت إلى 50 مليار روبل. كما تُشكّل الديون المستحقة للحكومات الأجنبية أكثر من 11 مليار روبل، لقد كانت البلاد تواجه خطر الإفلاس.

أحداث الثورة:



في العاشر من شهر أكتوبر 1917 م، صوتت اللجنة المركزية لحزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي بموافقة 10 ضد 2 للقرار الداعي إلى أن: " انتفاضة مسلحة أمر لا مفر منه، وبأن الوقت قد حان لذلك تماما ". وفي 23 أكتوبر، قام الثوار اليساريين بانتفاضة في "تالين"، عاصمة "إستونيا". وفي 25 أكتوبر قاد "البلاشفة" قواتهم إلى الانتفاضة في "سانت بطرسبرغ" العاصمة، وفي مقاومة غير فعالة من قبل "ألكسندر كيرينسكي" والحكومة المؤقتة، تمكّن "البلاشفة" من الاستيلاء على المرافق الحكومية الرئيسة.

وفي ليلة 26 أكتوبر، تم إطلاق الهجوم على القصر الشتوي للقيصر



الذي كان يحرسه القوزاق وكتيبة من النساء الذي تمت السيطرة عليه بدون مقاومة تذكر. وقد أعلنت الحكومة الجديدة التي شكّلها "البلاشفة" خروج روسيا من الحرب العالمية ورغبتها في توقيع اتفاقية منفردة مع ألمانيا. كما أصدر "البلاشفة" الذين اغتصبوا السلطة في البلاد مراسيم تقضي بمصادرة أراضي كبار الإقطاعيين ومعامل الرأسماليين بالإضافة إلى إعلان حق شعوب الإمبراطورية الروسية بالانفصال عنها.

وفي 12 نوفمبر 1917م أجريت في روسيا الانتخابات في الجمعية التأسيسية (البرلمان). لكن الحزب البلشفي لم يحصل فيها على أغلبية الأصوات، كما عول على ذلك. وبعد رفض نواب البرلمان إقرار المراسيم الصادرة عن الحكومة "البلشفية"، وتمّ حل الجمعية التأسيسية بقوة في يناير عام 1918م، الأمر الذي أثار احتجاج القوى الديمقراطية في البلاد. لكن "البلاشفة" أمروا بإطلاق التيار على المظاهرة السلمية ممّا أدى إلى مقتل 21 شخصاً.

النتائج:

- 1- تمّ إقرار مجلس مفوضي الشعب كأساس للحكومة الجديدة.
- 2- قام مجلس مفوضي الشعب بإقرار سلسلة من الاعتقالات لكلّ من زعماء المعارضة، وقادة المناشفة، والحزب الاشتراكي الثوري وسجنهم بقلعة بولس وبطرس.
- 3- في 20 ديسمبر أسّس "لينين" لجاناً استثنائية من شأنها مكافحة الثورة المضادة، الأمر الذي يعتبر كنقطة بداية لقضاء "البلاشفة" على كامل أعدائهم ومعارضيه، حيث بدأت تلك اللجان الاستثنائية بممارسة الإرهاب



الجماعي ضد ممثلي الفئات الغنية والمتوسطة للمجتمع الروسي، والمتقنين، ورجال الدين، والضباط المشتبه بمعاداتهم للسلطة الجديدة.

4- تمّ إطلاق مجموعة من المراسيم تشمل:

أ - مرسوم يقضي بأن يقوم الفلاحين الذين استولوا على الأراضي الخاصة في جميع أنحاء روسيا، بإعادة توزيعها فيما بينهم.

ب - تأميم جميع البنوك الروسية.

ج - مصادرة جميع الحسابات المصرفية الخاصة.

د - مصادرة خصائص الكنيسة (بما في ذلك الحسابات المصرفية).

هـ - التبرؤ من جميع الديون الخارجية.

و - إصلاح الأجور بمعدلات أعلى ممّا كان عليه خلال الحرب، ودوام أقصر، لمدة ثماني ساعات يوم العمل.

المرحلة الثالثة (الحرب الأهلية الروسية):



وهذه المرحلة تُعتبر الفصل الأخير من الثورة الروسية، وقد استمرت الحرب الأهلية تقليدياً ثلاث سنوات في الفترة من 1918م حتى 1921م، غير أنّ هناك مَنْ يجعل هذه الفترة تمتد لست سنوات من عام 1917م حتى عام 1923م.

لم تكن هذه الحرب بين "البلاشفة" والروس البيض فقط بل كانت هناك فرصة لتدخل العديد من القوى الداخلية والخارجية، مثل: اليابان، بريطانيا، كندا، فرنسا، إيطاليا، الولايات المتحدة الأمريكية، ألمانيا، أستراليا، اليونان، وتشيكوسلوفاكيا.

أسباب الحرب الأهلية الروسية:



طرح "فلاديمير لينين" زعيم "البلاشفة" في عام 1914م فكرة تحويل الحرب الإمبريالية إلى حرب أهلية. وبعد صعود "البلاشفة" إلى السلطة في روسيا في أكتوبر عام 1917م كانت لا تزال هذه الفكرة مُلحّة وبشدة، إذ أنّ غالبية المسؤولين "البلاشفة" ظلوا يعولون على أنّ الثورة في روسيا سوف تتحوّل فيما بعد إلى ثورة عالمية، ورأوا في إشعال الحرب الأهلية وسيلة فعالة لذلك. وأشار مؤرخون إلى أسباب أخرى لاندلاع الحرب الأهلية في روسيا، وبينها:

- 1- مقاومة الطبقات الحاكمة التي فقدت السلطة والممتلكات.
- 2- حلّ الجمعية التأسيسية (البرلمان) من قبل "البلاشفة" الذين شكّلوا أقلية فيها.
- 3- توقيع معاهدة "بريست - ليتوفسك" الانفصالية المهينة مع ألمانيا.
- 4- إجراءات "البلاشفة" القمعية في الريف التي استهدفت الأغنياء من الفلاحين بغية مصادرة ما تبقى لديهم من الحبوب.
- 5- دور الأسرى العسكريين النمساويين والمجريين والتشييك الذين حاولوا حلّ مشاكلهم باستخدام القوة في روسيا.
- 6- تدخل دول التحالف الرباعي (بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية) في الشؤون الداخلية لروسيا.

المراحل التي مرّت بها الحرب الأهلية الروسية:



ينقسم تاريخ الحرب الأهلية في روسيا إلى ثلاث مراحل رئيسة، هي:
- المرحلة الأولى (أكتوبر عام 1917م - نوفمبر عام 1918): التي تتصف



بقيام الجيشين لدى القوّتين المتعارضتين وتدخّل دول التحالف الرباعي في شؤون روسيا والانتقال التدريجي من اشتباكات محدودة إلى معارك واسعة النطاق.

- المرحلة الثانية (نوفمبر عام 1918م - مارس عام 1920م): التي وقعت فيها المعارك الرئيسة بين الحرسين: الأبيض، والأحمر، وتقلّص التدخل الأجنبي الناتج عن انتهاء الحرب العالمية الأولى، وقد فرضت قوات الجيش الأحمر سيطرتها على الجزء الأكبر لأراضي البلاد.

- المرحلة الثالثة (مارس عام 1920م - أكتوبر عام 1922م): التي دار الصّراع المسلح الأساس بين المعسكرين الأبيض والأحمر فيها بالمناطق البعيدة عن العاصمتين ووسط البلاد.

نتائج الحرب الأهلية الروسية:

كانت نتائج الحرب الأهلية خطيرة. حيث كانت روسيا في حالة حرب لمدة سبع سنوات، وخلال ذلك فقدت حوالي 2 مليون من شعبها. وكانت الحرب الأهلية التي قتل بها حوالي مليون ونصف قتيل، بما في ذلك ما لا يقل عن مليون من جنود الجيش الأحمر الروسي، وأكثر من 500 ألف من جنود الروس البيض الذين لقوا حتفهم في المعركة. وتمّ خلال الإرهاب الأحمر، أن قامت قوّات "الشيكا" وحدها بتنفيذ حوالي 250 ألف حكم إعدام بلا محاكمة لـ "أعداء الشعب".

وحوالي من 300 ألف إلى 500 ألف من أصل ثلاثة ملايين قوزاقي قتلوا، أو رحلوا من موطنهم. وما يُقدر بحوالي 100 ألف يهودي قتلوا في أوكرانيا، ومعظمها من قبل الجيش الأبيض. كما أن الأجهزة الأمنية في حكومة «ألكساندر كولتشاك» (1874 - 1920م) قتلت 25 ألف شخص في مقاطعة «إيكاترينبرغ» وحدها.



مع نهاية الحرب الأهلية، كانت كُلى قوى روسيا السوفيتية قد استنفدت وظهرت سحب الخراب القريب. كان الجفاف منتشرًا عام 1920م و 1921م، فضلا عن مجاعة عام 1921م جعلت الأمور أكثر كارثية. فقد مات الملايين بسبب المجاعة.

ويُذكر أنه قبل عام 1922م كان هناك ما لا يقل عن 7 مليون طفل في شوارع روسيا مشردين نتيجة لعقد من الزمن تقريباً من الدمار الذي خلفته الحرب العالمية الأولى، والحرب الأهلية الروسية، بالإضافة إلى ذلك المرض الذي وصل إلى أبعاد الوباء، حيث كان حوالي 3 مليون شخص يموتون من التيفود وحده في عام 1920م. وكان حوالي 2 مليون من الروس البيض مهاجرين، فارين إلى بعض دول الشرق الأقصى، والبعض الآخر فر إلى الغرب حيث دول البلطيق المستقلة حديثاً. وشملت هذه الهجرة جزءاً كبيراً من ذوي المؤهلات التعليمية والعمال المهرة.

لقد دُمر الاقتصاد الروسي تماماً خلال الحرب، حيث دُمرت المصانع والجسور، ونهبت الماشية والمواد الخام، والمناجم اجتاحتها الفيضانات، وتلفت الآلات. ووصلت قيمة الإنتاج الصناعي والزراعي إلى حالةٍ شديدة من التدنّي. ووفقاً لصحيفة "برافدا" السوفيتية: "فإنّ العاملين في المدن وبعض القرى المكتظة بالسكان يعانون من الجوع، والسكك الحديدية بالكاد تزحف، والبيوت متداعية. والبلدات منهكة بالكامل نتيجة الموت والصناعة الميتة والأوبئة المدمرة انتشرت".

كما أشارت التقديرات إلى أنّ مجموع الناتج من المناجم والمصانع في عام 1921م قد انخفضت إلى 20 ٪ من مستوى ما قبل الحرب العالمية، والعديد من العناصر الأساس ، قد شهدت انخفاضاً بشكلٍ جذري. على سبيل المثال، انخفض إنتاج القطن إلى 5 ٪، والحديد إلى 2 ٪ من مستويات ما قبل الحرب.





ومع نهاية الحرب، لم يعد يواجه الحزب الشيوعي تهديداً حاداً، ومع ذلك فإن التهديد من تدخّل آخر من القوّى الأجنبية، بالإضافة إلى فشل الثورات الاشتراكية في البلدان الأخرى، وأبرزها الثورة الألمانية، ساهمت في استمرار عسكرة المجتمع السوفيتي.

إعدام "نيكولاي الثاني"

ألقي القبض على القيصر وتنازل عن الحكم. ووضعت الأسرة تحت الإقامة الجبرية في قصر ألكسندر في "سيلو تراسكوي" خلال الثورة الروسية. وعندما اقترب "البلاشفة" من الحكومة قام "ألكسندر كيرينسكي" رئيس الوزراء بنقل الحكومة المؤقتة إلى "توبولسك" بـ"سيبيريا". وبعد أن دانت السيطرة لـ"البلاشفة" على روسيا، تمّ نقل القيصر وعائلته إلى بيت للاستعمالات الخاصّة في "يكاترينبرج".

كان الروس البيض (الموالين والمؤمنين بحق القيصر ومبادئ الحكم المطلق) في تقدّم مستمر باتجاه "يكاترينبرج" حيث كان الوضع غير مستقر، ولذلك أُتخذ القرار بأن يتمّ التخلّص من الأسرة كاملة حتى لا يجد الروس البيض لهم أي أثر عند وصولهم.

قُتل "نيكولاي الثاني"، وزوجته، وابنه، وبناته الأربع، وطبيب العائلة، وخادم القيصر، وسيدة الإمبراطورة، وأسرة الطباخ جميعاً في غرفة واحدة على أيدي البلاشفة في ليلة 17 يوليو من عام 1918م، علي يد الناشط البلشفي "ياركوف ميكولوفيتش يورفسكي" Yarkov Mikulovich Yurovsky (1878 - 1938 م).

وقد وصف «يورفسكي» إلى رؤسائه «البلاشفة» في أعقاب تنفيذ



المذبحة تقرير (تمّ العثور في عام 1989م، ونُشر عام 1992 م في كتاب: “
رادزينسكي إدوارد وآخر القياصرة)، ووفقاً للمذكرة، نقرأ التالي:

“...في ليلة القتل أيقظوا الأسرة. وقيل لهم أنّه سوف يتم نقلهم إلى موقع
جديد لضمان سلامتهم تحسباً لأعمال العنف التي قد تترتب على وصول
الجيش الأبيض “يكاترينبرج”. جمعت الأسرة ودائرة صغيرة من الموظفين
الذين ظلوا معهم في غرفة صغيرة في الطابق السفلي من المنزل، وطلب منهم
الانتظار. وبعد عدة دقائق، دخل الجلادون الغرفة، برئاسة “يورفسكي”. أبلغ
بسرعة القيصر وعائلته المهمة التي سيتم تنفيذها.

وكان القيصر طوال الوقت يقول فقط: ماذا؟... ماذا؟. وانتقل إلى
أسرته قبل أن يُقتل بعدة رصاصات في الصدر (وليس، كما هو شائع،
في الرأس، لأنّ جمجمته التي تمّ استعادتها في عام 1991 م ، لا تحمل
أي إصابات بأعيرة نارية). وقتل القيصر، والإمبراطورة في الحلقة الأولى
لإطلاق النار؛ بالإضافة إلى أنّ “أليسكي” (ابن القيصر)، والخادمة “ماري”،
والدكتور “بوتكين”، والخادمة “ديميدوفا” أصيبوا بجروح. وكان الدخان
الكثيف يملأ الغرفة نتيجة العدد الكبير من الأسلحة التي تطلق من مسافات
قريبة، وكذلك من الغبار المنبعث من الجص على الجدران بالرصاص.
ممّا لا يسمح برؤية واضحة وغادر المسلحون الغرفة لبضع دقائق، تاركين
وراءهم كلّ الضحايا، بعد أن عاد المسلحون، قُتل الدكتور “بوتكين”، وتمّ
ذبح “أليكسي” الصّغير على يد مسلح حاول مراراً وتكراراً إطلاق النار أو
طعن الفتى في الجذع حيث كان محمياً.

وفيق صفوت مختار



أحداث رواية

أسرار الثورة الروسية



Secrets of
the Russian Revolution





الفصل الأول

الفقر.. والظلم.. والتنكيل

Poverty, injustice and abuse



كنتُ في أوائل العُمر من أسرة ذات ثروة طائلة وجاه بعيد الصيت، وكان
والدي أعظم تجار مدينة «بطرسبرج»⁽¹⁾ وأكثرهم نفوذاً ولم يكن لي سوي شقيقة
ربيت وإياها إلي أن ترعرت وبلغت سن الرشد، وإذ ذاك اضطررت إلي ترك الأهل
ومغادرة الأصدقاء للقيام بالخدمة العسكرية التي يقضي بها قانون البلاد وكان ذلك
أمراً عسيراً عليّ لأنّي اعتدت الترف والرفاهية، ولكنني تجلّدت وصبرت.

(1) سانت بطرسبرغ، والتي عُرفت سابقاً باسم «لينينغراد» في (1924-1991م)، وباسم «بیتروغراد» في (1914-1924م)، هي مدينة روسية تقع في شمال غرب روسيا في دلتا نهر نيفا، شرق خليج فنلندا، في بحر البلطيق. وتعتبر أحد أكبر مراكز أوروبا الثقافية.

أسس المدينة القيصر «بطرس الأول» في 27 مايو 1703م كنافذة مطلة على أوروبا، ببناء قلعة
ضخمة على نهر نيفا الكبير في الخليج الفنلندي (بحر البلطيق)، ثم اتسعت رغم وعورة المنطقة وكثرة
المستنقعات وسرعان ما تحوّلت إلى ميناء عسكري تجاري كبير، وساهمت بصنع الانتصار في حرب
الشمال العظمى التي استمرت أكثر من عشرين عاماً آنذاك. ومن مدينة سانت بطرسبرغ انطلقت
قذائف البارجة أفرورا باتجاه قصر الشتاء مُعلنة بدء الثورة الروسية عام 1917م. (المُعد).



أمّا الموضع الذي ذهبت إليه لإتمام الخدمة العسكرية فهو بجانب سهول بحيرة "كوبنسكوي" الفقيرة، فتحملت المشاق صابراً علي مضض العيش، وكانت الرسائل التي ترد عليّ من أسرتي تبعاً بلسماً شافياً لقلبي، وحافزاً للنشاط والإقدام، ونوراً يُبَدّد عن عينيّ ذلك الظلام الدامس، إلّا أنّه ما انقضي عليّ سنتان من الزمن حتي انقطع ورود هذه الرسائل فجأة، فبعثت أستنبئ الأهل دون أن يردني جواب علي الإطلاق، فطيّرت علي جناح البرق رسائل استقصي بها الأسباب، ولمّا لم يجدني ذلك نفعاً بعثت بكتبٍ عديدةٍ إلي أخص الأصدقاء دون أن أظفر بطائِل، ولمّا أعيتني الحيلة تقدّمت إلي رؤسائي استأذنهم بالذهاب إلي "بطرسبرج" فذهبت أتعايي أدراج الرياح فاضطرت إلي البقاء مرغماً وأنا علي أحِرّ من الجمر.

و ذات صباح التقيت برفيقٍ يتمشي وهو يُطالع أحد أعداد جريدة " النوفوفريميا " الشهيرة فلمّا دنوت منه قبض علي ذراعيّ وأشار إلي فقرةٍ من ذلك العدد وسألني :
- هل الرجل من أقربائك ؟

فما أمعنت نظري في تلك الفقرة حتي علا وجهي الاصفرار، وسقطت الجريدة من يديّ ووقفت صامتاً وقد تولاني اليأس، وكان فيها ما يأتي :

" إنّ سرجيوس فلاديمير مثري بطرسبرج الشهير كان في عداد المنفيين إلي سيبيريا أثناء الأسبوع الغابر عملاً بالأوامر السّامية الصادرة من الدوائر الرسمية بهذا الصدد".

ولمّا هدأت انفعالاتي، وثاب إليّ رشدي وعرفت ما حلّ بوالدي استفتزنتي عاطفة الحنو لمعرفة ما جري لوالدي وشقيقتي علي أثر هذه الكارثة، فألححت في طلب الإذن بالذهاب إلي "بطرسبرج"، فلم يستجب طلبي، بل أكرهت علي البقاء إلي أن أتممت الخدمة العسكرية، فما أيقنت أن انبثق فجر ذلك اليّوم حتي ركبت القطار وبلغت مسقط رأسي، ولائد لإتمام هذا الحديث أن أقص عليك ما علمته بعد ذلك من شقيقتي "أولغا".





وشي بعض أعداء والدي وحُسادَه به إلى القيصِر فأصبح من المغضوب عليهم دون ذنب، وبينما كان قصرنا ذات ليلة مزداناً بالألوان والألحان الموسيقية تمتع الأذان والمدعوون في رقصٍ وطربٍ إذا ببضعة نفر من رجال البوليس دخلوا فجأةً فألقوا القبض علي والدي، ثُمَّ قضى عليه بعد أسبوعين بالنفي إلى المناجم التي بجوار بحيرة "بيكال" دون تحرٍّ أو محاكمة، وصُودرت أملاكه، وطُردت والدتي وشقيقتي من القصر إلى الأزقة والشوارع فاضطرتنا أخيراً للذهاب إلى بلدةٍ صغيرةٍ في مقاطعة "موغهليف"، حيث أخذنا تشتغلان بالتطريز للوفاء باحتياجاتهما، ثُمَّ حصل بعد وصولهما إلي هناك قحط أوقع الأهالي في مجاعةٍ شديدةٍ ولَمَّا بلغَتْ "بطرسبرج" للاستخبار عنهما كانتا في أسوأ حال وأنا لا أعلم لهما مقراً.

أما والدتي فإنَّ الجوع قد بلغ بها مبلغاً أنها قَوَّاهَا فاضطرت إلى ملازمة فراش رث في غرفةٍ شديدة البرودة، وتبدي عليها من علامات الشحوب والإنهاك ما أيقنت معه أن شبح الموت واقف بجانبها، وكانت شقيقتي "أولغا" واقفة أمامها تذرف العَبْرَات تلو العَبْرَات ⁽¹⁾ حتي ابتلت أثوابها من الدموع وشعرها المُجَعَّد ⁽²⁾ مسترسل علي كتفيها وظهرها، ثُمَّ انحنت علي أُمِّها وَقَبَّلَتْ وجنتيها الباردتين قائلةً:

- هل تشعرين يا والدتي العزيزة بألمٍ شديدٍ ؟

فتطلعت إليها الأمُ بنظرةٍ كُلُّهَا عطف وحنان، وقالت لها:

- يا أولغا إن أنفاسي معدودة وعمّا قليل سأترك هذه الديار الغانية وستكونين من بعدي وحيدة شريدة لا مُعين لك إلا الله فاتكلي عليه واستجيري ⁽³⁾ به ساعة اليأس والقنوط وهو يُسَدِّد خطواتك ويظلك بجناحيه.

(1) العَبْرَات: الدُمُعات قبل أن تفيض. (المُعد).

(2) الشعر المُجَعَّد: الملتوي، أو المُتَبَلِّد. (المُعد).

(3) استجيري: استغيثي. (المُعد).



فاغرورقت عيني "أولغا" بالعُبرات، وقالت:

- خففي كربك يا والدتي الحنون و لا تتكلمي عن الموت فأني لا أطيق سماعه..
كلا.. كلا.. إنَّك لا تموتين.. إني أنتشلُك من مخالب المنيَّة⁽¹⁾ ولا أتركك تموتين جوعاً
ولو اضطرتت للاستعطاء في الأزقة والشوارع كأفقر المتسولات.. وها أنا عائدة إليك
بعد هُنيئة⁽²⁾ بالطعام.

.. ثُمَّ انبرت من الغرفة كالسهم المنطلق.

فأخذت تسير هائمة علي وجهها في الشوارع وعيناها لا تقعان إلّا علي كُل ضئيل
الجسم، شاحب اللون، فاطر العزم من شدة الخوار والضعف، وهي آثار القُحط⁽³⁾
والجوع، ولبثت علي هذا المنوال تقطع شارعاً بعد شارع دون أدني جدوى، وهي
تستعطي من أقوام هم أنفسهم أحق بالشفقة والرثاء حتي بلغت أخيراً طرفاً من
الشارع كانت واقفة فيه سيّدة حسنة البرّة⁽⁴⁾ والوجه ويدها رغيف تطعم منه كلباً
أمامها، فتقدّمت إليها وسألته كسرة، فنظرة إليها السيّدة شذراً⁽⁵⁾ وانتهرتها قائلة:

- المثلُك يُعطي رغيف كلبى ؟

فجثّت⁽⁶⁾ "أولغا" علي ركبتيها، وقالت لها:

- أستحلفك بالله أن تسمحي لي بكسرة صغيرة فإن أُمّي علي فراش الموت وهي
في حال النزع⁽⁷⁾ من الجوع.

(1) المنيّة: الموت. والجمع: منايا. (المُعد).

(2) هُنيئة: قليلاً من الرّمان. (المُعد).

(3) بالقُحط: بالجفاف. (المُعد).

(4) البرّة: الهيئة. (المُعد).

(5) نَظَرُ شراً: أي نَظَرُ إليه بمؤخر عَيْنِهِ، وأكثرُ ما يكونُ في حال الإغراض أو الغضب. (المُعد).

(6) جثّى: جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه. (المُعد).

(7) النزع: خروج الروح من المحتضر. (المُعد).





فنظرت إليها السيِّدة نظرة الاحتقار والامتهان، وقالت لها:

- موت أمك ليس بخسارةٍ عظيمةٍ عليّ الكون.

فلم تُعيد "أولغا" عليها السؤال، بل وقفت من مجتاها وقد صبغ احمرار الخجل خديها بلون الجُلُتَاوُ⁽¹⁾ ولكنّها لم تسر خطوة واحدة حتي شعرت بيّد كأنّها من حديد وضعت علي كتفها، وصوتٌ أجشُّ يقول لها:

- ماذا تفعلين هنا أيتها الشاردة ؟

فالتفتت شقيقتي إلي وراء فإذا الرَّجل رئيس بوليس البلدة، فلمّا رآته اُمتقع لونها⁽²⁾، وقالت له:

- أتيتُ إلي هنا للحصول علي لقمةٍ من العيش فإنّ أُمي في حال الاحتضار.

- إذا كان الأمر كذلك فإنّي أنصحكِ أن تذهبي إلي محافظ البلدة فإنّ لديه أموالاً تُصرف في هذا السبيل بعثتها إليه الحكومة تخفيفاً لويلات المجاعة فأسرعي ولا تقفي لحظة واحدة.

فأحنت شقيقتي رأسها له علامة الشكر، وأسرعت جهد الطاقة لبلوغ المحافظ لأنّها أدركت أن أنفاس والدتها معدودات بالدقائق، فما ابتعدت عن رئيس الشرطة قليلاً حتي تبسّم جبوراً، وهو يقول في نفسه: «إنّ صديقي المحافظ خبير بلامح الجمال».

وكانت «أولغا» آية في الحُسن، طويلة القوام، ممشوقة القد، وردية الوجنتين، جعدية الشعر لا تتجاوز ثمانية عشر ربيعاً من العُمُر، ولم يكن لها معرفة بالمحافظ سوى ما كان يُسمع عنه من فظاظة الأخلاق والاستبداد بالرية، فإن للحكام

(1) الجُلُتَاوُ: زهر الرُّمَّان. (المُعد).

(2) اُمتقع وجهُها: تغيّر لونها من حُزن، أو خوْف، أو فرَح، أو مرضٍ. (المُعد).



والمحافظين في روسيا سلطة مطلقة علي العباد يتصرفون بهم وبشؤونهم تصرف
الملك بملكه، لا ينازعهم منازع ولا يردعهم رادع، فكان المحافظ إذا أغضبه أحد أمر
بجلده بسياطٍ تُدمي الأجساد، وإذا أمر بقتل أحد دون تعذيبه وجلده أولاً حسب
ذلك منه رحمة وشفقة.. هذا هو الرجل الذي ذهبت إليه شقيقتي تستغيث به من
مخالب المجاعة والموت.

فلما مثلت «أولغا» بين يديه تأمل فيها لحظة تأمل الحيرة والذهول، ثم صرف
الخادم وتوجه إلي الباب فقفله، ثم نظر إليها قائلاً:

- ماذا تريدان أيتها الابنة ؟

فانحنت أمامه باحترام، وقالت :

- بعثني إلي سعادتك رئيس الشرطة.

- إنني أشكره لأنه انتقي لي فتاة كلها جمال فتان.

فأغضت «أولغا» الطرف عن أقواله وأفادته أنها إنما قدمت إليه تسأله شيئاً من
القوت سداً لرمق والدتها التي أصبحت علي وشك الموت.

فنهض من مكانه وأظهر لها شيئاً كثيراً من اللطف، ثم طوّق خصرها بيديه، وقبلما
أتيح لها التملّص منه شعرت بشفتيه علي خدها الوردي فدعرت منه ذعراً شديداً،
وقالت له :

- لو علمت أنّ الفتاة التي أمامك هي ابنة «سرجيوس فلاديمير» لما تجرأت
علي كسر حرمة الأدب أمامها، ولكن الدهر الذي انقضى علينا، والجوع الذي عضنا
بنابه فأرغمت علي الحضور إليك وأنا علي يقين أنني في حضرة شهيم لا يرد مثل هذا
الطلب وخصوصاً لأنّ جلاله القيصر أبانا جميعاً قد بعث إليك بما فيه تخفيف ويلات
المجاعة.

فاحمر المحافظ خجلاً ورائت عليه الحدة، فقال لها :





- ألسنتِ ابنة ذلك النهيلستي⁽¹⁾ الذي تأمر علي حياة مولاي القيصر وهو الآن في صحاري سيبيريا متفني يلقي جزء ما جنت يداه ؟

- إن هذا افتراء يا مولاي وما هو سوي وشاية كذب وبهتان قام بها أعداؤنا حتي أنهم تمكنوا من إرسال والدي إلي «أرتسك» دون أن يُسمح له بالدفاع عن نفسه. \

- أتجسرين أن تتكلمي بمثل هذا عن عدل جلالة القيصر فإن كلامكِ يشهد عليك أنكِ نفسك من عداد تلك الطغمة الشريرة.

فارتاعت «أولغا» وحسبت أن المحافظ يود إيقاعها في شرك «النهيلستية» ويتخذ ذلك حجة علي نفيها، فأوجس الحاكم خيفة من هذا الارتياح، وحاول تسكين روعها، فدنا منها، وهو يقول :

- إني لا أود أن ألحقكِ بوالدكِ.

ثم انحني نحوها وهمس في أذنها كلاماً نفرت منه نفوراً شديداً، وقالت :

- معاذ الله.. إن الموت لأحب إلي من مثل ذلك.

ثم تملّصت منه في مثل غمض الجفن، وتقدّمت إلي الباب ففتحتة وخرجت مسرعة.

(1) النهيلست: فلسفيًا هي تيار إنكاري، يقوم على مبدأ: « لا شيء صحيح أو خطأ، ولكن كُل شيء مباح»، وإنّ التعبير ليس سوى اتجاه شخصي لتقييم الواقع، ولا شيء يمكنه أن يعطي وصفاً للواقع الفعلي. وفي الجانب الأخلاقي ينكر النهيلستي مشروعية التقييمات الأخلاقية ويؤمن بطلان مبادئ (قوانين) الحياة. ظهر هذا التيار في روسيا في الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر وقوّي في منتصفه إبان شيوع النزعة الثوريّة عند المثقفين الروس، صورها الأدب في رواية «إيفان تورغينيف»: «الآباء والبنون» التي جعلت من النهيلستية موضوعاً لها من خلال بطل الرواية. وتُستخدم النهيلستية بمعنى العدمية أيضاً. وهنا يكون النهيلستي إنكاري يؤمن بأنّ كلّ التعابير هي مُجرّد مسميات لا تدل على واقع، فالاستقلال والسيادة والحق مثلاً مُجرّد كلمات، وفي الجانب الأخلاقي تكون مفاهيم الخير والشر وحتى الفضيلة مُجرّد كلمات لا تخضع إلى مبدأ. (المُعد).



فاحتدم المحافظ غيظاً ولم ينبس ببنت شفة⁽¹⁾، أمّا «أولغا» فإنّها عادت إليّ الجولان في الأزقة والشوارع والمنعطفات ولبثت عليّ هذا المنوال عدة ساعات تركض وراء كسرة من الخبز، وتستعطف العابرين وتستغيث بالمارين، تطرق البيوت وهي تتسوّل دون أدنى طائل، وأخيراً لَمّا أعيثها الحيل وسئمت ذلّ السؤال عليّ غير جدوى عادت إليّ البيت فوجدت أمّها جثة لا حراك بها.

ركعت «أولغا» بجانب جثة أمّها وانحنى عليها تُقبّل وجهها وشفتيها، ثمّ لجت طويلاً في البكاء وهي تتنهد تنهد التكلّي، ولمّا فرّجت الدموع شيئاً من كربها ومصيبتها انتصبت عليّ قدميها ورفعت يديها نحو السّماء، وقالت:

- إليك أشكو يا مبدع الأكوان وفاطر السّماوات والأرض جور النّاس واستبداد الحكام العُتاة فقد نفوا والدي إليّ أقصى المعمور، وقتلوا والدتي بين يديّ، وهتكوا حرمة العذارى، وتركوني شريفة وحيدة لا ملجأ لي سواك، ولا مغيث لي إلّاك، فإنّ أخي بعيدٌ عني، والثّور أصبح ظلاماً في عينيّ فانقم لي بنقمتك من الظالمين المستبدين وخذ بناصري من الفُجار والأقوياء، وصبّ جامات انتقامك وسخطك عليّ رؤوس الحكام العُتاة إنّك أبي وأمي وأخي.

وما أتت عليّ ختام هذا الدّعاء، حتي سمعت وراءها وقع أقدام، فإذا بالمحافظ «ملاكوف» واقف وهو يضحك ضحك السخرية والاستهزاء، فنفرت منه شقيقتي، وقالت له:

- أأنت هاهنا .. ألاّ يتاح لي التملّص منك؟ ما أتى بك إليّ؟

- لم يأتني بي إليك سوي هيامي بك وشوقي إليّ لقياك.

.. وهمّ بضمها إليّ صدره.

(1) بنت الشّفة: الكلمة. (المعد).



- أبلغت بك الوقاحة أن تتبني إلي غرفة الموت وتبدي لي حُبَّكَ الممقوت وتهين العذراء أمام جثّة والدتها ؟

- أما حان لك الآن أن تدعني بعد هذا الجفاء ؟

.. قال ذلك ودني منها ليطوق خصرها بيديه.

فتطايّر شرر الغضب من مقلتيها فدفعته بيمينها، وقالت له:

- أيها الظالم «ملاكوف» الحاكم العاتي والنذل المستبد .. إنَّكَ وأمثالك عار علي الإنسانية والبلاد فأنتم علّة شقائنا وسبب خرابها والباعث علي دمارها، أنتم.. أنتم الذين ترمون بها إلي حضيض الذل والهوان، وتأتون من المنكرات ما يندي منه جبين الأدب، بيد أنّه لسوف يأتي يوم يري فيه الظالمون الويل والهوان.

- أصمتي وإلا ندمت حيث لا ينفع ندم.

- أأصمت وأنت تحاول أن تلحق بي العار والشّار⁽¹⁾ ؟ .. أأصمت وقد ضننت عليّ بكسرة من الخبز لسد رمق أمي التي أصبحت الآن أمامك جثة هامدة ؟ .. إنَّكَ أيها العاتي نذل مستبد يحاول انتهاك حرمة العذاري أمام أمّهاتهن.

فامتلاً الجنرال «ملاكوف» غيظاً، وتقدّم إليها ليضمها بين ذراعيه، فحاولت التملّص علي غير طائل ولمّا أعيثها الحيلة صرخت بأعلى صوتها:

- إليّ يا أصحاب الشهامة.

فبادرها «ملاكوف» بضربة علي فمها أدمته، فأصابها علي أثر ذلك دوار كادت تسقط بسببه علي الأرض ولكنّها وجدت من الوهن عزماً ومن الضعف قوّة فعاذت إلي العراك معه.. ولكن لم تلبث أن شعرت بخوار في عزمها واسترخاء في أعضائها لشدة الإعياء، فتقدّم إليها ورفعها عن الأرض ليحملها إلي الغرفة المجاورة، فلمّا علمت

(1) الشّار: العيب والعار. (المُعد).



مُراده عادت إلي الجهاد والنضال.. وفي أثناء ذلك سقط من ”ملاكوف“ مسدس لم ينتبه إليه إلا بعد أن التقطته ”أولغا“، ولما حاول اختطافه لم يكن إلا كلمح البصر حتي أومض شهب تلاه صوت انفجار رهيب في تلك الغرفة المظلمة استرخت بعدها يد ”ملاكوف“ ومشى إلي الورااء ليستند علي جدار الغرفة، وهو يقول:

- أتطلقين مسدسي عليّ؟

ثمّ علا وجهه الاصفرار وسقط علي الأرض منهك القويّ والدّم يجري من جرح في كتفه.

ولم يكن جرح المحافظ خطراً لأنّه بعد برهة يسيرة من الزمن تمكّن من النهوض علي قدميه ثمّ أخرج آلة من جيبه وصفر بها صفيراً عسكرياً تراكضت إلي جهته الشرطة من كلّ جانب، فلمّا بلغوا الموضع التفت ”ملاكوف“ إلي رئيسهم، وقال له:

- خذ هذه الابنة النهليستية إلي السجن واحضرها صباح غد إلي ساحة المدينة حيث تجلد علناً سبعين جلدة أمام جمهور المدينة وإياكم إماتتها علي عجل بل أرحبوا الجلدة القاضية حتي تأتوا علي الجلدة الأخيرة.

فقيدت ”أولغا“ من حيث كانت راكعة أمام جثة والدتها إلي السجن الذي يُرّج فيه القتلة والمجرمون.

وكنْتُ في مساء ذلك اليوم لم أزل في مدينة ”بترسبرج“ أتسم أخبار عائلتي، فذهبت أولاً إلي بيتنا الذي كان قصراً منيفاً أيام كان لا يزال والدي في قمة مجده وصهوة عزه، فوجدته مقفلاً خاوياً خالياً لا أنيس فيه ولا جليس، فتذكّرت إذ ذاك زمن نعيمي ورغدي وأيام سعادتني وهنائتي، وتفرست في تلك القاعة الباذخة التي قادني إليها والدي يوم تلقينا خبر مقتل قيصرنا المحبوب ”إسكندر الثاني“ حيث أقسمت يمين الإخلاص لجلالة ولده واضعاً يسراي علي صورته ورافعاً يمناي نحو السّماء.





وبينما كنتُ علي هذه الحال دنا مني رجل لا أعرفه ولعله من رجال البوليس السري،
وقال لي:

- أفقدت شيئاً يا رجل فإنِّي أراك واقفاً وقوف بائس كمَنْ ضاع في التراب خاتمه ؟
فأجبتَه:

- لقد فقدت يا مولاي أبي وأُمِّي وأختي وقصري وأملاكي.
فوضع الغريب يده علي كتفي وناداني باسمي قائلاً:

- أنصحك يا ”غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير“ ألا تمكث يوماً واحداً في
”بطرسبرج“؛ لأنَّه متى وقع غضب القيصر علي كبير أسرة وقعت جميعها تحت طائلة
ذلك الغضب ولولا ما يختلج في صدري من عاطفة الحنان والشفقة لألقيت عليك
القبض قبل أن تفوه بكلمة.

.. ثمُ تركني وأنا في أشد الحيرة والذهول وذهب في طريقه.

ولمّا عاد إليّ رشدي بعد هذا الذهول همتُ علي وجهي في شوارع تلك
المدينة العظيمة وتوجهت إلي بيوت بعض أصدقائنا القدماء لعلّي أقف علي
أثرٍ لوالدتي وشقيقتي فأذكروني وأنكروا أبي قائلين أنَّهم لا يعرفون في سائر
الإمبراطورية الروسية رجلاً بهذا الاسم، وكانوا يبتعدون عني وينفرون مني
نفورهم من المطعون⁽¹⁾.

ولمّا سئمت قرع أبواب الأغنياء والطبقة التي يسميها العالم خطأً بطبقة الشرفاء
سدّدت خطواتي نحو بيت حقير في أخريات أحياء العاصمة، وهو بيت أحد خُدامنا
الأقدمين فلمّا رأي الرجل كاد يطير فرحاً وأسرع إليّ يُقبل يديّ، فقلت الحمد لله لأنَّه
بقي في مدينة تبلغ مليونين من النفوس رجل لا يزال يعرف أسرة ”فلاديمير“، فعلمت

(1) المطعون: المُصاب بداء الطاعُون. (المُعد).



منه موضع والدتي وشقيقتي وعرض الرجل عليّ أن يصطحبني ويقوم علي خدمتي، فأبيت ونصحته أن يقي الأمر مكتوماً وألا يذكر أنّه التقى بي أبداً.

ولم يكن سوى نصف ساعة من الزمن حتي كنت في القطار، فبلغت البلدة صباح اليوم التالي وأخذت أسأل عن والدتي فلم يكن من يعرفها، وبينما كنت سائراً في أنحاء البلدة أبصرت عن بُعد جمهوراً غفيراً من الناس قد اجتمعوا في ساحة كبيرة فبلغت الموضع وسألت عن سبب هذا الاحتشاد فقبل لي أنّ المحافظ أمر بجلد ابنة نهلسية، ولمّا صرت علي مقربة من موضع الجلد أبصرت منظرًا ينفطر له الجماد، فإني وجدت ابنة مُعرة إلي وسطها مربوطة بمعصمها إلي قوائم من الخشب، وصوتها يمزق كبذ السماء وهي تستغيث، وما من مغيث، وتستنجد وما من منجد، والسوطي يضربها سوطاً بعد سوط حتي سالت دماؤها وأصبح جلد لها وما تحته من العضلات كتلة من اللحم الدامي، ولمّا تفرست بها لأري من هي هذه منكودة الحظ وإذا بها شقيقتي «أولغا».

فلعبت في رأسي ثورة الغضب، وتقدّمت إلي السوطي واختطفته من يده تلك الآلة الجهنمية التي إذا لامست الأجسام كانت بمثابة لدغات الأفاعي، ولمّا سألتها بأمر من يأترون في إتيان هذه المعرّة⁽¹⁾، أجاب الرجل:

- بأمر المحافظ ممثل جلالة القيصر.

وكان بين الأشياء التي أحملها سيف أهداني إياه والدي، لما أقسمت بحضرته يمين الإخلاص لإمبراطوري، فأخذت هذا السيف واستلته من غمده ووضعتة علي ركبتي وكسرتة ثمّ التفت إلي الحاكم وقلت له:

- أشهدك وهذا الجمهور عليّ أنّي في حلّ من قسمي لملكي وحكومته.

(1) المعرّة: الأذى والمكروه. (المعد).





ولمّا حاولت التقدّم لإنقاذ شقيقتي اعترضني الحاكم فضربته بيديّ وكدت
أخنقه لو لم تتراكم الشرطة لإنقاذه، فكوا قيود شقيقتي ووضعوني مكانها، ثمّ
انهالت عليّ الأسواط تُمزق جسدي، وبعد عدة جلدات أسالت دمي ومزقت
ضلوعي فقدت الرشد وأصبحت في حال الغيوبة، ولمّا استفتت وجدت نفسي
في سجن كبيرٍ التقيت فيه مساء اليوم الثّالي بشقيقتي «أولغا» التي قصت عليّ ما
أقص عليك فأقسمت في ذلك السجن لانتقم لنفسي وأسرتي ولأضعن العدالة في
كفي لأقتص من أولئك الحكام العتاة ما بقي في رمق الحياة وكان ذلك ما حداني
أن أصير نهليستيًا.







الفصل الثاني

الرحلة الرهيبة إلى سيبيريا

Terrible trip to Siberia



وبعد بضعة أيام نقلوني إلى السجن الشهير المعروف بسجن «بطرس وبولس» في مدينة «بطرسبرج»، ذلك السجن الرهيب الذي نهاره ظلام دامس، وحره برده قارس، وآمال ساكنيه يأس وقنوط، وأفراحهم ندب ورتاء.

هناك يتجسّم لك الشقاء حتي تكاد تمسه بأناملك، وتسمعه بأذنك، وتبصره بعينك وكأن الله غضب علي البشر لإقامتهم جحيماً علي الأرض، فحوّل وجهه عنهم. ولقد بقيت بضعة أسابيع في هذا الجحيم الأرضي بين جراح لم تبرا، وسقم لم يشف، وظلام دامس، وهواجس متراكمة كادت تذهب بعقلي ورشدي، حتي أنّه لمّا دخل عليّ السجن يوماً وأفادني أنّ قد قضي عليّ بالنفي إلي أقاصي مناجم «سيبيريا»⁽¹⁾ التي الحياة فيها موت، والرّاحة شقاء.. تلقيتُ هذا الخبر بملء الارتياح كأنّه بشري أنزلت علي قلبي المن والسلوى.

(1) سيبيريا: هي الجزء الشرقي والشمال الشرقي من روسيا. يمتد غرباً من جبال الأورال حتى المحيط الهادئ شرقاً، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتى حدود كازاخستان، ومنغوليا، والصين جنوباً، وتمثل 77 ٪ من مساحة روسيا، حيث تبلغ مساحتها 1,13 مليون كيلومتر مربع. (المُعَد).



وما انتصف ذلك الليل حتي أيقظوني ورفاقي التعساء لتكون علي أهبة السفر، فبلغ عددنا في ساحة ذلك السجن الرهيب نحو من مئتي منفي من رجال ونساء، وكان لوقع الأغلال في أرجلنا رنة تنفر منها المسامع، وتنقبض لها القلوب، فألبسونا ثياباً رمادية اللون، ووضعوا علي رؤوسنا قبعات من جلود الماعز، وفي أرجلنا أحذية كبيرة تبلغ الركبة، وعلي ظهر كُلِّ منا بساط خشن طيه صحن من المعدن وملعقة خشبية، وفي صدره قطعة نحاسية عليها رقمه أو نمrote، فعلقوا أغلالنا في وسطنا وربطونا إلي بعضنا وصرنا علي هذا المنوال تتبعنا عربات من الخشب الصلب لوقع أصواتها دوي في الآفاق أشبه بهزيم الرعد، وسط هدوء الليل فكان ذلك أوّل مرحلة لنا نحو ذلك القبر فسيح الأرجاء مترامي الأطراف: « سيبيريا » الرهيبة.

فسرنا باسم الله، بين عصف الرياح، وثورات الزوابع، وسقوط الأمطار، ووميض البروق، ولعلعة الرعد، وسط ذلك الليل الدامس يتقدّمنا فريق من الحُرّاس يحملون بأيديهم المشاعل إذا تكلم أحدها وقعت عليه السياط تنهش منا الضلوع قبل الجلود، فاضطررنا إلي ملازمة الصمت التام. وقد قرسنا البرد، وتبلّلت ثيابنا من تساقط المطار والثلوج، ولمّا لم يكن مأذون لنا بالمحادثة كان كلامنا تنهدات وزفرات بعضها تلو بعض، فطلعت إلي العلاء لأري هل السّماء ناظرة إلينا، فرأيتُ أنّ الله قد سدل بيننا وبينه حجاباً كثيفاً من الغيوم المتراكبة بعضها فوق بعض حتي لا تندعر ملائكته من هذا المشهد الذي تنهل له القلوب إذا وقع عليه بصرها ورأت جور⁽¹⁾ الإنسان علي أخيه الإنسان.

هبطت بي التصدّورات من صوّر الخيال إلي عالم الحقيقة فوجدت نفسي سائراً مع رفاق الشقاء وقد قضى عليّ بالنفي المؤبد مع الأشغال الشاقة دون أن يلفظ القضاء كلمته بشأني؛ لأنّي لم أحاكم قط ، بل كان الحكم نتيجة استبداد ذلك

(1) جُور: ظُلم. (المعد).





العاتي "ملاكوف" الذي حاول انتهاك حُرمة شقيقتي ووضعني تحت السياط؛ لأنَّ أخاً رام⁽¹⁾ إنقاذ أخته وهي مُعراة تُجلد والدَّم يسيل من جراحها، تلك الأخت التي لم أعلم ما حلَّ بها فضلاً عن أن والدتي قد لقيت منيتها، وأبي نفى إلي أقصى مناجم "سيبيريا" ذلك الجحيم الذي لا فرق بينه وبين جحيم الآخرة سوى أنَّ نار ذاك من لهبٍ، ونار هذا من ثلوج.

فلبثنا علي هذا المنوال نواصل السير ونحن نقطع مفاوز⁽²⁾ وقفارا⁽³⁾ من الثلوج المنبسطة أمامنا، لا يُسمع وسط ذاك الهدوء من صوتٍ سوى وقع أقدامنا علي الثلج الكثيف، وما زلنا علي هذا المنوال حتي قطعنا مئات من الأميال، وكنا إذا سرنا بضعة أيام وصلنا إلي مبيتٍ مبني علي قارعة الطريق لهذا الغرض، وهو مؤلف من غرفةٍ واحدةٍ كُلُّها أوساخ وأقدار وقد وضعونا فيها أكداً بعضنا علي بعض، وكان كُلُّما قطعنا قفاراً من الثلوج تبدت لنا قفاراً أعظم اتساعاً، وأشدَّ هولاً.

وبعد مسير عدة أسابيع بلغنا أخيراً الحد الفاصل بين روسيا وأوروبا و"سيبيريا" آسيا حيث أقيم هناك لنا بناء مستطيل علي هيئة مسلة مصريةً يتجه أحد جوانبه نحو روسيا والآخر نحو "سيبيريا"، فوقفنا عنده ردحاً⁽⁴⁾ من الزمن تتنفس الصعداء ونودع بلاداً هي أعز لدينا من أرواحنا. وهناك رأيت منظرًا تنفطر له النفس، لأنَّه لَمَّا أُرُفت ساعة الرحيل علا العويل وضجيج النحيب بين رفاقي من الرجال والنساء، فكان بعضهم يركع أمام الجهة الأوروبية منه يذرفون الدموع، وبعض السيِّدات اللواتي أصبحن بعد مشاق السفر أشباحاً لا أجساداً يتقدَّمن إليه ويقبلن بحرارةٍ ورفراتٍ كادت تذيب تلك الثلوج، والبعض منا حفروا الثلج والتقطوا قبضة من تراب

(1) رام: المقصود رامَ هَدَفًا، أي شَدَّه، أو طَلَبَه. (المُعد).

(2) مفاوز: صَحَارَى. (المُعد).

(3) قفاراً: المفرد: قَفْر، أي خلاء، لا ماء فيه ولا ناس. (المُعد).

(4) ردحاً: الرَّدْحُ أي المدة الطويلة. (المُعد).



الأرض، والآخرون يرفعون أيديهم نحو السماء كأنهم يستغيثون بها، ولكن مَنْ يسمع فإنَّ الله بعيداً عنا علي منصة مجده في أعالي السَّموات، وجلالة القيصر جالس علي عرش عظمته في أقاصي البلاد.

ولم يكن سوي هنيهة من الزمن حتي انقطعت أصوات النحيب والعيول وعدنا إلي سكون الموت، وكنا كُلِّما خطونا بضعة خطوات نلتفت إلي الوراء لنُشاهد هذا النُصب الذي شاهد ويلات الجنس البشري وبلاياه وكوارثه وخطو به ما لم يُشاهده بناء قط في سائر أنحاء الكرة الأرضية بأسرها، وعدنا إلي مواصلة السير نقطع البيد⁽¹⁾ والفقر حتي مرَّت علينا الأيام والأسابيع والشهور ونحن علي مثل هذه الحال التعبة، ولا فائدة هنا من سرد أسماء البلدان التي مرَّنا عليها لأنَّها غريبة الألفاظ علي سماع الأجنبي وليس لها شيء من الشهرة في عالم التمدن.

غير أنَّه لا بدَّ لي من وصف موضع واحد لا يزال رسمه راسخاً في مخيلتي؛ لأنَّ البلايا التي أحاقت بنا هناك بلغت حدّاً فاحشاً تنزل بالإنسان إلي أقصى دركات⁽²⁾ التوحُّش والبهيمية حتي أنَّنا نحن الذين ركبنا هذا المركب الخشن وقاسينا من الأهوال السَّالفة ما تندك له الجبال الراسيات، رأينا أن سائر ما حلَّ بنا من الفواجع قبل بلوغنا الموضع المُشار إليه، ليس شيئاً مذكوراً، فإنَّنا لَمَّا بلغنا "توبولسك"⁽³⁾ آخر محطة من هذه المراحل المتناثية أنزلونا في خانٍ فسيح ضاق علي رجليه بسكانه، فإنَّه لم يكن فيه سوي غرفة واحد تتصاعد منها الروائح النتنة كتصاعد الدخان من الأتون، فلما دخلناه وجدناه غاصاً بالمنفيين الذين تقدَّمونا إلي ديار الشقاء، وكان بما فيه من الأقدار لا يصلح أن يكون حظيرة للمواشي والبهائم، والأهم من ذلك أنَّ

(1) البِيدُ: الجمع: بَيْدَاوات، أي الصَّخْرَاءُ. (المُعد).

(2) دركات: المفرد: درك، أي أشَقَلُ كُلَّ شيءٍ ذي عَفَقٍ كالبئر أو أقصى قَعْرِهِ. (المُعد).

(3) توبولسك: هي إحدى مدن روسيا في الكيان الفدرالي الروسي. (المُعد).





أكثر ساكنيه كانوا مصابين بخُمى التيفود، وكثيرٌ منهم في حال النزح، ووجدنا عند وصولنا جثتين من جثث أولئك منكودي الحظ مطروحتين علي الأرض بجانب الإحياء الذين بقي فيهم رفق من الحياة، وقد بدأ التعفنُ فيها؛ لأنَّ الرائحة التي كانت تنبعث منهما لا تُطاق وليس من أحدٍ يجسر علي التذمُّر أو إبداء كلمة واحدة بهذا الشأن؛ لأنَّ مثل هذه الجرأة ذنب جزاؤه أفاعي السياط، هذا هو الموضع الذي بلغناه تجديداً لقوَّانا من انتهاك الأعضاء، وفرط الإعياء، فنزلنا فيه ونحن ننظر إلي بعضنا ولا نجسر أن نبس ببنت شفة.

وكانت ثيابنا ممزقة، وأحذيتنا مقطعة، وأعضاؤنا مشلولة من الإعياء، والجوع الذي أخذ منا مأخذه لأنَّه لم يكن لدينا من الأكل سوى النزر القليل، كما أن طريقة توزيعه علينا غريبة، وذلك أنَّ الحُرَّاس يدخلون بالأرغفة السوداء ويطرحونها علي الأرض فكان المنيون يترامضون لالتقاطها تراكض الكلاب ويتخاطفونها تخاطف الذئب، علي حين كان من بين نساء فرقتنا عددٌ من السيِّدات، من أصحاب المكانة الرفيعة، حُكم عليهن بالنفي بحجة أنَّهن من طغمة ”النهيلست“، ولا ذنب لهن سوى أنَّهن وقعن تحت طائلة غضب حاكم من الحكام، لذنبٍ يشبه ذنب شقيقتي ”أولغا“، فأني أعلم علم اليقين أنَّه قضي علي واحدة منهن بالنفي لأنَّها رفضت الاقتران بحاكم، فحقد عليها ووشي بها وشاية أوردتها هذه الحالة. وكانت نفوس أولئك السيِّدات تكبر عن التقاط العيش علي هذا المنوال، وبعضهن يعجزن عن ذلك لضعفٍ في البنية، سيما أثناء ذلك العراك الهائل الذي كان ينشأ أثناء اختطاف الطعام فيضطرون إلي البقاء زمناً طويلاً وهن جائعات خائرات، فكنتُ ألتقط ما يُتاح لي الوصول إليه وأُقَدِّمه لهن.

وما لبثنا في هذا المقام سوى زمنٍ قصير حتي أصبحت الحياة علينا حملاً ليس في طاقة الطبيعة البشريَّة حمله، فجثونا علي ركبنا وتصرَّعنا إلي الله بحرارةٍ ونحن نفرع صدورنا قرعاً شديداً، وتوسلنا إليه أن يُعاملنا بحلمه وفضله وغزارة شفقتِه، ويُعجِّل في



حتفنا⁽¹⁾؛ لأنّ الذل قد بلغ منا مبلغاً لم نجرأ معه أن نطلب أعادتنا إلي بلادنا إذ حسبنا أنّ هذا الطلب حتي لو كان سرا إلي مبدع الكائنات ذنبٌ لا يُغتفر، وأمنية ليس إلي بلوغها من سبيل، والظاهر أنّه بقي لله أذن تسمع إذ أصيب في اليوم الثّالي نفراً منا بالخُمى وقضوا نحبههم وفي جملتهم بعض السيّدات المُشار إليهن وأصبحوا أحراراً لا تبلغهم ذرة من جور الإنسان فحسد منا الأحياء الأموات، وتطلعتُ إلي السّماء قائلاً:
ربي وإلهي إلي متى ؟



(1) الحُتْفُ : الموتُ، أو الهلاكُ. (المُعد).





الفصل الثالث

مغامرات الهروب إلى الحرية

Escape to freedom adventures



لمّا كنتُ في عِداد أشقي المجرمين الذين يعيشون في الأرض قتلاً وفساداً صدر الأمر بإبعادي إلي أقصى مجاهل "سيبيريا"، فودّعت رفاق الشقاء وداعاً لا أمل بعده باللقاء، نقلوني إلي فرقتي الجديدة وما بزغ فجر يوم السفر حتي كنا جميعاً علي أهبة المسير إلي مناجم "كارا"، حيث أنّها أكثر الأماكن هولاً، فالمنفيون يصرفون حياتهم في نفقٍ تحت الأرض لا يبلغ فيه الشخص شيء من شعاع الشمس أو الأمل، وكان لا يزال عليّ اللباس الذي ارتديته في روسيا وأوروبا وقد أصبح خرقاً بالياً بعد سفر طويل، فربطوا سلاسلنا بعضها إلي بعضٍ، وجروا بنا يسوقوننا إلي حتفنا.

فتوالت علينا الأيام والليالي، ومَرّت الأسابيع والشهور مُرّ السنين تظلنا سماءً لا تبصر، ولا تقلنا أرض لا تشفق. تطلع الشمس علي وجوهنا الشاحبة، وتغرب علي قلوبنا المنقبضة، ويسدل الليل حجابهِ علي يأسٍ وقنوطٍ، ونغمض أجفاننا علي ذلّةٍ وشقاءٍ، نتخذ الثلج فراشاً، والرياح غطاءً، وبعد أن قطعنا هذه المسافات مترامية



الأبعاد حلوا الوثق⁽¹⁾ التي تربط سلاسلنا بعضها إلى بعضٍ وسمحوا لنا أن نمشي جماعات، ونحن نواصل السير علي طريق “أركوتسك”⁽²⁾ بعيدة الأطراف.

وبعد مسيرة أربعة أشهر من “توبولسك” وثمانية أشهر من “بترسبرج” بلغنا مناجم “كارا” الرهيبة حيث سلّمنا الحُراس إلى محافظ تلك الناحية التي تخيلنا عند وصولنا إليها أنّها منتهي العالم، فاسترحنا يوماً واحداً من عناء الإعياء.

ثم أخذونا في اليوم التالي إلى تلك المناجم المظلمة التي ترتعد لهولها الفرائص⁽³⁾، وتهلع القلوب، فأدخلونا في دهليز عميق تحت الأرض كلّهُ برد قارس ورطوبة قاتلة وصمت رهيب، ثم أعطونا أدوات العمل، فلما دخلت هذه المناجم أوّل مرّة استولي عليّ يأسٌ شديدٌ لا أقدر أن أصفه، وظننت نفسي أنّي في حُلُم، أو أنّي انتقلت إلى دار الأبدية والآن أعذب في الجحيم البارد، ومن حولي الأبالسة يعذبونني تارةً باللعنة، وتارةً أخرى بالسياط، ولكن لما رأيت غيري أيضاً في هذا الجحيم تعزيت قليلاً، وأخذت أشتغل مع هؤلاء المجرمين الذين نصفهم من أدني طبقة الهيئة الاجتماعية سقّاكو دم وقتلة ولصوص، والنصف الآخر من أسماهم تهديباً وأشدّهم تنوراً ولطفاً وأرقاهم إدراكاً وعقلاً وهم الذين يُطلق عليهم لقب المُجرمين السياسيين؛ فالآراء الحرّة في روسيا كالقتل كلاهما ذنب عظيم لا يغفر.

كنا نقضي نهارنا بالأشغال الشاقة والأغلال في أرجلنا، والأدوات في أيدينا فإذا انتصف النهار رموا إلينا كسرة من الخبز نأكلها ونحن ننظر إلي بعضنا، لا نفوه بكلمة، ومتى جاء الليل أخرجونا إلي حظائرنا لأنّنا أصبحنا حيوانات داجنة نبئت فيها حتي

(1) الوثق: وثق الشيء قوي وثبت وصار مُحكماً. (المُعَد).

(2) أركوتسك: هي إحدى الكيانات الفدرالية في روسيا. وتحتوي علي مدن وقرى كثيرة، من بينها: ألتاماي، أنغارسك، بايكالسك، بيرويسينسك، بودايو، براتسك، تشيريمخوفو، وغيرها. (المُعَد).

(3) الفرائص: مفردُها: فريضة، وهي لحمة بين الكتف والصدر ترتعد عند الفزع. فعندما نقول: ارتعدت فرائضه، أي فزع، أو خاف خوفاً شديداً. (المُعَد).





الفجر، ثمَّ نعود إلى المناجم دون أن يتاح لنا رؤية الشمس، أو شيء من شعاعها، ولو وددت وصف سائر ما حاق بنا من البلاء والرزايا⁽¹⁾ لاقتضي لذلك مجلد برمته. ولم يطل بي الوقت حتي أخذت أُمَيِّز بين القتلة، والمُجرمين السياسيين لأنَّ دماثة هؤلاء وتأدُّبهم في المقال، وطلاوة⁽²⁾ حديثهم، واحتمالهم هذه المشاق بالصبر وهم رابطوا الجأش⁽³⁾ كانت دلالة واضحة علي مكانتهم في الهيئة الاجتماعية، ونبالة مقاصدهم السياسيَّة. وكان من بين عِداد هذا الفريق رجل أحنى الكبير هامته وبيض شعره، أظهر نحوي عطفاً شديداً، ومودة فائقة، فهو يُشَدِّد عزمي عند الخوار⁽⁴⁾ ويشجعني عند اليأس، ولمَّا تعارفنا في المرَّة الأولى، نظر إليَّ، وقال:

- هل "سرجيوس فلاديمير" من أقربائك؟

.. فقلت:

- هو أبي يا مولاي.. أتعرف شيئاً عنه؟

فترطبت عينا الرَّجل بالعَبْرَات، وأطرق برأسه إلي الأرض دون أن يفوه بكلمة قط، فهاج ذلك هواجسي، وأمسكت بكلتا ذراعيه، قائلاً له:

- استحلفك بالله العلي العظيم أن تصدقني الخبر.. أين التقيت بوالدي؟ وماذا

تعرف عنه؟

فأرسل إليَّ الرَّجل نظرة كُلُّها شفقة وحنان، وقال:

- إذا كان لابد من معرفة ذلك فأنا أخبرك: أنَّ أباك كان من جُملة رفاقي يوم

(1) الرزايا: المفرد: رَزِيئَةٌ، أي المُصِيبَةُ. (المُعد).

(2) الطَّلَاوةُ: الحُسْنُ والِرَّوْقُ. (المُعد).

(3) رابط الجأش: شجاعٌ قويُّ القلب. (المُعد).

(4) الخوار: الضَّعْفُ، التَّلَاشِي. (المُعد).



ودَعْنَا "بطرسبرج" منفيين إلى هذه الأصقاع⁽¹⁾ فعلمت منه في أثناء الطريق أن بعض أعدائه وحُسادَه قد وشوا به إلى جلالَةِ القيصر أنَّه من أصحاب الدسائس السياسيَّة، وهو لا يعلم شيئاً من ذلك حتى مساء يوم بينما كان النَّاس مدعوين إلى ليلة راقصةٍ عنده، والأنغام الموسيقية تُشنف⁽²⁾ الآذان، والنَّاس بين جدلٍ وطرب، إذ دخل علي حين فجأة نفر من ضباط البوليس وألقوا القبض علي والدك فانقلب سرور القوم إلى أتراح⁽³⁾، ثُمَّ قُيدَ دون محاكمة وأُرسل إلى قلعة "بطرس وبولس" حيث صدر بعد ذلك الأمر بنفيه إلى مناجم "سيبيريا" المظلمة، فكنا من رفاق السفر تتشاطر الأحزان والرزايا، وبقينا نحواً من ثمانية أشهر حتى بلغنا هذا الفردوس الذي نحن فيه الآن، وكان دوماً يذكرُك ويسأل الله أن يبقيك عوناً لأُمِّك وشقيقتك، وهو يظن أنَّك في مأمن من جور الحُكام الطغاة، ولكنَّه لم يلبث بعد بلوغه هذه المناجم أن اعترته علةٌ أودت بحياته فاستراح من العذاب الذي لا نزال نحن فيه، ولقد سلمني قبل وفاته كتاباً مختوماً طلب مني قبل تسليمه إليَّ أن أقسم له الإيمان المغلظة ألا أفتحه، بل أبعث به إليك مع أحد الحُراس الذي أظهر عطفاً عليه، وها هو لا يزال الآن في جيبِي، فتعزَّ لأنَّ الله قد عامله بشفقةٍ فقصر عذابه ونقله إلى دار الأبدية حيث لا تبلغه ألسن الوشاة ولا أيدي الظلام.

وبعد أن قصَّ عليَّ هذه الفاجعة أخرج من جيبه محفظة فيها الكتاب المُشار إليه، ثُمَّ سلمني أيضاً خاتم والدي، فقَبَّلته والدموع تتساقط علي وجنتي، فلمَّا فتحت الكتاب قرأت فيه ما يأتي:

" فلذة كبدي غورتشاكوف "

(1) الأصقاع: أو صُقع، أي الناحية، أو الجهة. (المُعد).

(2) تُشنف: تُمتنع. (المُعد).

(3) أتراح: المفرد: تَرَح، أي حُزن أو هَم. (المُعد).





أُحَرِّرْ لَكَ يَا بَنِي هَذِهِ الْأَسْطَرِ مِنْ دَارِ الْغُرْبَةِ وَالشَّقَاءِ وَأَنْفَاسِي مَعْدُودَةٌ بِالْذَفَائِقِ؛
لَأَنْ أَجْلِي قَدْ دَنَا وَبَعْدَ هَنِيئَةٍ أَبْرَحُ هَذَا الْعَالَمَ عَالَمَ الشَّقَاءِ وَأَتَخَلَّصُ مِنْ مَشَقَّاتِ
النَّفْيِ وَمَنَاجِمِ الْجَحِيمِ، وَلَا بَدْءَ أَنْ يَكُونَ قَدْ بَلَغَكَ مَا حَلَّ بِي مِنْ ضُرُوبِ النِّكَالِ
وَعَوَامِلِ الْجُورِ لَوْ شَايَتِ لُفَّقْتُ زُوراً وَبَهْتَاناً، فَلَقَدْ وَقَعَ عَلَيَّ غَضَبُ مَوْلَايَ الْقَيْصَرِ
وَسَخَطُهُ، وَأَنْتِي سَرَرْتَ بَأَنْ وَقَعَ عَلَيَّ ذَلِكَ وَأَنْتِ بَعِيدٌ عَنِّي لَا تَصِلُ إِلَيْكَ أَيْدِي الْبَغَاةِ،
وَأَعْلَمُ أَنَّ لِي فِي مَصْرَفِ صَدِيقِ صَدُوقٍ فِي مُوسْكَو يُسَمَّى "تْرِيبُولُوف لَارَنْسْكِ"
خَمْسِينَ مِليونَ رُوبَلٍ مَوْضُوعَةٌ بِاسْمِكَ لَا يَعْلَمُ بِهَا أَحَدٌ، وَسَوْفَ تَرَى الرَّجُلَ شَهْماً
غَيُوراً أَبْيَّ النَّفْسِ فَاذْهَبْ إِلَيْهِ وَاسْتَلَمْ هَذِهِ النُّقُودَ وَكُنْ سَعِيداً وَوَالِدَتَكَ وَشَقِيقَتَكَ
وَأَنْتِي أَسْتُودِعُكَ اللَّهُ.

وَالدُّكُ الْمُحِبِّ

سَرْجِيُوسُ فِلَادِيمِيرٌ .

وَبَعْدَ مُطَالَعَةِ الْكِتَابِ، شَكَرْتُ الرَّجُلَ بَعِيُونَ مَلْؤُهَا الدِّمُوعَ، وَقُلْتُ لَهُ:

- أَلَا تَعْرِفُ مَدْفَنَهُ ؟

.. قَالَ:

- لَا أَزَالُ أَتَذَكَّرُ الْبَقْعَةَ.

فَأُشَارُ إِلَيْهَا، وَكَانَتْ دَاخِلَ مَنْطِقَةِ الْحَرَسِ، فَسَرْنَا إِلَيْهَا، وَلَمَّا بَلَغْتُهَا رَكَعْتُ عَلَيَّ
الْأَرْضَ، وَصَلَّيْتُ إِلَى اللَّهِ بِحَرَارَةٍ وَدُمُوعٍ، وَنَاجَيْتُ نَفْسَ وَالِدِي فِي قَبْرِهِ، وَهَنَكَ نَذَرْتُ
نَذْراً رَهيباً أَنِّي لَا نَتَقَمَّنُ لِأَبِي وَبَيْتِي نَقْمَةً تَتَحَدَّثُ بِذِكْرِهَا الْأَجْيَالُ.

لَقَدْ عَقَدْتُ النِّيَّةَ عَلَيَّ الْهَرَبِ وَلَوْ كَانَ بِذَلِكَ حَتْفِي، وَلَكِنْ كَيْفَ لِلْمَنْفِيِّينَ فِي
"سِيْبِيرِيَا" الْهَرَبَ وَالْأَغْلَالَ فِي أَرْجُلِهِمْ، وَالْحَرَسَ صَفُوفَ حَوْلِهِمْ، وَالْمَنْطِقَةَ مَتْرَامِيَةً



البعد، وكلُّما التقيت برَجُلٍ من "القوقاز"⁽¹⁾ طلب منك جوازك وحدَّق فيه ببصرٍ نافذٍ، وأنَّ فرار العصفور من قفصٍ مُحكم الصُّنع لأسهل بكثيرٍ من فرار سجين "سيبيريا".

ولبثت في هذه المناجم سنتين من الزمن وأنا كُلُّما جال في خاطري الفرار رأيتُ سجني أشدَّ إحكاماً، وحُرَاسي أكثر عدداً، و"بطرسبرج" أبعد مني دهرأ، غير أنَّه حدث أنَّ الحُكام اكتشفوا مناجم جديدة فيما وراء "كارا"، ولمَّا كنت في عداد أشقي المجرمين وقعت عليَّ القرعة مع بعض رفاقٍ بالتوجه إلي هذه المناجم حديثة العهد، فصحبونا في فجر ذات يوم فربطوا أغلالنا بعضها إلي بعضٍ، وأخذنا نقطع البيد والقفار بعد مسيرة عدة أسابيع، حلوا العري التي تربط سلاسل الفرقة، وسمحوا لنا بالمسير أفواجاً بين الحُرَاس حتي أمسينا ذات ليلة بجانب موقع كثيف من الأشجار المشتبك بعضها ببعضٍ، فنزلنا للمبيت وكانت هذه أوَّل فرصة تسنح بالهرب، فعقدت العزم وصممت علي القيام بذلك دون التَّبصُّر فيما يترتب علي ذلك من الأهوال والأخطار.

وكان اللَّيل حالكأ جدًّا، والبرد قارساً، والرياح تهب هبوب العواصف، واللَّيل رهيباً حولنا يسمع وسطه حفيف الأشجار الذي كان في آذاني أنغاماً شجيَّةً، فصبرت إلي أن انتصف اللَّيل وسكنت كُلَّ حركة، ونام سائر رفاقي فلم يبق صوت يمكن سماعه. وكانت ظهور الحراس إلينا وأوجههم إلي الفضاء فعلمت أنَّه قد دنت تلك السَّاعة الرهيبة التي يتوقف عليها إمَّا حُرَيَّتِي أو حتفي، فاصطبرت قليلاً ريثما أخذ التَّعب من الحُرَاس مأخذه، فرأيتهم يترنحون علي بنادقهم ترنُّح السكران من فرط الإعياء، فوقفت علي قدميَّ بكُلِّ تأنٍ، وربطت سلسلتي في منتصف وسطي من الأمام حتي لا يسمع لها صوت، وجريت كالسهم المُنتلق وسط ذلك الظلام

(1) القوقاز: منطقة جغرافية سياسية تقع عند حدود أوروبا وآسيا، وهي موطن جبال القوقاز، بما فيها أعلى جبل في أوروبا، جبل ألبروز. وغالباً ما يقسم القوقاز إلى القوقاز الجنوبي والقوقاز الشمالي. (المُعد).





الدامس، نحو موقع الأشجار المتشابكة الذي لم يكن بعيداً عنا أكثر من رمية حجر، فلم يكن سوى مثل غمض الجفن حتي أدركته، وأنا لا أُلوي علي شيء، ولا ألتفت ورائي لأُري هل أبصرني الحُراس أم لا.

ثمّ لبثت راكضاً جهد الطاقة وسط تلك الأشجار الباسقة والأنجم الكثيفة علي خطٍ مستقيمٍ نحو ساعة من الزمن، وقفت بعدها دقيقة أتنفس الصُعداء، ثمّ واصلت المسير لا أعطف يميناً أو شمالاً وظلّلت كذلك وأنا أجدُ في المسير إلي أن انبج وجه الصباح، وظهرت الشمس في الأفق تلقي أشعتها الذهبية علي تلك الأرجاء العجيبة، وعند ذلك خرجت من تلك الغابة الكثيفة ووجدت نفسي علي مقربةٍ من بيتٍ منفردٍ فطرت الباب فلم يكن من مُجيب فدفعته بشدةٍ فافتح أمامي، ولَمّا دخلت الغرفة وجدت منظرًا رهيباً انقبضت له نفسي لرؤيته فإن الموضع كان مهجوراً لا أنيس ولا جليس، وعلي الأرض جثة رجل ميت، فدنوت منه وهزته بيدي فلم يبد حراكاً، فوضعت أصابعي علي قلبه فلم يكن هناك من حركةٍ قط، ففتрست فيه فإذا الرّجل ميت منذ بضع دقائق فقط، لأنّ ملمسه لم يزل سخناً، وأمامه ورقة فيها هذه الكلمات:

” لا فائدة من إحضار الطبيب لأنك عندما تعود إليّ أكون قد فارقت هذه الحياة، فاستحلفك بالله أن ترسل الأوراق التي في جيبِي مع رسول أمين.

مرسكي لوبانوف.”

فتفتشت في جيوب الرّجل فوجدت أوراقاً ماليةً بقيمة ألفي روبل، وثلاثة كتب مختومة جميعها بخاتم القيصر، ومعنونة باسم الجنرال ”ألترسكي“ حاكم مديرية ”كوليمسك“ في نواحي القطب الشمالي من مقاطعة ”باكوتسك“⁽¹⁾ حيث هنالك

(1) باكوتسك: هي إحدى مدن روسيا، وهي عاصمة الكيان الفدرالي الروسي ياقوتيا، تقع على الضفة اليسرى لنهر ”لينا“. تبلغ مساحتها 122 كيلومتر مربع. (المُعد).



فريق من المنفيين. ووجدت أيضاً جوازاً باسم ”مرسكي لوبانوف“ رسول من جلالة القيصر في مهمة دولية إلي حاكم ”كوليمسك“، فلم أتردد لحظة في الخطة التي صممت الجري عليها، فمزقت أولاً الورقة التي كانت أمام ”لوبانوف“.

ثم فتشت في المنزل فأتيح لي العثور علي مبرد تمكنت به من برد الأغلال التي كانت في رجلي، ثم خلعت ثيابي ووضعتها في الثار التي كانت في الموقد، ثم جردت الميت من ملابسه الرسمية ووضعتها عليّ وتمنطقت بمنطقته⁽¹⁾ التي تتضمن الأوراق المالية، والكتب الرسمية، مع مسدسه، وذهبت إلي الإسطل حيث كان فرس الرسول فأسرجته في مثل غمض الجفن، وعلوت صهوته، واتخذت الوجه المطلوبة قبل أن يعود صاحب المنزل، ولم يكن سوي بضع دقائق حتي التقيت علي الطريق بفرسان منتشرين في نواحي منطقة الأشجار المتشابكة وما حولها يركضون بخيولهم إلي كل جانب.

فلما رأي أحدهم أعمل المهماز⁽²⁾ في شاكلة الجواد ودنا إليّ وقد أدي التحية العسكرية وسألني إذا كنت قد التقيت أثناء الطريق بأحد المسجونين الذي قد فر منهم في الليل الماضي، فأجبت أنه كنت نازلاً في جوار هذا المنزل ولم أشاهد أحداً قط، فتراجع عني وقد انقسم ورفاقه فرقاً في أنحاء مختلفة، وسرت في طريقي وأنا أضحك في نفسي.

وقد رأيت أنه لابد لي من الذهاب إلي ”كوليمسك“ لأن الجواز الذي بيدي باسم ”لوبانوف“ موقع عليه في كل محطة من المحطات الرسمية بإمضاء الحاكم مع التاريخ، فإذا عدت توأ إلي ”بطرسبرج“ اكتشف الحكام دخيلة الأمر؛ لأنه لم يكن قد

(1) تمنطق بمنطقته: أي شده بحزام يطلق عليه منطقة أو نطاق. (المعد).

(2) المهماز: حديدة في مؤخر حذاء الفارس. (المعد).





مرّ الوقت اللازم لوصولي إلى الموضع المُشار إليه والعودة منه، فذهبت أقطع الجبال والتلّوج إلي أن بلغت المقاطعة المطلوبة بعد مسيرة شهرين.

ودخلت "كوليمسك" وهي بلدة مؤلّفة من أكواخ حقيرة المنظر والبرد فيها شديد إلى درجة قصوى إذ الدرجات تتراوح هناك بين ست فوق الصفر وثلاثين تحتها، والشتاء يبدأ في أغسطس ولا ينتهي حتى شهر مايو، والأغذية قليلة جدًّا وإذا قام المُسافر إليها من روسيا أوروبا لا يبلغها إلّا بعد مرور سنة ونصف من المسير المستمر.

وكان وصولي إلي "كوليمسك" بشري نزلت علي قلوب أهلها نزول المن والسّلو؛ لأنّ الكتب المختومة بخاتم القيصر من "بطرسبرج" كانت كما كنت أنتظر أوامر بالعفو عن كثيرين من المجرمين السياسيين في تلك الأصقاع، فلمّا انتشر هذا الخبر أُقيمت الأفراح والاحتفالات وتبدت لوائح البشر علي أوجه القوم، فكنت أينما ذهبت، وكيف سرت يحملونني علي الأكف ويجلونني ويحيونني تحية المروّوس لرئيسه، وأنا أضحك سرًّا وأقول في نفسي: "مكره أخاك لا بطل".

اضطرت للإقامة في هذا الموضع عدة أيام إلي أن يكون الحاكم قد أنجز تقاريره الرسمية إلي "بطرسبرج"، ولكنّه اعتراني أخيراً ضجر شديد وخشيت انكشاف أمري فتقدّمت صباح ذات يوم إلي الحاكم ورجوته أن يُحرّر اللازم علي جوازي لأنّي قاصد الذهاب بضعة أيام إلي موضع في جوار البلدة، لكي أري صديقاً لم أراه منذ أعوام.

فطرت فرحاً لمّا أجاب الحاكم سؤالي وأمضي جوازي بخاتمته، فما صدقت أن استلمته حتي علوت صهوة جوادي وأخذت أجد في السير قطعاً الفيافي المقفرة، والجبال الشامخة، والأودية العميقة، وأنا أظن أنني معجل في نيل أمنيّتي الوحيدة وهي حُرّيّتي، ولم أعلم أنني في ذلك كمن كان يسعى إلي حتفه بنفسه.

ولمّا أضني المسير جوادي مات من شدة الإعياء بعد سفر جاوز شهرين من



الزمن فاضطرت إلي المشي علي الأقدام علي شوامخ الجبال غير المطروقة، أقتات بالأعشاب وأوراق الأشجار حتي أعياني السير وكدت أموت جوعاً وإعياءً، ولكن بارقة الرجاء أحييتني من جديد إذ رأيت أمواج الأقيانوس الباسفيكي.

ولمّا بلغت الساحل مساء وجدت هناك مدينة علي جانبه تُسمي "باتروبا وفلوسك"، وشاهدت عند مدخلها مركباً راسياً في جوارها، فسألت عنه فقيل لي هو مركب صيد من كندا، فعقدت النية علي بلوغه وركوبه، ولكن علمت أنّه لا يسافر إلّا في صباح اليوم الثّالي فصممت علي البقاء تلك اللّيلة في البلدة والتوجه إلي المركب في الصباح الثّالي.

وبعد أن سرت برهة في أسواقها وجدت أحد أنفار البوليس السري يقتفي أثرني ولم يدر في خلدي أنّ الأسلاك البرقية قد حملت أخباري إلي هذه الأصقاع المتناثية، فرأيت الخطة المثلي أن أتوجه بنفسي إلي رئيس الشرطة وأريه جوازي حتي أذهب بكلّ مظنة عن نفسي، فلمّا دخلت عليه وجدته وحده جالساً منفرداً في غرفة، فأخرجت جوازي وقدمته إليه فلمّا وقعت عينه عليه تبسّم تبسّم السّخرية وتطلّع إليّ، قائلاً:

- إنّ رسول جلالة القيصر "لوبانوف" قد توفي ولذلك ألقي الآن القبض عليك.

فلم يتمّ هذه الكلمة حتي خفق فؤادي، وعلتني صفرة الوجل، واصطكت ركبتي، وقلّت في نفسي: "أهذه نتيجة أسفاري ومشقاتي وعذابي أن يقبض عليّ في ذات اللّحظة التي ظننت نفسي فيها حُرّاً". فلم يش رئيس الشرطة كلمته التي فاه بها حتي انطلقت كوميض البرق من غرفته وما بلغت الباب الخارجي حتي سمعت وقع أقدام ورائي، وكان قد أتى اللّيل وأرخي الظلام ستاره، فهمت علي وجهي في الأزقة والشوارع حتي بلغت أخيراً موضعاً رأيت فيه قارباً مربوطاً إلي شجرة فلم يكن سوى لحظة من الزمن حتي قطعت حبله فحملني التيار إلي ما بين أشجار ملتفة فوقي وأعشاب





سترتني عن العيون، فسمعت ورائي جلبة القوم وصراخهم بل كادوا يبلغون مخبأي
ولكن الظلام والأشجار كانت لي ستاراً كثيفاً، فلبثوا علي هذا المنوال نحو ساعتين
من الزمن رجعوا بعدهما بخفي حنين، ولمّا أيقنت أنّه لم يبق هنالك من خوفٍ
عليّ، أخرجت قاربي وأخذت أجدف بكلّ ما بقي فيّ من العزم الخائر حتي بلغت
المركب فصعدت إليه وشرحت لربانه حقيقة أمري وقصّصت عليه شقائي ومذلتي
فرق لي وعطف عليّ، وجعلني في عداد قومه، ولم ينتظر حتي طلوع الصباح بل أمر
بالمسير بعد وصولي إليه بساعةٍ من الزمن، ولمّا أخذت السفينة تشق عباب الأمواج
ورأيت "باتروباوفلوسك" تبتعد عني تدريجيّاً تنفست الصعداء وشعرت بسعادةٍ
ونعيمٍ لم أشعر بهما قط في ماضي أيامي؛ لأنّي قد أصبحت حُرّاً.

وبعد سفر نحو شهر من الزمن نزلت في "فكتوريا" من " فانكوفر"⁽¹⁾ حيث
بلغت بعدها بلاد الإنجليز حيث الحُرّيّة ترفرف بأجنحتها كملاك الرحمة.



(1) فانكوفر Vancouver: مدينة كندية تقع جنوبي غرب ولاية كولومبيا البريطانية، سُميت على اسم القبطان جورج فانكوفر، أكبر مدينة في ولاية كولومبيا البريطانية. (المُعد).



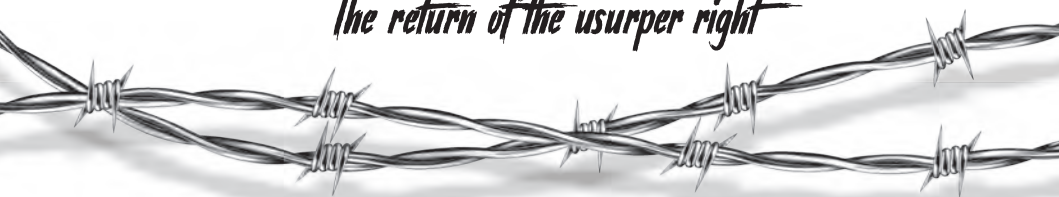




الفصل الرابع

عودة الحق المغتصب

The return of the usurper right



قليلٌ من النَّاسِ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَدِينَةَ "لندرا" أعظم مدائن العالم المتمدن وأكثرها احتشاداً بالسكان وأعظمها علماً وأسماءها مدنية وأوسعها حُرِّيَّةً وأبذخها مجداً، هي أعظم مركز لأعظم جمعية ثورية في تائر أنحاء المعمور فإن في قلبها أكبر عظماء لثورة النهيلست ونخبة رجالها وشبابها وأشرف أسرهم يضمُّهم أكبر نوادي الثورة حيث يمكنهم تقديم الكثير من جرأة الإقدام والاستقتال في سبيل الحُرِّيَّةِ ما تهتز له الملوك علي عروشها، وتهلع قلوب الأبطال والقوَّاد بين جيوشها، وتتحدَّث بمعجزاته الصحف، وتسطر من هوله الأقلام ما لو وقع علي جبل لتصدَّع من خشيته.

هنا السلطة السامية التي حيَّرت العالم بمعجزات أعمالها وقصرت كُل سلطة عن بلوغها؛ لأنَّها لا تعرفها، وعجزت الأسنة عن طعنها لأنَّها لا تبلغها. هنا تدور المناقشات السياسية والمباحثات الفوضوية تحت أستار الدَّجِي (1) في ليلٍ مدلهم بالظلمات، فإذا ما انتهى كُل ذلك وانتصب الرئيس علي منصبه وأصدر حكمه بالإعدام أو

(1) الدَّجِي: شدة الظُّلْمَةِ. (المُعد).



التدمير أو الإرهاب كان القضاء المبرم ليس له من رادع أو انقضاء صاعقة ليس إلي اتقائها من سبيل.

إلي هذا النادي الرهيب سددت خطواتي وفي يدي كتاب توصية من أحد العمال الثوريين الذين أتاح لي الحظ لقياهم في "فيكتوريا"، فلما علم الرئيس "بول بتروف" حكايتي والمصائب التي حلت بأسرتي، والمشاق التي واجهتها قبل بلوغي "لندرا" تقدّم إليّ وصافحني وأنزلني في ذلك النادي علي الرّحّب والسعة وضمدّ جراحي ببلسم العزاء وأغدق عليّ إحسانه إغداق الأمير الكريم.

وكان أوّل أمر وجهت إليه المهمة بعد الاستراحة من عناء السفر الحصول علي المال الكثير الذي كان قد أودعه والذي في مصرف "لازنسكي" ذلك الرّجل الذي وصفه والذي في رسالته لي بالشهم كريم الأخلاق، نادر المثال، فبعثت إليه بكتاب أخبره بحقيقة الأمر وأرجوه فيه أن يرسل المال تحويلاً علي بنك إنجلترا، ولبثت أنتظر الجواب وبعد انتظاري علي أحزّ من الجمر وردني الجواب كما يأتي:

"عزيزي الموسيو غورتشاكوف فلاديمير..

وردني كتابك وفيه تدعي وجود مال في مصرفي بحوالي أكثر من خمسين مليون روبل وضعها والدك باسمك، فعجبت من ذلك كلّ العجب إذ لا معرفة سابقة لي بأبيك ولم يوجد بيني وبينه شيء من المعاملة علي الإطلاق، ثمّ أخبرك أنّ رأس مال المصرف كلّّه لا يبلغ مليون روبل فأنصحك في الختام أن تنسي مثل هذه الأحلام واقبل احتراماتي.

لي الشرف يا سيّدي أن أكون خادمكم المطيع..

لازنسكي.

فما طالعته حتي صار النور في عينيّ ظلاماً وشعرت كأن ناراً تحرق وجنتي، واعتراني انقباض شديد من فرط الغيظ، ولبثت في حال الذهول نحو ساعة من





الزمن، ولمّا عاد إلَيَّ رشدي شعرت أن لا طاقة لي علي شيءٍ فإن الأوراق المالية التي كانت في يديّ والذي فُقدت بعد إلقاء القبض عليه ومصادرة بيته وأملاكه، حتي أنّه لو ثبت وجود المبلغ لوقع في يديّ الحكومة الروسية إذ أني من المغضوب عليهم. ولمّا سكنت مني ثورة الغضب رأيت أن أُحرّر إلي "لازنسكي" كتاباً آخرًا ضمّنته ما ذكر لي والذي بشأنه من دماثة الأخلاق، وسمو السجاي⁽¹⁾، وإخلاص المودة، ورجوته أن يبعث لي بشيءٍ من المال في الحاضر، فكان جوابه علي ذلك ألا أعود إلي مخاطبته بهذا الصّدّد لأنّ وقته أثمن من الاشتغال والرّد علي آمالٍ فارغةٍ وقصورٍ في الهواء.

ولمّا أعتني الحيلة توجهت ذات ليلة إلي نادي الثورة، وهي الليلة المُعدة لاجتماع أكابر رجالها وأصحاب الكلمة النافذة بين سائر طغمة النهيلست، فوجدت النادي غاصاً بالقوم، فبعد ما أنجزوا ما أمامهم من المهام انتصبت وقصّصت عليهم أمري مع "لازنسكي" وإنكاره المال الذي لي ضمنه وقيّمته خمسون مليون روبل، فلمّا أتيت علي انتهاء كلمتي حدث صمت رهيب في ذلك النادي الكبير ورجمني القوم بالأحداق حتي كدت أسمع نبضات قلبي، وأخذ الأعضاء ينظرون إلي بعضهم وعليهم لوائح الحيرة والذهول لأنّهم لم يروا حتي الآن في عِدادهم رجلاً بمثل هذا الثراء العظيم، وأكبروا خيانة الرّجل "لازنسكي" وعلموا أنّ بين عِدادهم الآن رجلاً يهز بماله روسيا من أقصاها إلي أقصاها، ثمّ تلي ذلك غوغاء ومناقشات طويلة قرّرَ الرّئيس في ختامها علي أمرين، أولهما: الاستخبار من مركز جمعية الثورة في موسكو عن حقيقة هذا الادعاء ومعرفة رأس مال مصرف "لازنسكي".

فلم يمرّ علي هذه الجلسة سوي شهر واحد حتي ورد كتاب رئيس الجمعية في موسكو وفيه يقول أنّ تقارير جواسيس الجمعية أسفرت عن أنّ والذي "سرجيوس

(1) السجايّ: المفرد: سَجَّيَّة، أي الطبيعة والخُلُق. (المُعد).



فلاديمير“ كان شريكاً في مصرف “لارنسكي” وأنَّ رأس مال هذا المصرف بين عقارات وأوراق مالية ونقود لا يقل عن مئة وعشرين مليون روبل.

ولمَّا ورد هذا الجواب دعي الرئيس الأعضاء إلي جلسة طارئةٍ تقرر فيها أن يطلب من “لارنسكي” باسم عمال الثورة المبلغ المُشار إليه فإذا رفض وأبي يُهدد، فإذا أصر يُرهب بالديناميت، فإذا بقي مُصرّاً يحكم عليه بالإعدام، وتتخذ نفس هذه الوسائل لتحصيل المال من ابنه وريثه، وبعد هذا التفت إليَّ الرئيس، وقال لي:

- يا غورتشاكون سرجيوس فلاديمير كن مطمئناً.

ومضي علي هذا القرار عدة أسابيع التقيت أثناءها مراراً بالرئيس “بتروف” فلم أفاتحه بشيءٍ من هذا القبيل، ولا هو ذكر لي شيئاً كأنه لم يحدث ذكر لذلك الأمر الجلل⁽¹⁾، بيد أنه وردتني ذات يوم جريدة الـ“نوفي فريميا” كالعادة، ولمَّا فتحتها طالعت في أحد أعدادها، ما يأتي:

(خطبٌ جللٌ !!)

(تلقي المصرف الشهير في موسكو المعروف بمصرف “لارنسكي” إنذاراً من أحد أعضاء النهيلست يطلب فيه مبلغاً طائلاً من النقود فإذا رفض أو أبي يُرهب بالديناميت، فإذا بقي مُصرّاً يقتل بعد أسبوع فسلم “لارنسكي” هذه الأوراق إلي إدارة البوليس، ولكن مع كُلِّ الاحتياطات التي اتخذتها الإدارة نسف بناء المصرف ليلاً بالديناميت، كما أتينا علي بيانه في الأعداد الماضية حتي اضطر صاحبه أن ينقله منذ أسبوع إلي جانب إدارة مركز البوليس التي اتخذت احتياطات أشد وأقوي من ذي قبل؛ لأنَّ نفرًا من البوليس كان حارساً علي الأبواب الخارجيّة بينما أنَّ عدداً من البوليس السري كان علي الدوام داخل البناء، ولكن كُلِّ هذه الاحتياطات لم تغن، فإنَّه نحو السّاعة الحادية عشر هذا الصباح بينما كان عُمال المصرف يقومون

(1) الجللُ: الشئُ الكبير العظيم. (المُعد).





بأشغالهم سُمع صوت دوي هائل في غرفة صاحب المصرف، وانفجار عظيم تهدمت به سائر جدران المنزل وتهدم كثير من المنازل المجاورة لأن الاهتزازات بلغت آخر الشارع، وقتل خمسة من العمال، وجرح اثنا عشر، أمّا "لارنسكي" سيئ الحظ، فإنّ جثته تطايرت في الفضاء ولم يعثر منها إلّا علي بعض أعضاء منتورة، وقد استولي الهلع علي سائر مصارف موسكو وكثير منها أقفلت عند سماع هذا الخبر الرهيب، ويظن أنّ اليد التي اقترفت هذه الجريمة الفظيعة هي أحد العمال أنفسهم، إذ أنّه منذ نحو خمسة أيام دخل عامل جديد من أمهر الكتبة والخبيرين بالمصارف إلي مصرف "لارنسكي" وقام بأعباء أشغاله علي غاية الدقة والانتظام، حتي أعجب به سائر المستخدمين، وقد شُوهذ صباح هذا الثّهار داخلًا وفي يده محفظة كبيرة وبعد أن مكث حتي السّاعة العاشرة والنصف صباحا استأذن بالانصراف لغرض ما، وحتى الآن لم يعد، وإذا لم يتخذ البوليس احتياطات أشد ممّا عوّدا عليها لا يمرّ حين من الزمن حتي تصبح موسكو فوضى لا نظام لها وخصوصًا لأنّه قد ورد علي ابن الفقيّد بعد ظهر اليّوم إنذار شبيه بالإنذارات التي وردت من قبل علي والده) .

وبعد أسبوعين من الزمن طلب الأعضاء العاملون إلي حضور جلسة خاصّة لم يذكر موضوعها في ورقة الدعوة، فلمّا انتظم عقد النادي وأنجز الأعضاء ما تأخر من الأعمال والقرّارات المهمة في الجلسة السّابقة، وقف الرئيس وقال بكلّ هدوء وسكينة:

- ليتقدّم إلي هذه المنصّة أحدكم غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير .

فعلت وجهي صفرة الوجل، واصطكت ركبتي من الجزع خوف وشاية بي، فلاحظ الرئيس، وتبسّم تبسّم الوقار دون أن يفوه بكلمة، فجريت إلي المنصّة كمّثّ يجري إلي حتفه؛ لأنّه كان يبلغني روايات غريبة عن اغتيال النهيلست بعضًا من الأعضاء الذين يشتبهون بصدقهم وإخلاصهم، ولمّا بلغت المنصّة وقف الرئيس، وقال:



- أهنتك يا عزيزي ”غورتشا كوف“ لكونك قد أصبحت رجلاً تبلغ ثروته خمسين مليون روبل.

ثمّ وضع في يدي صكاً باسمي من ابن ”لازنسكي“ علي مصرف إنجلترا بالقيمة المذكورة، فلما طالعه اعترتني دهشة شديدة وارتعاش عظيم في أعضائي من شدة الجذل، ثمّ التفت إلي الرئيس وقلت له:

- لا أشكرك علي هذا الصنيع العظيم بل أقول لك أنّه سيكون صباح غد في مصرف إنجلترا خمسون مليون روبل تنفقها جمعية الثورة في السبيل الذي تراه موافقاً لإصلاح روسيا.

فحصل أولاً بين الأعضاء سكوت تام كأن علي رؤوسهم الطير، ثمّ تلي ذلك ضجيج استحسان اهتزت له أرجاء ذلك النادي الرهيب، ثمّ تقدّموا إليّ يقبلونني ويحملونني علي الأكف.





الفصل الخامس

الأميرة.. وحكم الإعدام !!

Princess .. and the death sentence !!



لبثت بضعة أسابيع وأنا في نادي الثورة لا عمل لي سوى التعرف بأعضاء الجمعية، والتجول في أنحاء العاصمة لاختبار طبائع أهلها ومعرفة أحيائها وكان ذلك سهلاً عليّ لأنني تعلّمت اللغة الإنجليزيّة والفرنسيّة منذ نعومة أظفاري، فضجرت أخيراً من البطالة، وتقدّمت إلي الرئيس "بتروف" وسألته أن يكلفني بالقيام بخدمة ما، فتبسّم، وقال لي:

- إن سائر الخدمات التي يقوم بها أعضاؤنا محفوفة بالمشقات والمخاطر وإنها قد تفضي أحياناً إلي حتفهم.

فأجبته:

- أني عالم بكلّ ذلك ومستعد لكلّ بلية، لأنني وقفت نفسي علي أن آخذ بثأر أبي وأمي وشقيقتي، وإن قد اعتراني الآن الضجر والملل حتى كدت أعاف الحياة. فتطلّع إليّ بنظرة كلّها إعجاب، وهز كتفي قائلاً:

- يا "غورتشا كوف" إن أمامك مستقبلاً مجيداً فإنك من بيت عريق في نسبه،



كبير من حسبه، وافر في ثروته وقد رأيناك عنوان الإخلاص والمروءة والشهامة، وستصير بعد قليل زعيم عصابة النهيلست الأعظم يأتمر بأمرك ألوف من البشر، وتتصاع لحكمك رقاب الأمراء والحكام، إذا أصدرت أمراً في هذا النادي كان صاقعة علي أعدائك فيحل بهم الوبال⁽¹⁾ دون أن يشعروا من أين يأتي، و اعلم أنه لا يوجد إلا ثلاثة من البشر لهم السيادة المطلقة في الكون، وهم.. قيصر روسيا، ورئيس الجوزيت⁽²⁾، وزعيم النهيلست، بيد أنه لابد لك من الصبر والتمؤن علي العمل والوقوف علي الدخائل وسبر طباع البشر حتى تصير أهلاً لهذا المركز الخطير الذي تخلفني فيه بعد ذهابي إلي روسيا لغرض سوف تقف عليه في حينه.

.. فشكرته، وقلت:

- أني سأكون له أطوع من بنانه⁽³⁾.

وحدث بعد هذا بضعة أسابيع أن الجمعية عهدت إليّ أوّل عمل خطير وتفصيل ذلك، أنّ جمعيتنا في "لندرا" انتخبت واحداً من عدادنا يُسمي "إيفان غريغوروفتش" للذهاب إلي "بطرسبرج" حاملاً تعليمات سرية إلي مركزنا في عاصمة روسيا، فغيّر اسمه وادعي أنه تاجر فرنسي يحمل جوازاً فرنسيّاً، وزيادةً في كتمان الأمر لم يسر علي الطريق العادية بين "لندرا"، و"بطرسبرج" ولكنّه توجه أوّلاً عن طريق البحر إلي

(1) الوَبَالُ: الشِدَّةُ، وَالْقَلُّ، وَسُوءُ الْعَاقِبَةِ.(المُعد).

(2) الجزويت: أو اليسوعيون، هي واحدة من أهم الرهبانيات الفاعلة في الكنيسة الكاثوليكية، ومن أكبرها. تأسست علي يدّ القديس «أغناطيوس دي لويولا» في القرن السّادس عشر الميلادي، أيام البابا «بولس الثالث» في إسبانيا. تتواجد الرهبة اليسوعية في 112 منطقة جغرافية موزعين على قارات العالم الست، ومركزها الرئيس يقع في "روما، وتتبع نمط الإدارة اللامركزية، وتُدير أعداداً كبيرة من المدارس والجامعات، والشافيا، ودور العجزة، والمكتبات.(المُعد)

(3) أطوع من بنانه: أي أنا في خدمته.(المُعد).





”أودسا“⁽¹⁾ علي عزم متابعة السفر من هناك إلي ”بترسبرج“، ولكن الرّجل أخفق في سعيه، وذلك أنّ وردت علي بوليس ”أودسا“ السري إفادات من أحد الأفراد الخونة ينبئه بحقيقة الأمر، فلم يكّد ”غريغوروفتش“ يبلغ ”أودسا“ حتى ألقى البوليس السري القبض عليه مع ما معه من الأوراق السرية التي فيها تفاصيل مكيدة جديدة، وبسبب ذلك ألقى القبض علي ثلاثة وعشرين شخصاً في ”بترسبرج“ من الرّجال والسّيّدات فحوكموا سرّاً وحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبّدة في ”سيبيريا“.

وتبيّن من التفاصيل التي وردتنا بعد ذلك ومن مطالعة جريدة الـ”نوفوستي“ الروسية الشهيرة أنّ الذي أفشي سرّ ”إيفان غريغوروفتش“ إلي البوليس هو ”البرنيسيس كاريوف“، وعليه عُقدت لجنة الجمعية العاملة جلسة وحكموا علي ”البرنيسيس“⁽²⁾ بالإعدام، وطريقة انتخاب العضو الذي يناط به هذه المهمة تكون بالقرعة فوقعت القرعة هذه النوبة عليّ.

وكان الأعضاء يتكلمون عن القتل والإعدام بسكون وتبسّم وكأنّهما أمراً عادياً، ولا بدّ لي من الإقرار أنّي شعرت أولاً بشيءٍ من التردّد والتوقّف، فلاحظ ذلك الأعضاء، وأفادوني أنّ وشاية هذه المرأة قد سبّبت نفي أكثر من عشرين شخصاً من إخواننا الأبرياء، وإنّه لا بدّ من إعدامها. ولمّا كنت قد أقسمت عند دخولي في زمرة النهيلست أن أقوم بسائر ما تكلفني به الجمعية من الأعمال، وألّا كان جزائي الإعدام رأيت نفسي مضطراً إلي القيام بأوامرهم .

وبعد تقصي أخبار ”البرنيسيس“ علمت أنّها قد حضرت منذ عهد قريب إلي

(1) أودسا: مدينة من المدن الكبرى في جمهورية أوكرانيا تقع على ساحل البحر الأسود، يتكلم أهل المدينة اللّغة الروسية. يوجد فيها أربع موانئ، وتعتبر العاصمة الاقتصادية والسياحية بالإضافة إلى مطار دولي ودار أوبرا. وهي ذات طبيعة خلّابة وتعتبر أدفا مدن أوكرانيا شتاءً لوجودها على البحر. اللّغة الرسمية في المدينة هي الأوكرانية. (المُعَد).

(2) البرنيسيس Princess : لقب بمعني: الأميرة.



”لندرا“، حيث استأجرت منزلاً جميلاً في أحد أحيائها، فراقبتها ذات ليلة حتى إذا ما دخلت لحضور الأوبرا دخلت وراءها وجلست بجانبها، وكان ذلك أول مرة شاهدتها عن قرب، فإذا هي سيّدة تبلغ من العمر نحو خمس وعشرين سنة، ممشوقة القوام، بارعة الجمال، لها عيناں سوداويان تتفتان السحر والدلال، وشعر حالك كالليل، ذات جبين وضاح، ووجنتين هما الورد في غضاظته⁽¹⁾، وذراعاها وأعلي صدرها عار يشف عن بياض كالعاج، وفي عنقها عقد متألّق من الألماس، وهي مرتدية رداء أسود، وعلي ملامحها شيء من الانكسار والأسى. وبعد التأمل فيها وجدتها أجمل امرأة وقعت عينيّ عليها في حياتي.. هذه هي الأميرة التي قضى عليّ أن أذيقها كأس العذاب بيدي !

.. فلبثت أنظر إليها وأنا في حال أشبه بالذهول.

وبعد قليل وقعت عينها عليّ فلما شاهدتني مُحدّثاً بها، علت خدودها حمرة الخجل، وأخذت تُطالع كتاب بيان الرواية التي كانت موضوع التمثيل تلك الليلة. ولما انتهى الفصل الأوّل منها وقفت للخروج إلي القاعة الفسيحة للتدخين، فمرت بجانبها واعتذرت إليها عن مروري باللّغة الروسيّة فردت إليّ اعتذاري بأحسن منه بذات اللّغة وهي تتبسم تبسّم اللطف.

وقد علمت من التتقيب السّابق أنّ الأميرة هي ”البرنيس كاريف“، وأنّ حياتها بعد الزواج أصبحت حملاً ثقيلاً عليها لما حصل من الشقاق بينها وبين زوجها، فلم يمرّ علي زواجها سنة واحدة حتى افترقا، فبقي زوجها في روسيا، أمّا ”البرنيس“ فكانت تصرف وقتها بين ”بترسبرج“، و”باريس“، و”لندرا“، وقد تبَيّن بعد وصولها إلي ”لندرا“ أنّها حضرت إليها في مهمّة سياسيّة للحكومة الروسيّة، ولم يمر زمن حتى تعرّفت بكثير من كبراء القوم ونخبة أفرادهم، وأصبح لها مقام عزيز

(1) غضاظته: الغَضُّ، أي الطريُّ الحديث من كلّ شيء. (المُعَد).





في الهيئة الاجتماعية، فكانت موضوعاً لأخبار الصحف، وحديث القوم. فراقبتها عدة أيام حتى أتت ليلة الأوبرا هذه، فتبعتها علي أمل أن أتعرف بها، ولما انتهى التمثيل التفت نحوها، وقلت بكل تأدب بالروسية:

- أراك يا مولاتي وحدك هنا فهل تسمحين لي أن أحضر لك شالك؟

فأجابتنني بالإنجليزية:

- أشكرك أيها المولي وستري خادمي بانتظاري خارجاً وهو يرتدي ثوباً أحمر.

- ما هو الاسم الذي أذكره له؟

- "البرنيس كاريوف".

ثم التفتت إلي، وقالت:

- أانا من وطن واحد.. أليس الأمر كذلك يا مولاي؟

فأجبته:

- نعم يا سيدتي.. وإن الروسي يسر علي الدوام بمشاهدة مواطنيه في الغرب.

.. ثم أخرجت من جيبي دعوة الزيارة باسم "جورجوفتش ملاكوف" وسلمتها

إياها، وبعد بضع دقائق عدت وقد أحضرت لها الشال، فشكرتني وجرت كالسهم المنطلق.

وفي أثناء الأسبوع التالي اجتمعت بها عدة مرّات، فرأيت منها ظرفاً ولطفاً عظيمين، ودعنتي للذهاب إليها فقبلت ذلك بالامتنان، ولم يمض علينا سوي قليل من الزمن حتى أصبحنا صديقين حميمين ولا بد لي من الإقرار أنني همت بحبّها وغرامها، فكانت تتجلي لي كأنها شعلة من نور، وصوتها أنغام شجية تهتز لوقعها أوتار القلوب وعواطف النفوس، غير أنني لما علمت شرف أسرتها وسامي مقامها، اعتراني اليأس والقنوط وعلمت أنّ هذا النعيم سيفضي بي إلي أوحم العواقب، وبينما كنت



جالساً معها ذات يوم وحديثها يقطر شهداً، وضعت يدي إلي صدري فشعرت بالآلة التي كنت قد خبأتها هناك لكي أعتال هذا الملاك، فاقشعر جسدي واستولي عليّ الجزع والارتعاش.

وكانت عيناها إذ ذاك تنظران من النافذة التي أمامنا إلي جنائن الأشجار الجميلة والزهور البديعة وجمال الطبيعة، فالتفتت إليّ لفظة الغزال الشارد، وقالت :

- مالك يا مولاي فأني أراك صامتاً ؟

.. فلم أجبها، ولكن انتصبت علي قدمي وأخذت يدها وقبّلتها وأنا لا أدري ما أنا فاعل، ثمّ تدفقت كلمات الغرام من فمي تدفق السيل، فارتجفت أعضاؤها وأسرع تنفسها، ولكنها لم تجذب يدها مني وحاولت إخفاء ما يخالج صدرها من عوامل الحبّ، فلم تستطع، ثمّ التفتت إليّ، وقالت :

- ألم أكن أظن يا "فلاديمير" إنك تُحبّني.. أمّا أنا فقد أحببتك حبّاً شديداً أحاول أن أخفيه فيضطرم في صدري، ولقد كانت حياتي في ما سلف سلسلة أحزان وأسي وإنك هو الرجل الوحيد الذي أحببته مدي عُمرِي.

فدهشت لمقالها، وقلْتُ لها :

- أحقيقي أنّي أخطر أحياناً في خاطرك يا مولاتي الأميرة ؟

.. فتبسّمت، وقالت :

- لا تدعني مولاتك الأميرة بل "إيرين" وسيأتي يوم تعلم به قدر الأميرة التي هي الآن أمامك وإخلاصها لك، لأنك لا تعرف عني الآن شيئاً سوي ما تمليه عليك عواطف الحبّ والغرام، ولكن سوف تري قدر حُبّي لك وشدة تعلّقي بك، وشرف خصالي وصفاتي، وعسي ألا يمر زمن طويل حتى أتمكّن من الحصول علي حكم الطلاق من الأمير "كاريوف" ثمّ نتزوّج ونعيش معاً علي الرغد والسّعادة، أمّا أنت فلا





أسألك شيئاً عن ماضيك أو تفصيل أحوالك، وأعلم أنني أكون علي الدوام مخلصه لك ولودك.

.. ثم أسندت رأسها بين كفيها ولجّت في البكاء.

ولمّا عادت إلي نفسها، قالت:

- لا تقدر الآن علي الشعور بما أشعر به من التعاسة والشقاء لأنك لا تعلم مرارة حياتي.

- لا يا "إيرين" فقصي عليّ شيئاً من أخبارك.

.. فجلست علي كرسي مريح، وأومأت لي أن أجلس علي كرسي آخر بجانبها فقلت:

- كلاً.. فإنّه لا يحلو لي الجلوس إلّا عند موطن قدميك فلا أجلس إلّا هنا.

فانطرحت عند قدميها، ثم شرعت تقصّ عليّ حكايتها، فقالت لي:

- إنّ حياتي قد ذهبت ضياعاً وكانت أمّي فرنسية المولد وأبي في عداد أعضاء الشورى في روسيا فصرفت أوائل حياتي في موسكو، ثمّ بعد ذلك في بلاط القيصر في "بطرسبرج"، ولقد أكرهني والدي علي الاقتران بالبرنس وهو كما تعلم وافر الثروة واسع الجاه، ولكنّه لم يمرّ علي زواجنا سوي بضعة أشهر حتى أخذ يسئ معاملتي لدرجة كانت تدفعه الجدة أحياناً إلي ضربي ضرباً مبرحاً، ولا تزال آثار هذا الضرب في جسدي حتى الآن، وفوق ذلك فإنّه عشق ابنة فرنسية من بنات الرقص والخلاعة فصبرت علي جوره ما استطعت، ولمّا لم أحتمل وخشيت علي حياتي من القتل، هجرته وحضرت إلي هنا.

.. فاحتدمت غيظاً، وقلت لها:

- أيمكن أن يبلغ توحشه هذا الحدّ؟



.. فتتهدت وأكملت حديثها، قائلةً:

- ولم يكتف الأمير بذلك بل حاول تطليقي منه وعاونهُ علي ذلك نفر من أصدقائه
تظاهر أحدهم بودي وغرامي لكي يكون ذلك حجة الأمير عليّ في الطلاق، فأفشلت
مهمته لأنّي لم أفعل بعد زواجي شيئاً قط يكون مأخذاً عليّ، ومع أنّي أُحبُّك الآن
وأودك كثيراً فإنّه لم يجر بيننا ما يحق للأمير معه الطلاق، فعفت الحياة وهجرت
الوطن وأخذت أتراوح في الإقامة بين باريس ولندن، وأنا وحيدة شريفة لا صديق
يمنع الضَّيم⁽¹⁾ عني ولا أليف أشكو إليه أمري.

.. وقبل أن تتمّ حديثها قاطعتها، وقلت لها:

- إن أَمامك صديق يفديك بدم قلبه.

فعانقتني وقبّلتني، وقالت:

- صرفت حياتي فيما سلف بين الشقاء والعبرات، ولكن أشعر الآن بنعيم وسعادة
لا أقدر علي وصفهما.

- إنّي أكاد أن أطير فرحاً وسروراً ممّا تقولين.. وسنعيش معاً علي الحظ والنعيم
لا يفترق بيننا مفرق ولا يثني حُبنا بشر.

- ماذا أو مَنْ يقدر علي تفريقنا فإنّنا كلينا في حُبٍّ وغرامٍ وعندي من النقود ما
يفي بسائر حاجتنا.

فعاد في تلك اللّحظة إلي خاطري ذكر الخنجر الذي خبأته في ثوبي، والذي
أعدته ليخترق قلبها، فذعرت وارتجفت أعضائي ارتجافاً شديداً، ولكنّها لم تترك لي
مجالاً للانتظار، فقالت:

(1) الضَّيم: الظلم أو الإذلال. والجمع: ضُيُومٌ. (المُعد).





- إني لك.. وأنت لي وبعد قليل نتزوَّج ونعيش علي الدوام في النعيم الذي نحن عليه الآن.

وكانت الشمس قد غربت، وبدا يحلّ الظلام، فوقفت وانحنيت عليها أقبلها وبينما أنا كذلك إذا بالخادمة قد دخلت فلما رأته كذلت دُعرت واعتذرت، قائلة:

- اعذريني يا مولاتي فأني ظننت أنك قد انطلقت.

فأجابتها الأميرة:

- لا يا "نينا" إني سأبقي الليلة هنا، وأخبري الخادم أن المسيو "ملاكوف" سيبقي هنا للعشاء.

ثمّ أضاءت الخادمة المصابيح وانطلقت من الغرفة، فتطلعت إلى وجه الأميرة وإذا به يتدفّق جمالاً وسروراً فخطر علي بالي حينئذ خاطر جهنمي وهو: لماذا لا أنجز الآن العمل الذي أتيت لأجله إلي هنا وأعمد خنجري في قلبها وهي في أبان السعادة وأوج النعيم، فإنّ ذلك لخير من الانتظار وخصوصاً لأنني إذا أحنثت بقسمي لـ"النهليست"، وأخلفت وعدي لهم كان جزائي الإعدام، وكنْتُ أيضاً علي يقين أنّ الأميرة لا تتجو من مخالهم، فاستللت خنجري وهممت بقتلها فلم تطاوعني يدي علي ارتكاب هذه الجريمة الأثيمة فأعدت الآلة إلي نصابها وقد علتني صفرة الوجع، ثمّ عدت إلي مجلسي علي الكرسي الصّغير الذي كنت جالساً عليه عند قدمي الأميرة وعدنا إلي تنمة أحاديث العشق والغرام.

وبعد أسبوعين من الزمن وصلني رسالة من لجنة الثورة يدعوني إلي الحضور، فلما مثلت بين أيديهم ورأيت ما علي ملامحهم من الحزم وثبات الجأش، اعتراني ذهول، فسألني الرئيس "بتروف"، وقال:

- وجدناك متردّد في قتل الأميرة "كاريوف".. فما سبب ذلك ؟

- يلزم.. يلزم يا مولاي وقت لذلك.



- قد مضى عليك الآن ثلاثة أشهر ولم تنجز شيئاً، وقد علمنا أنّك وقعت في أشراكها، ولكن أعلم أنّها لن تنجو منا ولو كان حولها أسوار من الرجال والسيوف، ثمّ أنّه لابدّ لي من أن أذكرك أنّك قد أقسمت بين أيدينا قسماً رهيباً يتحمّ عليك القيام به فقد أصدرنا علي الأميرة حكم الإعدام فلا بدّ لك من إنفاذه ونحن لا نزال نثق بك، ولكن أعلم أنّك إذا لم تقم به حلت عليك نقمة رجال الثورة وأنت أدري ما معنى ذلك فاذهب وكن رجلاً.

فخرجت من حضرة اللجنة هائماً علي وجهي في أسواق "لندرا" وأزقتها، وأنا أفكّر في مهرّب يكون منه نجاة الأميرة فلم أر شيئاً من بارق الأمل؛ لأنّ حكم الإعدام صدر من اللجنة العاملة، ويعلم سائر النّاس أنّ الجمعية لم تصدر حتى الآن حكماً علي رجلٍ تمكّن بعده أن ينجو من مخالبتها. وبعد أن لبثت هائماً عدة ساعات وجدت نفسي نحو السّاعة العاشرة مساءً بجانب بيت حبيتي الأميرة وأنا لا أعي شيئاً فدخلته حتى بلغت غرفة الجلوس وهي لا تشعر بي فرأيته جالسة، ويدها رواية تطالعها. وكانت ترتدي ثوباً من الحرير البرتقالي والجمال يتألق في جبينها تألّق النور، فلمّا رأيته طربت وقالت:

- أهذا أنت يا "ملاكوف".. لقد انتظرتك النّهار طوله حتى أعياني الصبر وبترج بي الانتظار.

فدنوت منها وقبّلتها، ثمّ جلست لا أفوه بكلمة، فتفرست في وجهي ولمّا شاهدت ما عليه من الاصفرار والأسى، وما علي ثوبي من لطح الأحوال انتابها الدهول، وقالت:

- أعليل أنت.. إني استحلفك بالله أن تصدقني أمرك فأنا أراك شاحب اللون منقبض الصدر.. ألبك مرض ؟

.. فحاولت الابتسام، وقلت لها:

- إني أشعر بإعياء يزول عمّا قليل.



.. ثُمَّ جلسنا نتجاذب أطراف الحديث، وأنا لا أدري ما أسمع أو أقول إلي أن شعرت أخيراً أنها لمست يدي ووضعتها علي وجهها.. تلك اليد التي ستجرعها بعد بضع دقائق كأس الموت، فلم أطق أن تفعل ذلك فجذبت يدي بعنف منها، فتعجبت من ذلك، وقالت:

- أظنك عليلًا يا "ملاكوف".

.. فأجبته:

- إنني علي غاية ما أتمني من الصحة ولكن افتراقا هو علة شقائي.
.. فقالت:

- أتتكلم عن الافتراق فلا يفرق بيننا إلا الموت.

وطوّقت عنقي بيديها وهي تُقبّلني قُبلة الحُبّ والإخلاص، فشعرت بارتعاش شديد في جسدي، ووقفت من موضعي أتمشي في الغرفة من جانب إلي جانب، وبعد قليل التفت إليها، وقلت:

- أيتها الأميرة إنني نذل جبان.. فلقد خدعتك.

- ماذا تقول ؟ ألا تُحبّني يا "ملاكوف" ؟!

- إنك أعز لديّ من حياتي.. ولكن أقسمت علي قتلك.

- أتقتلني أنا يا "ملاكوف" .. أتقتل المرأة التي تُحبّك أكثر من نفسها ؟ إنني أري

فيك مسًا من الجنون !!

- نعم إن فيّ مسًا من الجنون لأنني أحببت المرأة التي سأجرعها كأس الموت من يديّ، ولا بدّ لي من قتلك فإني نهيلستي.

.. ولما سمعت هذه اللفظة اصفر وجهها، وارتجفت أعضاؤها، وتراجعت عني إلي الوراء وهي تكاد يغمي عليها، ثُمَّ أخذت تكرر اللفظة:



- نهلستي ! نهلستي !

- أجل إني نهلستي، ولقد وشيت بنا إلي البوليس في روسيا وشاية أوردت
عشرين فرداً من إخواننا منفاهم في "سيبيريا"، ولقد حكمت عليك اللجنة بالموت..
وستنالينه هذه الدقيقة.

.. وما أتيت علي تنمة ذلك حتى استلّلت خنجري وقبضت علي معصمها.
.. فاهتزت الأميرة اهتزازاً شديداً، وبدا بريق الدهول في عينيها، فصاحت:

- إن هذا كذب وافتراء من المنافقين الذين يرمون بي إلي التهلكة.. أمّا تعني
بذلك تلك المقالة التي نشرتها جريدة الـ"نوفستي".. فالله يعلم أنني بريئة من كلّ
ذلك.. ولكنها دسيصة من زوجي، فإنه لما لم يتمكّن من طلاقني كما أخبرتك قبلاً
عمد إلي الدسائس السياسيّة فرشي بعض من القوم حتى أشاعوا عني هذه الأكاذيب
وفي عددهم الكاتب المذكور والغرض من كلّ ذلك أن تحل عليّ نقمة النهيلست
حيث يكون جزائي الموت.

- أبريئة إذا أنت ؟

- إني أقسم لك بكلّ ما هو مقدّس.. إني بريئة من هذه التهمة.. ولما جرت
محاكمة الذين تشير إليهم من أعضاء النهيلست كنت وقتئذٍ مع الأرشيدوقة "بول" في
"أودسا".. وأنا علي جهل تام ممّا جري حتى بلغني أمر المقالة في الجريدة المُشار
إليها، فبعثت إليها أكذب الخبر تكديباً قاطعاً، فلم يُنشر وما ذلك إلا لدسائس الأمير
"كاريوف".

- أصدق كلّ كلمة ممّا تقولين، ولكن كيف لي أن أنقذك من مخالب المنية، فإنّ
الحكم قد صدر عليك بالإعدام، وأنا مرتبط بقسم لإنفاذ هذا الحكم.
- إني بريئة.. ولكن إذا كان لابدّ لك من إعدامي فأرجوك أن تمهلني شيئاً من
الزمن أستعد به للموت.





- كم تطالبين ؟

- ثلاثة أيام .

- حسن .. إنِّي أُمْنَحُكِ هذه الأُمْنِيَة .

.. ثُمَّ ودعتها منصرفاً .

.. وفي مساء اليوم الثالث سَدَدَتْ خطواتي نحو بيت الأميرة، فالتقيت بالخادم،
وقلت له :

- الأميرة في البيت ؟

.. فذرفت دموعه، وقال :

- ويلاه يا مولاي فإنَّها قد ماتت !

فأَجَبْتُهُ مذهولاً :

- أَمَاتِ الأميرة ؟! ومتى كان ذلك ؟

.. فتنهد، وقال :

- لقد اغتالتها يا سيدي يدُ الأَشْقِيَاءِ، فإنَّها قتلت قتلاً ولم أكتشف ذلك إلا منذ
نحو ساعتين فقط، فجريت استحضار الطبيب، وها هو الآن في غرفتها مع البوليس .
.. فأُسْرَعْتُ إلى الغرفة حيث سمعت أصوات القوم فوجدتها كبيرة مظلمة لا
ينيرها سوى شمعتين وجثة الأميرة موسدة علي سرير بجانب النافذة وملفوفة بغطاءٍ
من الكشمير، وصدرها ملطخ بالدم، فلم أحفل بالقوم بل دخلت ووقفت بجانب
جسدها المسجي، ولمَّا تطلعت فيها هالني ذلك المنظر الرهيب فإن وجهها كان
مشوهاً بالجراح ومنظره مخيفاً فكدت أسقط إلي الأرض من شدة الهلع، وتجلدت
ولبثت واقفاً، ثُمَّ رأيت في يد أحدهم آلة قاطعة يُحْدِقُ بصره فيها بجانب النور،
ولمَّا تأملت فيها ارتعشت سائر أعضائي فإنَّها كانت خنجري الذي وضعه في يدي



رئيس اللجنة لاغتيال الأميرة، فوضعت يدي في جيبي فلم أجد سوى غمد الآلة أمّا الآلة نفسها فلم تكن هناك، فعلمت إذ ذاك أنّها قتلت بالخنجر الذي كان لي، فأخذ البوليس أسمى المنتحل وعنوان موضعي إذ قال إنّهُ لابدّ لي من تأدية شهادة أمام المحكمة.

وبعد أن انصرف القوم سألت الخادم عن تفصيل الأمر فقال لي:

- أن الأميرة كانت عازمة علي التوجه إلي باريس صباح الغد، وأنّها أرسلت وصيفتها قبلها إلي هناك لتعد لها الغرف اللازمة لنزولها فيها، ثمّ إنّهُ نحو الساعة الخامسة سمع قفل الباب فاستنتج أن سيّدته قد خرجت من المنزل، ثم بعد نحو ساعتين من الزمن دخل إلي الغرفة فوجد الأميرة جثة لا حراك بها.

.. وفي مساء اليوم التّالي عقدت اللجنة العاملة جلسة خاصّة، فذهبت إلي هناك لأقدّم تقريراً بشأن ما حصل قياماً بالواجب عليّ لا لإفادة جديدة، لأنّ أعمدة الصحف كانت ملئي بخبر هذا الاغتيال الذي كان سرّاً من الأسرار.

..ولمّا بلغت النادي، التفت إليّ الرئيس "بتروف"، وقلت:

- إنّ الأميرة قد قتلت يا مولاي.

.. فقال:

- إذا كان الأمر كذلك فأشكر أخانا "أرتانوف" الذي قام بهذه المهمة.

فقطّعت حولي مذهولاً، وإذا بالقاتل جالس بجانبني علي كرسي ويده مسندتان عليها، فنظر إليّ الرّجل، وقال:

- فعلت ذلك إكراماً لك لأنّي أعلم الصعوبة التي كانت تُحقيق بك، إذ أنّه يتعذر علي العاشق قتل عشيقته فأحببت مساعدتك في الأمر.

.. وبعد ذلك دُعيّت لتأدية الشهادة مرّتين أمام المحكمة، وبعد إطالة البحث





علي غير جدوى صدر الحكم بأن الأميرة قُتلت بيد جان غير معروف، ثمَّ بعثوا نبأ بهذا الصدد إلي زوجها الأمير فلم يهتم بشيءٍ من الأمر، ولمَّا دُفنت الأميرة لم يكن في جنازتها سواي، و"إيفان" خادمها، أمَّا البوليس فلبث مواصلاً البحث والتنقيب دون أن يتاح له الحصول علي حلِّ هذا اللُّغز.

.. وبعد نحو شهر من الزمن وصلتني يوماً رسالة من الخادم "إيفان" يطلب بها مني أن أوافيه ليلاً تحت كبري إحدى المحطات في العاصمة، فذهبت في الوقت المُعيَّن ظاناً أنَّ هنالك أمراً جليلاً يحب مفاتحتي بشأنه، وكان موضع الاجتماع مظلماً ولا يمرّ فيه سوي قليل من النَّاس، وبينما كنت واقفاً في الموضع المُشار إليه انتظر الرَّجل وإذا بيدي لمستني وصوت سيِّدة تناديني باسمي، فالتفت فرأيت سيِّدة مرتدية رداء السفر، وعلي وجهها برقع كثيف، فرفعته قليلاً، ولمَّا نظرت إليها كاد يقضي علي من الدهول لأنَّ المرأة التي كانت واقفة أمامي لم تكن سوي الأميرة "كاريوف" !

.. فتقدَّمت إليها وأنا أكاد يغمي عليَّ من الجذل، وقلت لها:

- أهذه أنتِ يا "إيرين" ؟!

فقلت:

- نعم.. ولا تظنني خيالاً إلاَّ أنَّه لابدَّ لي من التَّنكُّر حتى لا يراني أحد فلنذهب

من هنا.

.. ثمَّ أسدلت برقعها الكثيف مرَّةً أُخري علي وجهها.

.. فانطلقنا نحو أشجار غضة بجانب النَّهر، ولمَّا خلونا تطلعت إليَّ "إيرين"،

وقالت:

- لا تندهش ممَّا جري فإن الأمر علي غاية البساطة والسهولة. أتذكر تلك اللَّيلة

الأخيرة التي حضرت فيها إليَّ ورأيتني أطلع رواية كانت وصيفتي "نيناً" تلك اللَّيلة عليلاً ولم ادع لها طبيباً لأنِّي ظننت أن وعكتها لا تستدعي إحضار الطبيب، ولم أدر



أَنَّ تلك الابنة المسكينة كانت مصابة بمرضٍ في القلب، فماتت في السَّاعة الخامسة في اليوم الثالث من حضورك إليّ، فخطر لي إذ ذاك أن أضع تلك الابنة مكاني وخصوصاً لما بيننا من المشابهة في اللّون والسن والشعر، وأخبرت «إيفان» الخادم بذلك، وقلت له إِنَّ بعض الجنّة يودون اغتيالِي.

- هل ذكرت اسمي له ؟

- كلاً.. كلاً.. وبعد أن وضعت ثيابي علي جثة «نينا» نقلناها إلي غرفتي، ثُمَّ لبست ثيابها، وأخذت أتمن جواهري وسافرت إلي باريس تاركة «إيفان» في البيت، ولقد أخبرني أنّه بعد ذهابي شاهد رجلاً متوسط القامة قد دخل البيت بعد أن فتحه بمفتاحٍ كان في جيبه، ثُمَّ أخذ يجول في الغرف حتى بلغ غرفتي فرأى هناك في الظلام جثة «نينا» التي ظنّها إيايَ ولقد حصل كُل ذلك بعد موت «نينا» بنحو نصف ساعة فقط.

- إِنَّ تشوّه الوجه هو الذي حال دون معرفتي حقيقة الشخص.

- لقد أصبت ومع كُل ذلك فإنّه لم يكن هنالك من جريمة، أما أنا فتمكّنت من التخلص وقد غيّرت اسمي فلا يوجد الآن في العالم الأميرة «كاريوف» بل مدام «ركتسكي»، وأني لا أزال أُحبّك ولكن أري أنّه لابدّ لنا من الافتراق؛ لأنّه إذا عدنا إلي اجتماعنا اكتشفت لجنة النهيـلست حقيقة الأمر وعادوا إلي غدرهم بي أو بك، وها أني الآن مسافرة إلي «بروكسل»⁽¹⁾ ولابدّ لي من العجلة لأنّ القطار يكون علي أهبة السفر بعد ربع ساعة.

(1) بروكسل Brussel : هي عاصمة الاتحاد الأوروبي بحكم الأمر الواقع وأكبر منطقة حضرية في بلجيكا. تتألف من 19 بلدية. تستضيف بروكسل مؤسسات الاتحاد الأوروبي الرئيسة ومقرات حلف شمال الأطلسي، وكانت بروكسل المركز الرئيس للسياسة الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. (المُعد).





.. ولَمَّا بلغناه هزرت يدها، وقلت لها:

- أودعكِ يا مولاتي.

.. فقالت:

- لا.. قل إلي الملتقي.

.. ولَمَّا تحرَّك القطار، وضعت أصابعها علي شفتيها اللطيفتين كأنَّها تُقبِّلني عن

بُعد، وقالت:

- إلي الملتقي يا حبيبي فإنك كنت سبباً في نجاتي من مخالف الموت.

.. فوقفت صامتاً لا أدري ماذا أفكر أو أقول !!







الفصل السادس

ساعة من الديناميت !!

An hour of dynamite



إنَّ البوليس السري لسفارة روسيا في ” لندرا“ عبارة عن جيش من العمال دأبهم السعي والتنقيب عن مكاييد النهلست وأسرارهم والوقوف علي كُلِّ حركة من حركاتهم، وعليه كان من دأبنا إجراء حركات ودسائس بعيدة عن مرادنا وليست من الحقيقة في شيء، والغرض الوحيد من ذلك إيهام البوليس السري وإبعادهم عن اكتشاف الدسائس الأكيدة الصحيحة، فإنَّه لا يوجد ملك في العالم قط له من الجواسيس وزمرة العمال ما لقيصر الروس، فإنَّهم في كُلِّ عاصمة، وفي كُلِّ البلاد، ولا بدَّ من الإقرار أنَّهم من أذكي جواسيس العالم، وأشدَّهم مهارة، وأرشقهم حركة، وأكثرهم سعيًا، وأجرئهم إقدامًا، وأعظمهم بطشًا.

ولكُلِّ سفارة من سفارات أوروبا أكثر من خمسين شخصاً في جهدهِ مستمرٍ ودأبٍ متصلٍ للوصول إلي معرفة مَنْ يشتبه في أمرهم من الروس المشتغلين بالأمور السياسيَّة بعد أن ينزحوا من بلادهم ويستوطنوا العواصم الأوروبيَّة يصبح هؤلاء دائماً وأبداً تحت أنظار الرقباء من الجواسيس الذين يكونون لهؤلاء الأقوام أتبع



لهم من ظلمهم، ويقدمون بشأنهم التقارير المطولة والبيانات الوافية إلى الجنرال "سكرتسكي" رئيس المصلحة في "بترسبرج" ليكون علي بينة من أمرهم.

وإنَّ القحة⁽¹⁾ والجرأة التي يصل إليها هؤلاء الجواسيس في البلدان الأوروبية الصَّغيرة، مثل: "بلغاريا"، و"رومانيا"، و"سويسرا"، و"إيطاليا" تبلغ حداً فاحشاً من التَّطاوُل ومجاوزة الحقوق الدُوليَّة، حتى أنَّهم يستبدون أحياناً في أعمالهم كما لو كانوا في مقاطعات روسية.

وكثيرون من الخبراء في البلقان يعتقدون أنَّ البلغاريين اللذين حاولوا اغتيال "مونثوف" رئيس بوليس "روستشوك" عندما توجه إلى "بوخارست"⁽²⁾ إنما فعلاً ذلك بإيعاز أحد كتبه أسرار السفارة الروسية في "رومانيا"، ولم تقف قحة هؤلاء الأقوام عند هذا الحد بل حملوا البعض بالرشوة علي وضع آلات لتزييف النقود خلسة في منزل أحد مشاهير الكُتاب الروس، وهو المسيو "كاس دوبروجانو"، كما اتضح ذلك أثناء المحاكمة، والأنكي من كُلِّ ذلك أنَّهم وضعوا خلسة بمثل هذه الدسائس قنابل ديناميت وغيرها من المواد المتفجرة في بيوت بعض الروسيين النازحين إلى العواصم الأوروبية، ثُمَّ وشوا بهم إلى الحُكام حتى إذا وُجدت هذه المواد كان هؤلاء الأقوام المتهمون عرضة للقصاص والطرْد فيذهب بذلك نفوذهم السياسي وتبطل دسائسهم من تلك العاصمة.

ولقد تبيَّن حديثاً أثناء محاكمة جرت بهذا الصدد في "باريس" حيث حكم فيها أوَّلًا علي ستة من الروس بالسجن سنوات عديدة أنَّ القنابل والديناميت وضعت في

(1) القحة: قَلَّة الحياء، والجرأة على اقتراف القبائح. (المُعد).

(2) بوخارست: هي عاصمة دولة رومانيا السياسيَّة والصناعيَّة، ومركز تجاري رئيس في البلاد وهي أكبر مدنها، حيث يزيد عدد سكانها عن مليونين وثلاثمئة ألف نسمة، ممَّا يجعلها سادس أكبر مدينة في الاتحاد الأوروبي. (المُعد).





بيوت أربعة من المتهمين علي الأقل بدسائس جواسيس الحكومة الروسية، ولقد بلغ تفقُّنهم بالدهاء حدًّا حارت عنده العقول وأوقع النهلست حيناً من الزمن في أشدّ الحيرة والذهول وذلك أنَّ بعضاً من أفراد هؤلاء الجواسيس قام بقتل بعض من إخوانه الجواسيس ترلُفاً⁽¹⁾ للنهلست وتمهيداً لانخراطه في سلوكهم حتى يكون علي بينة تامة من كُُلِّ حركة ودسياسة ومكيدة تصدر منهم.

ولقد أحدثت الحكومة الروسيّة مؤخراً تحسينات مهمة وإضافات جديدة في مصلحة جواسيسها بالبلدان الأوروبيّة زادتھا اتقاناً وإرهاباً فقد جعلت "باريس" العاصمة العظيمة مركزاً لقواتها تنبث منه وتتشعّب إلي غيرها من المدن التي يؤمها طلبة العلم في روسيا، مثل: "مونبلييه"⁽²⁾، و"زيورخ"⁽³⁾، و"برن"⁽⁴⁾، و"نيس"⁽⁵⁾، و"منتون"⁽⁶⁾.. وغيرها.

أمّا في "لندرا" فإنّ الجاسوسية فيها مصلحة مستقلة عن غيرها، ولا غرو فإنّ "لندرا" بمثابة مملكة برمتها من ممالك العالم وخصوصاً لأنّها العاصمة العظمي التي تضم عدداً غفيراً من مجرمي الروس السياسيين، ونوابغ كُتّابها، وعظماء أمتهم فيلقي فيها هؤلاء الجواسيس للنهلست شراكاً غريبة الأشكال مُتعدّدة الأنواع لإيقاعهم في

(1) ترلُفاً: تَقَرَّباً إِلَيْهِ، أَوْ تَمَلُّقُهُ. (المُعد).

(2) مونبلييه Montpellier: هي مدينة في جنوب فرنسا. (المُعد).

(3) زيورخ Zürich: هي إحدى أهم مدن سويسرا وأكبرها على الإطلاق. تقع في وسط شمال البلاد على مقربة من الحدود الألمانيّة. (المُعد).

(4) برن Bern: هي عاصمة سويسرا الإداريّة، ورابع أكبر مدنها من حيث عدد السكان بعد «زيورخ»، و«جنيف»، و«بازل». (المُعد).

(5) نيس Nice: هي مدينة تقع في جنوب فرنسا، على ساحل البحر الأبيض المتوسط، بين «مرسيليا»، و«جنوة». (المُعد).

(6) منتون Menton: هي مدينة وبلدية فرنسيّة، وتقع في شرق فرنسا قرب «موناكو». (المُعد).



حبائهم، من ذلك أَنَّهُم أَنشؤوا حديثاً نادياً علمياً لطلبة العلم و أصحاب الأَقلام الروس يؤمّه الجواسيس متى أرادوا دون أن يعلم أحد أَنَّهُم هم الذين أَنشؤوا ذلك النادي، فمتى تقاطرت إليه الشبان سهل علي الجواسيس معرفتهم ووضع الشراك التي يلزم أن تلقي لهم، ولكن النهلست أَنفسهم يعلمون كُل ذلك وسائر ما يُتصّب لهم من الشباك فيتجنبونها تجنّب الأفعى.

وحدث في أواخر أيام ” ألكسندر الثالث “⁽¹⁾ أن زاد استبداد الحُكام في الرعية وكثر الجور والظلم وبلغ صراخ المظلومين عنان السّماء وأرسل كثيرون من الأَقوام إلي منافي ”سيبيريا“ وخصوصاً من أعضاء جمعيتنا، فعقدت اللجنة العاملة جلسة في ”لندرا“ وقَرّرت وجوب إرهاب القيصر وذلك بنسف قصر الشتاء في ”بطرسبرج“ حيث هناك موظفان كبيران من أعضاء جمعيتنا يقومان بمعاونتنا سرّاً علي إنجاز العمل، ولمّا أقرت اللجنة العاملة علي ذلك أخذت في إعداد الوسائل اللازمة لهذا الإرهاب وأخطرت بذلك سائر فروعها في المراكز الأوروبية الروسية.

أما آلة الهلاك الديناميتية التي أقرت اللجنة صنعها فهي علي شكل ساعة كبيرة لا شيء في ظاهرها يدل علي دخيلة أو مكيدة في الأمر ونيط بصنعها إلي ”نقولا ترسنسكي“ أحد مهرة الصّناع وهو نفسه الذي صنع القنبلة التي انفجرت في القطار الإمبراطوري علي مقربة من ”غوردنو“ وغيرها من القنابل التي أوقعت الرهبة في قلوب كثيرين من حُكام الروس وأمرائهم. وواضح أن أهم ما نرمي إليه في مثل هذه الأحوال هو بقاء الأمر سرّاً طي الخفاء والكتمان، فاتخذنا أشد وسائل الحرص

(1) ألكسندر الثالث: هو القيصر « ألكسندر رومانوف الثالث » (المولود في 10 مارس 1845م - والمتوفي في الأول من شهر نوفمبر 1894م). قيصر وإمبراطور روسيا السابع عشر في الإمبراطورية الروسية منذ 13 مارس 1881م - وحتى وفاته) خلفاً لأبيه القيصر « ألكسندر الثاني » لم تخض روسيا حروباً كثيرة في عهده ولذلك عرف باسم صانع السلام. وقد خلفه ابنه القيصر ”نيكولاي ألكسندروفيتش رومانوف“ (نيكولاي الثاني) الذي تولى الحكم خلفاً لأبيه عام 1895م. (المُعد).



والحذر، ولكن مع كُلِّ ذلك تبدي لنا ذات يوم ما يؤخذ منه أنَّ الجواسيس بدت لهم لوائح الحذر وأنَّهم في نهضةٍ جديدةٍ وجهد متصل لاكتشاف لغز من الألغاز، فاتضح لنا من كُلِّ ذلك أنَّهم أحسوا بالدسيسة التي شرعنا بها.

ولمَّا تبيَّن ذلك اجتمعت اللجنة العاملة علي عجلٍ ونظرت في الطريقة المثلي التي يحسن بنا إتباعها في مثل هذا الموقف حتى لا ينكشف أمرنا، أو نفشل في عملنا. وكنت قد انقطعت منذ أشهر عديدة عن التردُّد إلي نادي الثورة حتى لا يشتبه في أمري أحد من النَّاس، واستأجرت بيتاً من أحسن بيوت العاصمة وفي أفضل أحيائها، فلم يكن يخطر علي بال بشر أني من طغمة النهلست أو لي بأحد من أصحابها شيء من العلاقة، فهذه الأسباب وقع اختيار اللجنة عليّ وعلي صديق لي يُسمي "أورلوف" لكي نكون رقييين علي أولئك الجواسيس إلي أن يتمكنَّ الرئيس "بتروف" واللجنة العاملة من انجاز الآلة وإرسالها إلي روسيا.

فقلت علي هذا العمل بهمةٍ لا تعرف الكلل، وعزم لا يتطرق إليه الملل، فكنْتُ أتكبر متزيناً بأزياء مختلفة الأشكال مُتعدِّدة الأنواع، وأتبع الجواسيس من حي إلي حي، ومن حانةٍ إلي أخرى. أتبعهم إلي أحقر مواضع العاصمة وأدني أفراد الأقوام، واستعنت علي هذا الأمر بنفرٍ من إخواننا كنت أبعثهم إلي مواضع مُتعدِّدة من أنحاء العاصمة لكي يكونوا باعثاً علي توجيه انتباه الجواسيس إليهم فيتبعون خطواتهم إلي أن ظفرت بغرضي المطلوب، وهو صرف جاسوسيتهم عن الموضع الأصلي الذي تصنع فيه تلك الآلة بديعة الصنع، وممَّا سهَّل علينا عملنا من هذا القبيل أنَّ اللجنة نقلت نادي الثورة من موضعه المشهور إلي موضع سري من أنحاء المدينة، فكانت في مأمن من الأبصار، وفي أثناء هذه الفترة ثابر "تقولا ترسنسكي" علي إكمال معدات آله بكلِّ حزم ونشاط.

وحدث ذات ليلة أني كنت في مقهى من مقاهي المدينة، وفي يدي صحيفة أطلعها، وإذا برجلٍ أمامي يُخاطب خادم المقهى باللغة الروسية فتطلعت فيه وإذا



منظره يطابق صورة رجل سلمتني إياه اللجنة العاملة وأفادتني أنه الرجل الشهير المسمى "غويبو" وهو من أمهر الجواسيس الفرنسيين، استخدمته الحكومة الروسية رئيساً لطغمة⁽¹⁾ جواسيسها في "لندرا".

وكان إذ ذاك قد أشعل عوداً من الكبريت لإشعال لفافة من التبغ فرجوته أن يسمح لي بإشعال لفافتي منها فكان ذلك سبيلاً لي إلى محادثته والتقرّب منه، وبعد أن تجاذبنا الحديث لحظة من الزمن أيقنت أنّ الرجل لا يشتبه في شيء من أمري، ثمّ أخذنا بعد ذلك نعاقر الخمر ونقدح من أقداحها مسرة ووداداً نحو ساعة من الزمن، سرنا بعدها سوية في أحد شوارع المدينة ولمّا افترقنا تبادلنا ورقة الزيارة فأخذت ورقته وعليها اسم "جول غويبو"، وسلمته ورقتي وعليها اسم المستر "بول ماكنزي" عضو في النادي الشهير في "لندرا" المعروف بنادي الأحرار، ثمّ أفادني أنّ مهنته تاجر قفازات، أمّا أنا فأخبرته أنني بلجيكي المولد من عائلة غنية حضرت إلي "لندرا" طالباً للتزهر.

وعند افتراقنا ركبت عربة وودعته، ولكن لم أمكث فيها سوي دقيقة من الزمن حتي نزلت منها وعدت من حيث أتيت أتبع خطوات الرجل إلي أن اهدتني إلي منزله، ومن تلك الساعة أخذت أراقبه للوقوف علي طرق جاسوسيته، فلم يمض زمن طويل حتي علمت ما كان عليه من الدهاء والإقدام حتى أنّه لم يكن يفتر لحظة عن مراقبة حركات جمعيتنا ليلاً ونهاراً، وليس ذلك فقط بل كان يستعين علي قضاء مآربه ليس بجواسيسه الخصوصيين فقط بل بجواسيس الحكومة الإنجليزية نفسها، واتفق لي بعد ذلك الاجتماع بـ "غويبو" مراراً عديدةً فكنا صديقين حميمين لا تشوب صداقتنا شائبة.

(1) طغمة: جماعة من الناس. (المُعد).





ثمَّ حدث لي أن ذهبت في أصيل نهار إلي بيت أحد الأصدقاء حيث نُقل نادي الثورة مؤقتاً فلقيت هناك الرئيس "بتروف" فقَصَّ عليّ حديثاً وقع عليّ وقع الصواعق، وهو أن سائر أتعابنا قد ذهبت سدي، وأنَّ الجواسيس والبوليس السري تمكنوا من معرفة مسكن "نقولا ترسنسكي" حيث يعمل في صنع السَّاعة، وأنَّهم قد أقاموا حوله سوراً من الرقباء، فرأت اللجنة أن يترتب علينا دون إبطاء نقل الآلة التي أكملت معداتها من المنزل قبل دخول البوليس الإنجليزي السري إليه وتفتيشه، وقرَّرَها علي اختياري أن أقوم بهذه المهمة الخطرة وتطوَّع صديقي "أرلوف" بمعاونتي علي العمل.

فانطلقت إلي منزلي كالسهم إذا مرق ووضعت علي رأسي شعراً اصطناعياً وغير ذلك من وسائل التنكُّر حتى أصبحت نظير رجل كهل من العُمال البسطاء، فنزلت وبيدي صندوق ووضعت عليّ منيراً كمئزر العُمال، وكان قد جاء الليل وأرخي الظلام أستاره فرأيت أمام منزلي عربة مكتظة بالقوم فدخلتها كواحدٍ منهم، ولَمَّا نزلت منها بجانب الموضع الذي سَدَّدت نحوه خطواتي، التقيت برجل رث الثياب يتمشي جيئةً وذهاباً وهو يُدخن، وما تفرست قليلاً وسط ذلك الزقاق الذي كانت أنواره خفيفة حتى أدركت من ملامح وجهه أنَّه "غويبو" فتأمَّل فيَّ بعينٍ برّاقةٍ ولكنَّه لم يبد منه ما يدل علي أنَّه عرفني، فبقيت سائراً إلي أن بلغت منزل السَّاعاتي "ترسنسكي" فالتفت ورائي قبل دخوله فوجدت ظهر الجاسوس نحوي، ووجهه إلي الجهة الأخرى فانطلقت داخلاً البيت في مثل غمض الجفن بعد أن فتحت بمفتاح كان في جيبِي، وكان المنزل من طابقين والظلام حالكاً فخشيت أن أشعل عوداً من الكبريت لئلا يكون وجود الضوء في الموضع باعثاً إلي اشتباه الجاسوس "غويبو" الذي كان يراقبه عن بُعد، فتمسكت طريقي في الظلام الدامس إلي أن بلغت معمل "ترسنسكي" وهو آخر غرفة في الطابق العلوي، كما كان قد أفادني عنه قبلاً، وبعد أن قنشت بضع دقائق وجدت الصندوق الذي يتضمَّن السَّاعة علي مقربةٍ من النافذة، وكان صغير



الحجم، مُربع الشكل وله ممسكان علي الجانبين بحيث أنه لا يمكن لأحد أن يشتبه بأمره علي الإطلاق.

فانحنيت لأمسكه بيدي بكلّ لطف وهدوء لأنه كان فيه من الديناميت ما لو انفجر لهدم سائر ذلك الشارع برمته، وفيما أنا علي هذه الحال شعرت بيدٍ وقعت علي كتفي، ورجل يقول من ورائي:
- لقد قبضت عليك أيها الجاني.

فعلمت من الصوت أن الرَّجل هو "غويبو" نفسه قد دخل ورائي إلي المنزل واقتفي أثرِي إلي المعمل، وكانت يده ممسكتين ذراعي كمقبضٍ من الحديد، ولكنّه لم يكن سوي ثوانٍ من العراك حتى تخلصت يمناي وفيها مسدسي، فصحت فيه:
- دعني يا رجل وإلاّ أطلقت مسدسي علي هذا الصندوق الذي إذا انفجر حملك إلي الجحيم.
فقال:

- إذا فعلت ذلك لكنت رفيقي إلي ذلك الموضع وإني الآن أُلقي القبض عليك لأنّك رجل مُدان يشتغل في صناعة المفرقات.

فرأيت أنّي إذا أطلقت عليه المسدس تراكضت النَّاس وافتضح أمرِي، فالتفت إلي ما حولي فرأيت علي الأرض قطعة من الحديد فالتقطتها وقبل أن يتمكّن من التفوه بكلمةً بادرت به بضربةٍ شديدةٍ علي رأسه، فلم ينبث بنبت شفة بل ترنح ترنح السكران وسقط إلي الأرض لا يعي علي شيءٍ، فرميت من يدي الحديد وأعدت المسدس إلي جيبي وحملت الصندوق أجري به من البيت كالبرق إذا أومض، حتى بلغت الزقاق، ولمّا خرجت منه التقيت برّجلٍ يتمشي بجانب البيت فلمّا دنوت منه عرفته فإذا هو رفيقي "أورلوف" فعجلنا المسير في طريقٍ يختلف عن الطريق الذي أتيت به، فشاهدت هناك زمرة من الجواسيس والبوليس السري ولكنّهم لم يشتبهوا





في شيءٍ من أمري، ثُمَّ التقيت بعربة استأجرتها ووضعت الصندوق بجانبِي وأمرت السائق أن يعجل بالمسير حتى بلغت منزلي الخاص.

وقد كان من حسن الحظ أن عجلت في المسير لأنَّ "أورلوف" بقي يرقب ما يكون من الأمر فأفادني بعد ذلك أنني لم أكد أخرج من البيت حتى دخلته الجواسيس والبوليس السري ولكنهم لم يتمكنوا من العثور علي شيءٍ إلَّا من بعض الأدوات، ورئيس الجواسيس الذي كان ملقي علي الأرض في حال الإغماء، أمَّا "غويو" فإنَّه لم يمرَّ عليه سوي بضعة أيام حتى شفي ممَّا أصابه فالتقيت به بعد نحو أسبوع في بعض أنحاء المدينة وتقدَّمت إليه مسلماً عليه كالعادة، فقابلني بالأنس والبشاشة، فدعوته إلي منزلي لتناول شيء من المشروب، فلم يمتنع عن ذلك ووجدت أنَّه لم يكتشف من أمري شيئاً، ولَمَّا جلسنا نتعاطي الشراب حدَّدت فيه نظري فوجدته علي معتاد حالة من الصداقة والمودة، وكان علي مقربةٍ من الصندوق الذي يتضمَّن الساعة الديناميَّية تحت ستار من الكشمير، ثُمَّ أخذنا في معاورة الخمر وهو لا يدري أنني قد وضعت مخدراً في الزجاجاة التي أمامه، فلم يكن سوي قليل من الزمن حتى شعر بدوار فوضع يده علي رأسه، وقال:

- لا أدري ماذا أصابني فإني أشعر بصداً ودوار في الدماغ.

ولم يتمَّ كلامه حتى سقط من علي كرسیه إلي الورا، ولَمَّا أخذ منه المخدر كُلُّ مأخذه أخرجت الأوراق التي في جيبه فوجدت كتباً مُتعدِّدة ومحفظة مدونة فيها أسماء النازحين الروسيين في "لندرا"، وداخل غلاف المحفظة كتاب من رجلٍ عليه عنوان موضعه وفي ذيله إمضاؤه فإذا هو من "باتروفسكي" أحد أعضاء جمعيَّتنا في "باريس" فعلمت من مطالعة الكتاب أنَّه هو الرَّجل الذي أفشي سرنا بخصوص صنع الساعة الديناميَّية، وأنه يتقاضى راتباً سنوياً من حكومة روسيا، وليس سوي أحد جواسيسها منتظماً في سلك أعضائنا، فنسخت الكتاب المُشار إليه علي ورقةٍ خاصَّةٍ وبعد أن نقلت سائر ما يهمني نقله،



أعدت كُلَّ شيءٍ إلي موضعه وأخذت أرشق وجه ضيفي بالماء البارد حتى عاد إلي رشده، وهو يقول إن ما جري له إنما كان من مفعول الخمر وحرارة الغرفة، ففتحت النوافذ إلي أن استفاق جيداً، وكان أوَّل أمر فعله أن وضع يده في جيبه حيث كانت أوراقه، ولمَّا رأي أنَّه لم يفقد منها شيء اطمأن، وبعد أن جلس برهة ودَّعني وركب دراجته وانصرف، ثُمَّ ذهبت في مساء ذلك اليَّوم إلي نادي الثورة وقدَّمت تقريراً بشأن خيانة "باتروفسكي" فصدر عليه الحكم بالإعدام.

وفي هذه الأثناء وردت أنباء الرفاق في "بطرسبرج" تفيد أن سائر معدات المكيدة أصبحت علي تمام الاستعداد، وأنَّ أحد الأعضاء قادم من "بطرسبرج" إلي "بروكسل" عاصمة بلجيكا لاستلام آلة الهلاك من اللجنة العاملة في "لندرا"، ولقد قام في وجهنا شيء كثير من الصعوبات لأنَّ الجواسيس والبوليس السري كانت علي الدوام مرابطة في الثغور البحرية وواقفة بالمرصاد لنا في سائر محطات السكك الحديدية في أنحاء البلدان المختلفة، يتفرون بكُلِّ قادم ويراقبون كُلَّ غريب، وفضلاً عن كُلِّ ذلك فإنَّ نقل الآلة نفسها محفوف بكثيرٍ من المخاطر لسهولة انفجارها، ولأنَّه لا بدَّ في سائر الجمارك من فحص ما يمرُّ فيها وتفتيشه، وكُلُّ هذا يُشكل خطراً علينا، ولكن معاونينا في "بطرسبرج" عرفوا مقياس الصندوق الذي يتضمَّن الآلة، واتخذوا الاحتياطات الشديدة لوضعه ضمن صندوق آخر وتهريبه في الجمارك التي يمرُّ بها وخصوصاً ما كان منها في "ألمانيا"، وروسيا وبعد مناقشات وبحث مستطيل أناطت اللجنة بي تسليم الصندوق لمنَّ يحضر من روسيا لاستلامه.

ولمَّا كان سفري بالطرق العادية سواء في السكة الحديدية أو البواخر محفوفاً بالمصاعب والمخاطر لكثرة العيون والأرصاد، صمَّمت علي اتخاذ طرق غير مطروقة فتوجهت إلي قرية صغيرة علي الشواطئ الإنجليزية لا تدنوا منها بواخر النقل العادية، ونزلت في نزلٍ حقيرٍ شاعراً أنَّي هنالك في مأمن من كُلِّ خطر مفاجئ، وبينما كنت ذات يوم جالساً في قاعة النزل وإذا بأحد البحارة قد دخل وجلس





بجانبي يعاقر الخمر ويغازل خادمة المنزل فعرفت منه أنه صاحب مركب في تلك الناحية، فسألته هل يتاح لي تهريب بعض أشياء دون دخولها الجمارك، فقال لي أنه علي أتم الصداقة والولاء مع سائر خفر السواحل، وإن ذلك لمن أسهل الأمور عليه، فطلبت منه أن يفيدني إذا كان يمكنه إيصالني في صباح الغد إلي الشواطئ البلجيكية، وكم يطلب أجرة علي عمله، فقال أن إيصالني لمن الأمور السهلة والأجرة عشرون جنيهًا، فحاولت إنقاص القيمة ولكنه أفادني أنه يوجد معه ثلاثة من الرفاق وأن مهمتهم لا تخلو من الخطر عليهم، فاتفقنا أخيراً علي ذلك وأفدته أن معي صندوقاً يتضمّن حلياً وجواهر ثمينة أود تهريبها، فتبسّم وقال:

- أليست حلي مسروقة ؟ ولكن مالي ولهذا فأنت تدفع لي أجرتي ولا يهمني غير ذلك.

فطلبت منه أن يكون علي أهبة السفر في المساء.

وعند حلول الموعد المتفق عليه أخرجت الصندوق الذي كان موضوعاً مع أثوابي دون أن يشعر بي أحد، ووافيت رجالي إلي المركب فوجدتهم نفرًا من القوم تلوح عليهم لوائح الشراسة وغلظة الأخلاق، ثمّ نشروا القلاع وجري بنا المركب نحو الشواطئ البلجيكية، فهاج علينا البحر أثناء السفر ولبثت أمواجه المتلاطمة تزبد وتهيج حتى منتصف الليل وكان الرجال مشغولين بتسيير المركب وسط الزوابع والعواصف والأمواج المتعالية، أمّا أنا فكنت وبجانبي صندوقي في غرفة صغيرة قادرة لا شيء فيها سوى ضوء ضئيل من مصباح زيتي كنت أطلع علي نوره عدداً من صحيفة، والظاهر أنّ حركة المركب جعلتني أميل للنعاس فأغمضت جفني ولا أدري كم بقيت من الزمن ولكن عندما استفتقت من النوم سمعت حولي همساً ووجدت أنّ المصباح الذي كان بجانبني قد انطفأ وليس حولي سوى ظلام دامس.



ولما أصغيت قليلاً سمعت البعض يتكلمون، وعلمت أنَّ الغرض من كُلِّ ذلك اقتسام الجواهر والحلي التي كانت في الصندوق الذي بجانبني، وسمعت أحدهم يقول للآخر:

- هو ذا الرَّجل نائم فلنأخذ الصندوق وإذا تحرَّك رمينا به إلي جوف البحر كما فعلنا بذلك الرَّجل من قبله.

فعلمت إذ ذاك أنَّني بين زمرة لصوص، ولبثت ساكتاً لا أحرك عضواً من جسدي إلي أن شعرت بيدٍ انسلت إلي ما تحت رجلي وجذبت الصندوق إلي الخارج، فرأيت إذ ذاك أنَّه لابدٌ من الاستيقاظ وإلاَّ ذهبنا جميعاً شذرات في الهواء، فوقفت، وقلت لهم:

- ماذا تريدون من هذا الصندوق؟

فأجابني الرئيس:

- مكانك فإن غرضنا الوصول إلي الألماس والزبرجد والذهب التي فيه فإذا تحركت رميناك غذاء للأسماك.

فأشهرت مسدسي، وقلت لهم:

- أقسم بالله العلي العظيم أن من يأخذ هذا الصندوق يقع موضعه ميتاً.

فشعرتُ إذ ذاك أن يداً لمستني، ثُمَّ أشعل أحدهم نوراً فوجدت أن عُمال القارب الأربعة هم في نفس الغرفة التي أنا فيها، ولَمَّا شاهد الربان مسدسي لاحت عليهم كُلُّهم لوائح الحيرة والذهول، وقال لي:

- إنَّ عشرين جنيتها لا تكفي فيجب أن نأخذ نصيبنا من هذا الصندوق.

ثُمَّ انحنى أحدهم وهمَّ بحمله، فقلت له:

- أعدّه إلي مكانه وإلاَّ أطلقت عليك المسدس.





فلم ينتبه إلي كلامي، فصوبت إليه إذ ذاك المسدس وأطلقت عليه فمرت الرصاصة بجانب أذنه ووقعت علي مرآة في الجدار فكسرتها، فوضع الصندوق علي الأرض، واستل سكيناً وهمّ بضربي فمسكه رفيقه، وقال له:

- مهلاً ولا تتعجل في قتله بل نمهله لحظة أخرى. حتى إذا سلّم الحلي عفونا عنه وأنزلناه علي شواطئ بلجيكا.

ففظرت إلي ذاك الرّجل، وقلت له:

- لا بدّ لي الآن من إفادتكم بحقيقة الأمر فليس في هذا الصندوق شيء من الحلي علي الإطلاق بل إن المادة التي فيه هي ديناميت إذا انفجر ذرکم رماداً في نواحي الفضاء.

ولما سمعوا كلمة الديناميت علت وجوههم صفرة الوجل، وقالوا بصوتٍ واحدٍ:

- أهذا ديناميت ؟

فأجبتهم بصوتٍ جهوري والغضب قد تبدّي في عينيّ:

- نعم .. نعم .. واسمعوا ما أقول لكم فلسْتُ بسارق كما تتوهمون، ولستُ ب لصٍ أو سالبٍ ولكن لي مهمة يترتب عليّ قضاءها ووصولي إلي ساحل بلجيكا قبل شروق الشمس فإن تأخرتم عن ذلك ذهب تعبكم سدي ولم تبق فائدة من ذهابي إلي الموضع المُشار إليه، وإني رجل سئمت الحياة ومللت البقاء فوالله إذا رأيتم ماطلة أو لؤماً ونفاقاً وخداعاً كما بدا الآن منكم لأديرن زنبرك هذه الساعة وأنسفكم أعضاء منتثرة في فضاء البحر مأكلاً للأسماك وطيور الهواء.

وكانت لوائح الشراسة علي وجهي وشر الغضب يقدح من عينيّ، ثمّ دنوت من الصندوق فأخرجته وأريتهم ما فيه، فظهرت عليهم لوائح الكآبة والخضوع، فعادوا إلي موضعهم دون أن ينيسوا بكلمةٍ، ولَمّا علم عُمال القارب بوجود الديناميت أخذوا يعجلون بالمسير تخلّصاً من هذه الحالة الخطرة التي أصبحوا ومركبهم عليها، ولم



يزنغ الصباح إلّا وقد وجدت نفسي علي الساحل، فأنزلوني في قاربٍ إلي البر، ومن هناك حيث توجهت إلي البلدة المُشار إليها، حيث وجدت عربة سائرة نحو عاصمة البلجيكية فنزلت فيها حتى بلغت ”بروكسل“ فنزلت منها في نزل أوروبا.

وبينما كنت جالساً الظهر علي مائدة الطعام، وإذا بسيدة طويلة القد، مليحة القوام، رشيقة الحركة جميلة الملابس، تبلغ نحو الثلاثين من العُمُر دخلت وجلست بجواري وحدّقت بعينها السوداويين الراقطين فيّ هنيهة كمن يتفرّس في الآخر تفرّساً شديداً يشف عن سؤال، ولم يكن سوي لحظة من الزمن حتى ذهلت كلّ الذهول عندما أبدت السيدة المُشار إليها الإشارة النهلستية فردّدت الإشارة إليها وأومات إليها أن تكون مطمئنة، ثم أخذنا نتحدث حديثاً عادياً، ولمّا وقفنا للانصراف من قاعة الطعام دنت مني السيدة وقالت لي باللغة الروسية:

- غرفتي رقم 52 فاحضر إليّ بعد نصف ساعة.

فحضرت إليها في الموعد المُشار إليه دون أن يشعر بي أحد، ولمّا دخلت غرفتها أخرجت من طيات ثوبها مقابل الصدر أوراقاً رسمية مختومة بخاتم رئيس اللجنة في ”بترسبرج“ ينبى بتعيينها رسولاً لاستلام الصندوق، فلم أبطئ أن ذهبت إلي غرفتي وأحضرتة علي عجلٍ دون أن يراني بشر، ففتحت صندوق ثيابها ووضعته في ناحيةٍ خاصّةٍ صنعت لهذا الغرض، ثمّ جلسنا نتجاذب أطراف الحديث فأخبرتني أنّ اللجنة في ”بترسبرج“ قرّرت استخدام الآلة لتنفجر في قصر الشتاء في الليلة التي عينت لاجتماع الأمراء والأعيان فيه، وقد أخبرتني أنّها حضرت من ”بروكسل“ منذ نحو خمسة أيام وأنه لابدّ من رجوعها صباح الغد الثّالي لكي تصل إلي ”بترسبرج“ قبل الأجل المتفق عليه لإتمام المكيدة، فقلت لها إنّ اللجنة العاملة في ”بترسبرج“ تهديها تحيتها وتتمني لها النجاح في أعمالها فشكرتني، وقالت:

- وقفت نفسي علي خدمة وطني.





ثم ودعتها وانصرفت من حضرتها.

وفي صباح اليوم التالي سألت عن السيِّدة فقيل لي أنَّها سافرت، ولمَّا سألتهم عن موضع توجهها أجابوا أنَّها قالت لهم بأنَّها ذاهبة إلي إنجلترا. وبعد أن تناولت فطور الصباح عدت إلي غرفتي وإذا برجلٍ قد دخل عليّ، فلمَّا تأمَّلت فيه دُهِشت دهشةً شديدةً، لأنَّ الرَّجل المذكور لم يكن إلَّا المسيو "غويبو"، فحياني تحية الوداد، وقال لي:

- ظننتك نائماً حتى الآن فرمت زيارتك باكراً.. ولكن ما أتى بك إلي هنا، وما أخال الأمر إلَّا دخيلة عشق وغرام.

فقلت له:

- إنما حضرت إلي هنا لأشاهد اثنين من رفاقي في الدراسة، لأنِّي كنتُ في زمرة طلبة العلم هنا.
فأجاب:

- حسناً.. وأظنك أخبرتني عن ذلك قبلاً. ولكن هيا بنا بعد قليل ننزل إلي غرفة الطعام ونصرف النَّهار سوياً.

فأجبتني إلي ذلك ونزلت قبله، ولمَّا عُدت إلي غرفتي وجدت صندوق ثيابي مفتوحاً، وأشياءٍ مبعثرة علي الأرض، فعلمت أنَّ ذلك من فعل صديقي الجاسوس، ولكنَّه لم يكتشف شيئاً علي الإطلاق.

.. وبعد بضعة أيام بينما كنت أجال في المدينة وإذا بحملة الصحف ينادون:

- ملحق خاص للصحيفة .. محاولة قتل القيصر.

فاشتريت عدداً، وإذا فيه تفصيل ذلك الانفجار الهائل، فإنَّ القاعة الكبيرة للقصر مع ما يجاورها من البناء تداعت للسقوط والخراب، وأنَّ عدداً غفيراً من



القوم جرح، ولكنه لم يقض علي أحد.. وعليه تكلفت جميع أعمالنا بالنجاح لأن الغرض من هذه المكيدة إنما كان إرهاب الحكومة لكي تعلم أنها مع شدة حرصها وجواسيسها وبوليسها لا تأمن مغبة أعمالها، وأن يدّ النعمة تبلغ إليها ولو وضعت من جيوشها وسيوفها حولها حصناً منيعاً.

.. وفي اليوم الذي بلغت فيه " لندرا " طالعت عدداً من صحف المساء، وإذا فيه تفصيل مقتل غريب تحت عنوان: " لغز من ألغاز القتل في باريس ". وفيه بيان اكتشاف جثة رجل في نهر السين لم يعلم أولاً مَنْ هو، ولكن عُرف أخيراً أنّه " باتروفسكي " وهو الرجل الذي أفشي أمر الساعة الديناميتية إلى جواسيس الحكومة الروسية وسفارتها.





الفصل السابع

الحب حتي الموت !!

Love to death



وقفت ذات ليلة ساعات طويلة علي باب الأوبرا وأنا أعرض علي المارة والداخلين أعداد الصحف الكثيرة التي كانت تحت إبطي للبيع، فبعد أن بح صوتي من كثرة الصراخ لم أبع أكثر من خمسة أعداد، وكان حملة الصحف ينظرون إليّ شزراً لمزاحمة رجل جديد لهم في مهنتهم، وهم لم يعلموا أنني توسلت بهذا التنكّر لتجسس أمر ذي شأن، وبيان الأمر أنّ قادمًا جديدًا من "بطرسبرج" يُسمّى "فورونوف" حضر إليّ "لندرا" مدعيًا أنّه تاجر من موسكو، ولكن البلاغات الرسمية التي وردتنا بشأنه من إدارة أعمالنا في "بطرسبرج" جعلتنا في ريبه من أمره، وأنّ له علاقة بجواسيس الروس في عاصمة الإنجليز، فإنّه بعد انفجار السّاعة التي مرّ بيانها ونسف قصر الشتاء الإمبراطوري، وجد القيصر أنّ "غويو" رئيس الجواسيس الفرنسي مقصر في أداء واجباته، فأمر بعزله ولذلك ظننا أنّ هذا الضيف الجديد قد عُيّن مكانه رئيساً لجواسيس الروس في "لندرا"، وقد تبَيّن لي من مراقبته والتنقيب الذي أجرите بهذا الصدد أنّ الرّجل حضر لمهمة سرية سياسية.



ولقد أخذت في تقصي أمره ومراقبته منذ اليوم الذي بلغنا فيه خبر حضوره من "بطرسبرج" فتكرت بزي بائع صحف وأخذت أتتبع خطواته حتي أصبحت أتبع له من ظله، وعليه فقد حضرت هذه الليلة أيضاً لمتابعة أعمالي وأنا مُعرّض للبرد حيث تتساقط علي الأمطار فتبل ثيابي، وبينما كنت واقفاً علي انفراد علي مثل هذه الحالة الكئيبة وإذا بسيّدة قد خرجت من الأوبرا عليها وشاح كبير، وهي ذات قامة هيفاء، ومقلتين سوداوين يشق لسهامها القلوب قبل الصدور، وشعرها مُجعّد كثيف، وما بلغت باب مدخل الأوبرا حتي أسرع إليها جمع من الخدم يسألونها إذا كانت تُحبّ أن يحضروا لها عربة فالتفتت تُحدّق بهم دون أن تجيب شيئاً، وبعد أن لبثت برهة تنظر إلي ما حولها تفرّست بي أنا لحظة من الزمن، ثُمَّ سارت إليّ فلمّا صارت علي مقربة مني أخذت أصرخ مُعدّداً أسماء الصحف التي بيدي، فالتفتت إليّ وقالت بالروسية:

- أعطني أية صحيفة شدّت يا "غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير".

فعلت وجهي صفرة الوجل، وارتجفت أعضائي من شدة الجزع حتي اصطكت ركبتي، فلمّا رأت مني ذلك تبسّمت ودنت إليّ ثُمَّ همست في أذني اللفظة النهلسية المُتعارفة بيننا في سائر أقطار الأرض، فزدت اندهاشاً علي اندهاش وكدت أسقط إلي الأرض من شدة الدهول، فنظرت إليّ بعبوس، وقالت:

- أعطني جريدة.

فأعطيتها عدداً، فأخرجت من جيبيها بنساً ثمن العدد ووضعت في يديّ مع ورقة صغيرة ملفوفة، وقالت:

- هذه من اللجنة العاملة.

ثُمَّ ركبت عربة كانت واقفة بجانبها وسارت لا تلوي علي شيء، فمشيت إلي





نقطة لا رقيب فيها ووقفت تحت نور أحد مصابيح الشارع ففتحت الورقة وإذا بها ما يأتي :

(إنَّ الشخص الذي يسلمك هذه التذكرة إنما هو ” صوفيا زاغاروفنا .. فتكرّم بزيارتها السّاعة العاشرة صباح غد في منزلها عدد رقم 34 رتشمند وقَدِّم لها سائر ما تطلبه. «بول بترووف»).

ولم أت علي تمتمة هذه الأسطر الوجيزة حتي تهلّل وجهي بشراً وسروراً لأنَّ اسم «صوفيا زاغاروفنا» طار في سائر الآفاق حتي أصبح أشهر من نارٍ علي علم، فإنَّها سيّدة اشتهرت بجرأة إقدامها، وتوقد ذهنها، وجدة خاطرها، وثبات وجدانها، وهي التي أتت من الأعمال الغريبة ما تدهش له العقول، ويكفي أن أورد من ذلك مثلاً واحداً، وهو أنَّ الجنرال « ياغودكن » رئيس بوليس موسكو ضايق كثيرين من سكان تلك المدينة بعد محاولة نسف القصر الشتوي بالسّاعة الديناميتية علي ما مرّ بيانه، وكنل بالأبرياء تنكيلاً شديداً حتي أثار حنق السيّدة المُشار إليها، وكانت إذ ذاك قاطنة في « زيورخ » حيث كانت سيّدة وأميرة بين طلاب العلم والأدب، فلمّا حضر الجنرال المُشار إليه إلي « زيورخ » أغوته وسلبت عقله حتي إذا ما خلت به أطلقت عيه مسدسها وأماتته قتلاً، ولم تكتمف بذلك بل حملت سائر المهاجرين الروسيين من طلبة العلم هناك وغيرهم من طلبة العلم الألمانيين علي الذهاب إلي روسيا والقيام بإجراءاتٍ مدهشةٍ لا يزال يرن صداها في سائر الأقطار الأوروبيّة، وذلك بناءً علي ما كانت عليه من الجمال الرائع، والصيت الذائع، والسطوة علي عقول ذوي الأدب، ولكن كانت في كُلّ ذلك بالغة أقصى الأدب والصون والعفاف حتي أن أسمها وشرفها لم يمسهما سوء، ولكن الغيرة التي كانت تشتعل في قلبها للقيام بخدمة الجمعية التي خصّصت نفسها لها لم تبق موضعاً لسواها من العواطف والعشق والغرام، ولم يُعرف شيء أكيد عن تاريخ هذه السيّدة سوي أنها أقسمت



للجماعة يمين الإخلاص في «بطرسبرج»، ثُمَّ حضرت بعد ذلك إلي «سويسرا» حيث أظهرت من العزم والإقدام ما حَيَّرَ الرِّجال.

فبعد أن راقبت الرِّجل الذي حضرت لأجله إلي باب الأوبرا وتبعته إلي المنزل الذي كان فيه توجهت في اليَّوم التَّالي، في الوقت المعين إلي منزل السَّيِّدة «صوفيا» في «رتشمند» فوجدته منزلاً أنيقاً فسيح الأرجاء يطل علي نهر التايمز وما يجاوره من المناظر البديعة والحدائق الجميلة، وما لبثت في المنزل سوي بضعة دقائق حتي دخلت إلي «صوفيا زاغاروفنا» وسلمت علي بوجه ملؤه البشاشة والبشر، ولمَّا سألتها أية خدمة أتمكَّن من القيام بها لها كان جوابها ما يأتي:

- إني قدمت لإنجلترا لغرضٍ سري يختص بجمعيتنا ولقد أثَّرت عليك اللجنة العاملة في "لندرا" ثناءً جميلاً، وقالت إنَّكَ قادر أن تكون لي سنداً قوياً في الغرض الذي أتيت لأجله إلي هنا، ولا قدرة لي أن أبوح لك به الآن لا لأنِّي لا ائتمنك بل لأنَّ للجدران آذاناً فهل أنت راغب في مساعدتي ؟

- إذا كان في سبيل الجمعية فأنِّي أكون لك عوناً علي ذلك.

- إذا أصغ إلي ما أقول لك.. غداً سيتغيَّر اسمي فأصير "صوفيا نبتكوف" ابنة الجنرال "نبتكوف" الذي توفي حديثاً بعد أن كان حاكماً علي "سمولينسك" وأنت ستكون أخي "إيفان"، وغداً يجب علينا نحن كلينا أن نرحل عن المنازل التي نحن فيها الآن وننزل في نزل عظيم في حي الأشراف من المدينة حيث يجب أن يعرفنا كُلُّ مَنْ يتعرَّف بنا أنَّا أخ وأخت.

فأجبتها بالإيجاب، وعليَّ علامات الدهول، فلحظت ذلك، وقالت:

- إنَّ كلامي هذا يُحيرك ولكن سوف تري.. أيعرفك أحد من السفارة الروسية

هنا ؟





.. فقلت:

.. لا.

.. فأجابت وهي تبسم:

- دعني أدبر الأمر علي ما أروم وستري أننا سنكلل بالنجاح.

ثُمَّ دعتني لتناول وجبة الإفطار معها فلبثت هناك نحو ساعتين ونحن نتجاذب أطراف الحديث، ونتاجش في أمورٍ مُتعدِّدةٍ بخصوص جمعيتنا، ثُمَّ استأذنتها بعد ذلك وانصرفت.

ولم يَمَرَّ شهران من الزمن حتي دُعيت وشقيقتي الجديدة إلي ليلة راقصةٍ في السفارة الروسية فإن "صوفيا" تمكَّنت من الحصول علي دعوتين لي ولها بطريقةٍ سرِّيةٍ لم تبد لي حقيقة أمرها، ولمَّا وصلنا إلي قاعة السفارة الفسيحة كانت قد حلت السَّاعة العاشرة مساء فوجدنا السفارة غاصة بالمدعوين من الأمراء والكبراء والسَّيِّدات يتهادين بين الزهور والأنوار، جميلات وحسنات، ولكن شقيقتي "صوفيا" كانت أرشقهن قدًّا وأفتنهن جمالاً.

وبعد هنيهة دار الرقص علي أنغام الموسيقى الشجية، فكان الراقصون يدورون أزواجاً يتدفق البشر من أوجههم، ثُمَّ حانت مني التفاتة فوجدت "صوفيا" تتراقص مع شاب متوسط القامة، براق المقلتين وهي تنظر إليَّ باسمة، والجمال يتألق في وجهها تألق النور.

ولقد كنت أنا نفسي بين الراقصين فلبثنا علي ذلك زمناً طويلاً حتي أعياني التَّعب فسدَّدت خطواتي إلي غرفة الاستراحة حيث مدت موائد الطعام والحلوى أشكالاَ وألواناً فجلست علي مقعدٍ وأنا أقول في نفسي: "ما عسي تكون المهمة التي حضرت لأجلها "صوفيا" وهي تكتمها أشدَّ الكتمان؟". وبعد لحظات دخلت "صوفيا" أيضاً وجلست إلي جانبي. ثُمَّ أفادتني أنَّها مشغولة في هذه اللَّيلة بتمثيل رواية غريبة



الفصول، ثُمَّ سمعت صوتاً يكلمها من ورائي، فنهضت تكلمه، فبقيت متربصاً في موضوعي أسمع حديثهما، فإذا “صوفياً” تقول لمحدثها:
- ألا تخاف إذا هؤلاء النهلست القتلة ؟
.. فأجابها باسماء :

- أأخشى بأس مثل هؤلاء و “سيبيريا” رحيبة تسع ألوفاً من أمثالهم، فإنه لا يمر علينا قليل من الزمن حتي نرغم أنوفهم، ونطفئ جذوة ثورتهم، ونسحق ذراع قوتهم، ولقد بعثت حتي الآن مئات من هؤلاء إلي “سيبيريا” يجرون قيود الذل ويحملون في أعناقهم سلاسل الخذلان، وهذا هو السبب الذي لأجله يودون الفتك بي.
- ولكن ألا تخشي انتقامهم ؟

- لا فإن هؤلاء الأندال لا يجسرون علي إلحاق الأذى بي.
- أتجهل أو تتجاهل أن لرسلمهم وعُمالهم من الجرأة والإقدام ما ليس لغيرهم، وإني لأخشى أنهم يفتكون بك.

- إنَّ يدهم لأقصر من ذلك، ولكن ما لنا ولموضوع النهلست هذه الليلة فإن كؤوس المسرة طافحة بين أيدينا، والسَّعادة ترفرف فوقنا بأجنحتها، وحببتي أجمل الجميلات واقفة بجانبتي.

- أشكرك علي إطرائك إياي شكراً جزيلاً، ولكن موضوع النهلست من المواضيع التي أتلطف إلي استماعها. ألم تكتشف شيئاً من مكائدهم ودسائسهم ؟

- نعم.. فإنني قد اكتشفت شيئاً كثيراً من ذلك وقد أصدرت قبل حضوري إلي هنا الأوامر اللازمة لمراقبة كُل خطوة من خطواتهم، ولما كان لابد من المحافظة علي حياة القيصر فإنني عائد إلي هناك بعد نحو أسبوعين حيث أرسل هؤلاء القوام إلي أقصى “سيبيريا”، ولكن مثلك يا حببتي لا يوافقها الخوض في مثل هذه المواضيع





التي تقشعر لها أبدان الرجال، فتكلمي عن الحب والجمال والزهور والنور وكل ما هو جميل لأنك أبدع مظاهر الجمال.

ثم أخذ يبوح لها بوجده وغرامه، وكيف أنه قد وقف قلبه علي حُبِّها، ويرجوها أن تعطف عليه وترق له، إلي أن باحت له أخيراً بهيامها به، فأخذ يدها وقبَّلها، ثم استندت علي ذراعه وخرجا من الغرفة، فتبعتهما وتأملت في الرجل فإذا هو شاب يناهز الخامسة والثلاثين من العمر، وقد تجلَّت علي وجهه لوائح البشر والمسرة، ولما سألت عنه بعض الحضور قيل لي إنه الجنرال "متشكوف" جاء حديثاً من روسيا ترويحاً للنفس، وكان ما سمعت من حديثه مع "صوفيا" بياناً كافياً أنه من جملة عُمال الحكومة، ولكن لم يخطر وقتئذ في بالي قط أن الرجل إنما هو رئيس بوليس موسكو وأنه توجه إلي "لندرا" للوقوف علي حقائق تهمه في مكيده كان قد كشف أمرها قبل سفره من هناك، ولم ننصرف من القاعة إلا نحو إقبال الصباح، ولما كنت جالساً في العربة بجانب "صوفيا" قلت لها إن الرجل الذي كنت تحدثينه حسن الخلق و الأخلاق، وقد قصدت بذلك استجلاء الأمر لعلها تأتي علي شيء من البيان، فاكثفت بقولها إنه من أطف الشبان، ثم دخلت في موضوع آخر تخلصاً من متابعة الحديث الأول.

وبعد بضعة أيام حضر إلي زيارتنا "متشكوف" فعرفتني به "صوفيا" قائلة له إنِّي أخوها، ومنذ ذلك اليوم تمكَّنت بيننا عري المودة والولاء، فكنا نذهب سوياً إلي مواضع النزهة، وقاعات الغناء، وقد تبد لي أثناء هذه البرهة أن "صوفيا" زادت به هياماً ووجداً وأن حُبَّه لها كاد يبلغ درجة العبادة، فكان علي الدوام يبعث لها من هدايا: الزهور والحلي الثمينة والجواهر النادرة، وغيرها الكثير، وأنا أسأل نفسي: "بعد كل هذا ما عسي أن تكون المهمة السرية التي قدِّمت لأجلها "صوفيا" إلي عاصمة الإنجليز؟".

وبينما كنت عائداً ذات يوم إلي المنزل دخلت قاعة الجلوس علي حين فجأة



فوجدت "صوفيا" تتأمل ملياً في شيءٍ تحمله بيدها، فمشيت نحوها خلسةً وتطلّعت وراء ظهرها فوجدتها تنظر إليّ قطعة من الحليّ علي شكل دبوس لشعر الرأس بهيئة خنجر صغير نصله من الفولاذ الصّرف ومقبضه من الذهب الخالص مرصع بالألماس والحجارة الثمينة، فأحببت مداعبتها فدنوت منها علي عجلٍ واختطففت الحلية من يدها فارتعدت، ثُمَّ نظرت إليّ قائلة:

- أهذا أنت يا "غورتشاكوف" ؟ لقد أخفتني !

.. فنظرتُ إليّ الدبوس، وقلت:

- ما أجمله فمن أين لك هذا ؟

.. قالت:

- هو يخصني.

.. فأخذته وهجمت به عليها مصوباً رأسه نحوها، وذلك علي سبيل المزاح، فاضطرب جسدها وتراجعت إليّ الوراء وهي مرتعدة الفرائض، ثُمَّ هممت بعد ذلك بتجربته علي طرف الأنامل، فلمّا رأت ذلك ارتاعت، وقالت بلهفة:

- ماذا تفعل يا "غورتشاكوف" ؟ فإنّك إذا خدشت أصبعك قتلت نفسك !

.. ثُمَّ دنت مني وانتشلت الآلة من بين أصابعي، ثُمَّ أفادتني أنّ رأس النصل مُسمّم، ولمّا دنوت به إليّ جانب النور وجدت أنّ رأسه حتي نصف النصل قاتم اللون، فأخبرتني "صوفيا" أنّ خدشاً منه كاف لإماتة رجل.

- لماذا تحملين مثل هذه الآلة التي هي سُم زعاف ؟

.. فأجابت:

- ألم تعلم حتي الآن ما الغرض منها ؟

ثُمَّ أخرجت من جيبتها كتاباً باللّغة الروسيّة، وجلست بعد ذلك علي كرسي وقد





غطت عينيها بيديها ولجت في البكاء، فتأملت الكتاب فإذا به من رئيس لجنة موسكو يُفيد فيه عن وصول التقارير الكافية بخصوص الجنرال "متشكنوف" وإن ذنبه قد ظهر لدي الجمعية ظهور الشمس، ثم في ذيله صورة حكم اللجنة عليه بالإعدام وإناطة تنفيذ هذا الحكم بـ "صوفيا زاغاروفنا"، فنظرت إليها، وقلت:

- أتجيبينه يا صوفيا؟

- إنني قدمت أولاً إلي هنا لأقف علي حركات الرجل وما ينوي فعله بعد عودته إلي روسيا فخنث الرجل وكتبت بخصوصه التقارير الوافية إلي لجنة موسكو وأنت تري أنها حكمت عليه بالإعدام، ولقد دب حُبّه إلي قلبي، ثم حاولت كثيراً طرد هذه العواطف دون أدني جدوى فيجب عليّ أن أنقذه الآن من الشرك الذي أوقعته فيه بنفسي، ولكن كيف ذلك لأنني إذا حذرته فأكون قد خنت اللجنة التي أوكلتني الأمر وأوقعتها في محالب العطب والفشل وجلبتُ علي نفسي حنقها وانتقامها.

ثمّ وقفت تمشي في الغرفة جيئةً وذهاباً وأنا أنظر إليها دون أن أفوه بكلمة، أو أبدي رأياً، وبينما نحن كذلك وإذا بالخدام قد دخل وبيده ورقة الزيارة فتأملتُها صوفيا، وقالت:

- هو الجنرال "متشكنوف" دعه يدخل.

..ثمّ وضعت الآلة في غمدها الحريري، وأعادت الكتاب وحكم الإعدام إلي صدرها، وإذا بالجنرال "متشكنوف" قد دخل، فتقدّمت إليه "صوفيا" بوجه باسم وثغر وضاح تُصافحه باليد التي قضى عليها أن تذيبه بها كأس الموت، ثمّ سلم عليّ وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث أمام موقد النار، فبعد أن تكلمنا قليلاً، قال "متشكنوف":

- إن هذه آخر زيارتي لكم.

فقال له "صوفيا":



- أمسافر من هنا ؟

- نعم يا عزيزتي إنِّي مسافر غداً في الصباح فلديَّ أشغالاً ضرورية لا بدَّ من قضائها، وقد أتيت إليك لوداعكِ.

- إنَّك متعجل في سفرك.. ولكن متى تعود ؟

- لا أظنني عائداً إلي هنا البتة، وقد كان الغرض من حضوري إلي "لندرا" الوقوف علي أسرار امرأة اسمها الأوَّل يشابه اسمكِ.

- ما غرضك منها ؟

- الغرض إلقاء القبض عليها وأن أطلب من الحكومة الإنجليزية إرجاعها إلي روسيا؛ لأنَّها هي التي قتلت سلفي الجنرال "ياغودكن"، وهي من أشدَّ أعضاء النهلست جرأة وإقداماً، فقد كانت وحدها الباعث علي شيء كثير من الدسائس والحبائل فإذا وفقت إلي العثور عليها فجزاؤها المشنقة.

فارتعدت "صوفيا" عند سماع هذا الكلام، قائلةً له:

- لا تتكلم بمثل ذلك يا "متشكوف"، ولكنِّي أشعر الآن ببرِدٍ خفيفٍ فلا بدَّ لي أن أضع وشاحاً عليّ.

ثمَّ نهضت وقد علت وجهها صفرة الوجل، فلبثتُ أنا و"متشكوف" نتجاذب أطراف الحديث ونشرب شيئاً من الخمر.

وبقينا كذلك ننظر عودة "صوفيا" نحو ساعة من الزمن، فلمَّا حضرت ودعنا الجنرال "متشكوف" وتمنينا له سفرأً محفوظاً باليمن والإقبال.

وبعد بضعة أسابيع صمَّمت "صوفيا" علي السفر إلي موسكو وألحت عليَّ بوجوب مرافقتها إلي هناك حتي لا يكون في سفرها باعث علي الشبهة أمام اللجنة، والظاهر أنَّها صمَّمت علي تحذير عشيقها من الخطر المحدق به مهما كلَّفها ذلك من





المخاطر والمشاق، فأخذنا جوازين باسمين منتحلين ووصلنا إلي موسكو حيث نزلنا في أحد نزلها الكبيرة، ثُمَّ أخذنا نسير إلي محلات الزهة والملاهي لعُنا نلتقي بـ“متشنكوف” منفرداً لأننا خشينا الذهاب لزيارته في إدارة البوليس خوفاً من العيون وأرصاد اللجنة، لأنَّ الغرض الذي انتحلته في ذهابها إنما هو إتمام المهمة التي أتت لأجلها إلي “لندرا” فتمكنا بوسائل سرية لا يعرفها أحد سوانا من التعرّف بعظام الرجال وأمرء المدينة، فدعينا ذات يوم لتناول العشاء في دار أحد الوجهاء، فذهبنا بعد أن علمنا أنَّ “متشنكوف” بين جمهور المدعوين.

فلمّا التقينا به قبل الجلوس علي المائدة ذُهل جدّاً وبدا فرحاً، فسلم علينا ووجهه يتدفق بشراً وسروراً، وجلس علي المائدة إلي جانبنا وكانت “صوفيا” في أوج الصفاء والجدل وجمالها الفتان يسبي العقول، وبينما كنت أقرب حركاتها وأتأمل في جمالها راعني منها أمر واحد وهو أنّي رأيت في شعر رأسها ذلك الخنجر القاتل يتألق فيه الألماس تألق الشمس، فأخبرت “متشنكوف” أنَّ الغرض من قدومنا إلي المدينة إنما كان لإنهاء أمور مالية تتعلق بثروة أبنينا.

ولمّا قام المدعوون عن الطعام، وانصرفوا إلي غرفة الجلوس شاهدتها عن بُعد في حديث مع “متشنكوف”، والحديث ذو شجون، ثُمَّ ما لبثنا أن دخلنا غرفة خالية منفردة لا أحد فيها، فتبعتهما لأنّي ظننت من حديثها وإشارتها أنّ الوقت قد حان لها أن تحذره عواقب الأمر والاعتقال الذي تتوقعه له، فسمعتة يقول لها، وهو جالس علي زاوية الطاولة ووجهه باسم:

- يا عزيزتي ما هو السرّ العظيم الذي تودين الإباحة لي به ؟
- اخفض صوتك لأنّه قد يسمع حديثنا أحد وذلك يفضي بكليتنا إلي التهلكة.
- ما هو مرادك من كلّ هذا ؟ ما هو هذا اللغز العجيب ؟
- أقول لك أنّه قضي عليك بالإعدام.



- أفضي عليّ بالإعدام ! ومن يتجاسر علي مثل ذلك ؟
- قضى بذلك عليك النهلست الذين يتجاسرون علي كُل شيء وقد قرّارهم أن
تموت كما مات سلفك الجنرال "ياغودكن".

فاصفرت سحنة "متشنكوف" من الجزع، وارتجف صوته، وهو يحدثها قائلاً:

- ولكن قلّ لي كيف تعلمين شيئاً من ذلك ؟

- أخفض صوتك يا "متشنكوف" .. أخفض صوتك فإن الجدران في روسيا آذاناً
تسمع وأصغ إليّ ما أقول لك .. إنّي أُحِبُّك، بل أنت هو الرّجل الوحيد بين سائر
الرّجال الذين التقيت بهم الذي تمكّن حُبّه من قلبي فقد كنت قبل ذلك مُحاطة
بأشرافٍ وأمراءٍ يحسبون ابتسامي نعيماً لهم وحُبّي سعادة، ولكن قبل أن التقيت بك
لم أعرف ما هو الحُبّ وإنّي لسْتُ بناسية ولاءك وإخلاصك لي حتي أنّك طلبت
مني في "لندرا" أن أكون زوجة لك، غير أنّه لا يتاح لي أن أكون لك، غير ما أنا عليه
في الوقت الحاضر صديقة ودودة طول العُمُر.

.. ثُمَّ استولت عليها الأحزان فخنق صوتها بالبكاء.

.. فأخذ رأسها وضمه إلي صدره قائلاً:

- ولكن لماذا لا تقدرين أن تكوني زوجتي ؟ من يقف في طريقكِ ؟

.. فانتفضت، ثُمَّ تملصت منه وعادت إلي حديثها معه قائلةً:

- أصغ إليّ مرّة أخرى يا "متشنكوف" فإنّي لم أتجشّم مشاق السفر إلي موسكو
إلاّ لكي أحذرَك من أعدائك وأنقذك من مخالب الموت التي أوشكت أن تنشب
أظافرها في شبابك، وسأعود هذه اللّيلة ولن تري وجهي بعد هذا أبداً، ولقد خاطرت
في مجيئي إليك بحياتي لأنّ النهلست يفترسونني كالوحوش الضارية إذا علموا إنّي
أحذرَك من الانتقام الذي يعدونه لك بتجريّعك كأس الموت من يد أحد أعضائهم.





- وما هي هذه اليد التي تُجرعني الموت ؟

- هي ذات اليد التي جرّعت الجنرال "ياغودكن" ذلك الكأس وصرعته قتيلاً عند أقدامها، أعني بها يد تلك المرأة التي هي "صوفيا زغاروفنا" !

- ولكن كيف تأتي لك الوقوف علي ذلك ؟

- أضرع إليك مرةً ثالثة أن تخفض صوتك ولا تتكلم إلا همساً لأنّه إذا عرف النهلست أمري مزقوني وقطعوني إرباً، وإذا علم البوليس السري أن أقدامى وطئت الأرض الروسية ألّقوا القبض عليّ في مثل غمض الجفن.

- مَنْ أَنْتِ إِذَا ؟

- أسألني بعد كلّ هذا مَنْ أَنَا يا "متشكوف" ؟ ألا تعرفني ؟

فقلتُ في نفسي لابدّ لي من إيقاف اللجنة العاملة في موسكو علي حقيقة الأمر، وإلا كنتُ خائناً للجمعية التي أقسمت الإيمان المغلظة أن أخلص لها الخدمة والولاء، ولكن لم يكد يحول هذا الخاطر في نفسي حتي سمعت ورائي وقع أقدام، فالتفت وإذا بزمرة من رجال البوليس قد مروا بجانبني وهم بأثوابهم الرسمية، وواحد منهم يقول :

- ها هي ! فإنّي عرفتها !

.. فقطب "متشكوف" حاجبيه، وعبس بوجه القوم قائلاً :

- ما هذا التطاول ؟

.. فوقف الرجال ذهولاً عند الباب، وأدوا لرئيسهم التحية العسكرية، ثمّ تقدّم

رجل من بينهم يرتدي ثياباً عادية، فمسك بذراع "صوفيا"، قائلاً :

- يا "صوفيا زغاروفنا" إنّي ألقى القبض عليك بأمر جلالة مولاي القيصر

لارتكابك جريمة القتل.



فصاح "متشكوف" بهم قائلاً:

- أتقولون إنها "صوفيا زاغارفنا" لقد ساء والله فألكم.

.. أمّا "صوفيا" فوقفت صامته وقد علا وجهها اصفرار الوجل، والتفتت إلى

الرّجل الذي ألقى القبض عليها، قائلةً:

- أهذا أنت يا "تسلنسكي" ؟ أهذا أنت نفسك يا "تسلنسكي" ؟ أنت هو

الرّجل الذي أنقذته من مخالب الموت كما أنقذت الآن "متشكوف" ؟ أهذا جزاء

إحساني إليك وشفقتي عليك ؟ أتقبض عليّ لأنّي أنقذتك من الإعدام ؟ إنّي أحب

"متشكوف" ولكن حُبّي له انقلب عليّ علقماً.

.. فوقف "متشكوف" مبهوراً كمُنْ انقضت علي رأسه الصواعق، ثُمَّ التفت إليها،

وقال:

- لقد أحببتك ولم أدر أنّي أحبيت قاتلة وسفاكة دماء !!

- أتحترقني لأنّي فديتك بنفسي وأبقيت عليك وأنت في قبضة يدي ؟

.. ثُمَّ التفتت إليّ "تسلنسكي"، وقالت له:

- وأنت يا "تسلنسكي" البوليس السري في "بطرسبرج" أتُنسي إحساني ونعمتي

التي أنعمت بها عليك وأنقذتك من سوء المصير ؟ أتُلقي القبض عليّ لأنّي خلصت

العالم من جور رجل دأبه الإيقاع بأناسٍ أبرياء وفيهم إليّ مناجم "كارا" في أقاصي

"سيبيريا" الرهيبة و ...

ولكن "تسلنسكي" لم يبق لها مجالاً، فقال لها:

- الصّمت أفضل لك من الكلام.

.. ثُمَّ أمر البوليس بالقبض عليها وسوقها إلى الإدارة، ولكن قبل أن تمسها يدهم

بسوء أغمي عليها، ثُمَّ وقعت علي الأرض فدنا منها بعضهم لينهضوها، ولكن لم يكن





إلا كمثل غمض الجفن رأوا اصفرار الموت علي وجهها والدّم ينزف من رأسها، فوضع أحدهم يده علي قلبها، ثُمَّ قال:

- لقد قضي عليها !!

.. فأدركت حينئذ أنَّ الخنجر الذي زينت به شعرها وأعدته لمقتل رئيس البوليس "متشكنكوف" قد غرز في رأسها عند السقوط وأوردها حتفها، ولكن ذلك كان أفضل لها من العذاب الذي كانت تتوقعه لو بقيت حية، فلبثت لحظة أتأمل في تلك الملامح التي قد غيَّرتها يد الموت الرهيبة، ثُمَّ انثنيت مسرعاً من موضعي وما انتصف الليل حتي كنت في طريقي عائداً إلي "لندرا" حيث أتيت.







الفصل الثامن

سر الرجل الأعمى !!

The mystery of the blind man



وقع لي بعد رجوعي أن كنت ذات يوم مازًا في أسواق "لندرا" عائداً من زيارة صديقين من أصدقائنا الفارين من روسيا، فاصطدمت في طريقي علي حين فجأة بـرجلٍ اعترضني في سيرتي، فتأملتُهُ فإذا هو رجل ضئير، رث اللباس، محدودب الظهر، هزيل الجسد فسقط علي الأرض من شدة الاصطدام، ثُمَّ وقف يتلمس الطريق بعصاه وهو يعتذر إليّ بألفاظٍ إنجليزية كُلُّها لحن إلا أن فيها تلك اللكنة التي يتميَّز بها الروسي عن سواه في بلاد الغرب، فنظرت إلي الرجل وقلت له بالروسية:

- من أي بلد أنت يا رجل ؟

فظهرت علي وجهه علامات الجبور وملامح السرور، وقال:

- الحمد لله الذي أراني في الغربية رجلاً من مواطنيَّ فإنّي يا مولاي روسي رمي به سيئ الطالع أن يقع عليه غضب الحكومة الروسية لأسبابٍ سياسيةٍ ففتنتني إلي "سيبيريا" بلاد الظلمات والشقاء، ولكن الله قيض لي مهرباً تمكنت معه من بلوغ هذه الأمصار.



فرّق له قلبي لما قاسيت أنا نفسي من ضروب الذل وأنواع النكال أثناء نفيي إلي تلك الأقطار السحيقة، ورثيت لحالة رثاء من ذاق طعم ذاك العذاب. ولمّا كنت أنا أيضاً روسيّاً فقد تضرّع إليّ أن أصطحبه إلي منزله، وقال إن المكان علي مقربةٍ من حيث كنا واقفين.

فأجبت سؤاله وخصوصاً لأنّي وددت معرفة شيء من أمره، فما سرنا بضع دقائق حتي بلغنا منزله، فعجبت لما كان عليه من النظافة ووسائل الراحة مع أنّه في أقذر أنحاء العاصمة حيث يسكن فقراء القوم، ووجدت فيه من المفروشات ما يقر به الناظر وينشرح له الخاطر، وكان في وسط الغرفة طاولة مستديرة عليها أقداح الشاي وسيّدة رشيقة القوام في ربيع الحياة جالسة علي كرسي مريح تطالع كتاباً، فلمّا دخلنا وقفت ونظرت إليّ بخجلٍ وحياءٍ فبادرها والدها بالكلام، وقال لها:

- يا "أليونورا" لقد أحضرت معي صديقاً من مواطنينا الكرام لم يسعدني الحظ بمعرفة اسمه.

فقلت له:

- اسمي "كوروباتكين".

لأنّي رأيت أنّه من الأمثل إخفاء اسمي الحقيقي إلي أن أكون قد عرفت جلية أمر هذا الرجل، فتقدّمت نحوي الابنة وصافحتني وهي تبسم.

ففاتحته الحديث، وقلت له مازحاً:

- أظن أنّ عيشتك هنا أريح قليلاً من منافي "سيبيريا".

فأجاب باسمّاً:

- نعم.. ومع أنّي كما تراني ضريب أعمي لا سند لي في هذه الحياة فإنّ معي شيئاً أدرا به عني الفقر.





ثُمَّ أفادني أَنَّ اسمه "خورشوف". وتناولنا بعد هذا الشاي فَقَصَّ عليَّ أثناء ذلك أَنَّهُ كان في "بترسبرج" صَقَّالاً⁽¹⁾ للحجارة الكريمة، فسجن ثلاث مَرَّات علي التوالي وَحُكِّمَ عليه بعد ذلك بالأشغال الشاقة المؤبدة في المناجم التي هي وراء "أركوتسك"، فَتَطَوَّعت ابنته لمرافقته إلي منفاه حيث لبث نحو خمس سنوات، وأخيراً رَقَّ له أحد كبار الضباط وخصوصاً عندما شاهد في ابنته من الشجاعة والمروءة، فعاونهُ علي الهرب، فاقتات أثناء هربه بما وصلت إليه يده سواء بالاستعطاء أو السَّرقة وظلَّ علي هذا المنوال ماشياً علي الأقدام حوالي ألف ميل حتي بلغ جبال "أورال"⁽²⁾ الشهيرة، وهناك تمكَّن من ركوب السكة الحديدية بعد أن تحصَّل علي جواز وجهه في جيب رجل ميت علي الطريق، فتمكَّن بهذه الوسيلة من السفر عائداً إلي أوروبا بعد غياب لم يقل عن ست سنوات، ثُمَّ أَنَّهُ بعد رجوعه إلي الوطن أصابته حُمَّى شديدة أفقدته البصر، فرأى عندئذ القدوم إلي إنجلترا خيراً له من البقاء معرضاً لريبة البوليس في روسيا.

ولمَّا أتى علي ختام مقاله تساقطت الدموع من عينيه فكان لكلامه وقع شديد في نفسي وخصوصاً لأنَّ البلايا التي حلَّت بي لم تزل منطبعة علي ذاكرتي، فأثار فيَّ حديثه عواطف الحنو والشفقة، ولأنَّ ابنته أيضاً شاطرته هذه البلايا وقاسمته سائر المحن، أمَّا أنا فلم أخبره أَنِّي كنت في عِداد المنفيين بل اختلقت له تاريخاً لحياتي، وسألته بعد ذلك عن المواضع التي مروا فيها إلي المنفي والكوارث التي انتابتهم، فوجدت أَنَّهُ قد أصابه نصيب وافر ممَّا يُصيب ألوفاً من سيئ الطالع الذين يُحْكَم عليهم بالنفي إلي تلك الأرجاء البعيدة، ثُمَّ وجه بعد كُلِّ هذا خطابه إليَّ، وقال:

(1) صَقَّالاً: الصَّنَّالُ : مَمَّنْ حِرْفَتُهُ الصَّنُّ والتلميع. (المُعَد).

(2) جبال أورال : تصل بين قارة آسيا وقارة أوروبا، وتقع في روسيا وكازاخستان. وهي سلاسل جبلية تمتد

لحوالي 400,2 كم في الجزء الغربي من روسيا. (المُعَد).



- ما حيلتي الآن ؟ فإنّ الدراهم القليلة التي معي ستنفد عمّا قليل فأصبح معدماً.
.. فأجبتّه:

- هل يمكنك الاشتغال بصناعةٍ ما أم أن عجزك يمنحك عن ذلك ؟
.. فرد عليّ:

- إنني أتمكن من إتقان حرفته القديمة وهي صقل الحجارة الكريمة لأنّ اللّمس
أرشد إليّ ذلك من البصر وعليّ الأخصّ لأنّ حاسة اللّمس تكون في العمى أشدّ منها
في المبصرين.

.. فبقيت لحظة وأنا أتفكّر في أمر هذا الرّجل الذي لم نعلم حتي الآن عنه شيئاً،
مع أنّ أسماء سائر أمثاله مدونة في سجلات اللجنة العاملة، ونغدق إحساننا علي
كثيرين منهم، وعليه رأيت أنّ لا فائدة من إعطائه الإشارة النهلستية وخصوصاً لأنّه
أعمى، ولكن الرّجل تضرع إليّ بلجاجةٍ أن أجد له مركزاً يتمكّن به من الاشتغال
بصقل الجواهر، فأخبرته أنّي أعرف رجلاً يهوديّاً عنده معمل كبير، وأنّه قد يتمكّن من
العمل فيه، فشكرني شكراً جزيلاً. ولمّا هممت بالانصراف وضعت في يد الرّجل
بضع جنيهات، فشكرني علي ذلك جزيل الشكر، ولكنّه قال لي أنّه يفضل الاشتغال
بمهنة شريفةٍ علي الاستعطاء من التّاس، فأثّر شعوره وإحساسه الرقيق فيّ، ووعدته
خيراً. ثمّ خابرت في أمره صديقي اليهودي، وهو تاجر شهير اسمه "يانكل" فرضي
باستخدامه أولاً تحت التجربة، ولم يمرّ أسبوع من الزمن حتي كان "خورشوف" بين
عُمال الصقل في محل "يانكل" الشهير.

ثمّ التقيت بالرّجل بعد ذلك مراراً فأظهر لي شدة امتنانه، ومع كلّ هذا فأنّي لم
أذكر له أن لي أدني علاقة بالثوريين الروسيين، أو بلجنتهم العاملة في "لندرا"، إلّا
أنّي عرّفته وابنته بفريقٍ من القوم فكان ذلك سبباً لهما لزيارة البيوت والذهاب
إلي النوادي الاجتماعيّة حيث كان وابنته موضوع حديث القوم وسمهرهم، وكان





الرَّجُل إذا تكلم لا يفتر عن ذكر أهوال المنفي ومظالم الحكام الروسين، فكان القوم يظهرون عطفاً عليه وابنته تخفيفاً لهما من كربو الذل ووصمة الفقر.

وليس ذلك فقط، بل إنَّه كثيراً ما كان يُقدِّم خطباً شائقةً في المحافل ونوادي الأدب يُعَدِّد فيها بلايا النفي، فكانت صحف "لندرا" تنقل هذه الخطب الرنانة وتُعلق عليها. ومع أنَّه كان يقول أنَّه نفي من روسيا لا اعتبره من أصحاب الأفكار السياسية الحرَّة، فلم يكن يعترف أنَّه من جملة القائلين بلزوم الثورة، والأعمال الثورية، ولم يوافق علي أعمال الإرهاب التي كان يقوم بها النهلست، فهذه الأسباب تمنعت عن إفادته إنِّي واحد من هؤلاء القوم، وقَدِّمت تقريراً وافياً بشأنه إلي اللجنة العاملة، فأصدرت أمرها لي بمراقبته لعلَّها تقف علي سرِّ هذا الرَّجُل.

واتفق في مثل هذه الآونة أنَّ اللجنة الثورية العاملة في "لندرا" نفضت عنها غبار الخمول ونشطت هممها من عقالها، واتخذت من الجرأة والإقدام والنشاط ما لم يسبق لها اتخاذه من قبل، فوَزَّعت ملايين من النشرات الثورية أعلنت فيها الخطة التي عزمت علي إتباعها في إجراءاتها الحديثة، وهي الضَّرب علي يدِ العُمال الظالمين، وإنشاء فروع لجمعية الثورة في أنحاء البلاد الروسيَّة، وإرهاب وقتل سائر من يقوم من الحكام بأعمال البغي والجور والاستبداد، وإن الغرض من كُلِّ ذلك إنهاض الهمم الخاملة في طول روسيا وعرضها، وامتداد لهيب الثورة في سائر الأصقاع حتي تعلم الحكومة الروسيَّة أنَّه هناك رجالاً يقابلون الاستبداد بصرامة ونضال، ويفقدون الأمة بدَّهمهم.

وانتشرت هذه المقالات في روسيا حتي بلغت أقاصي "سيبيريا" فحصل علي أثر ذلك هياج عظيم بين أفراد الأمة، وضوءاء بلغت جلبتها عنان السَّماء، وأخذ روح الثورة يمتد إلي قلوب الشَّعب امتداد النَّار إلي الهشيم، فاهتزت جوانب الإمبراطورية كأن تياراً كهربائياً جري إلي أعضائها، وارتاعت الحكومة الروسيَّة لذلك ارتياعاً شديداً، ووقعت هذه التهديدات علي رؤوسهم وقع الصواعق، لا يدرون من



أين تنحدر عليهم، أو متى تصيب منهم مقتلاً، وكانوا يعلمون حق العلم أنَّ اللجنة العاملة إذا قالت.. فعلت، وإذا أُرْهِبَتْ.. نسفت، وإن أُرْجِحت.. فتكت، وأصبحت جواسيس الحكومة في "حيص بيص" ⁽¹⁾ لا يعلمون كيف تمكَّنت اللجنة العاملة من إدخال مثل ملايين هذه النشرات دون أن يتمكَّنوا من الوقوف علي أثر لها في البلاد، أو علي ضبطها عند الحدود، فهاموا علي وجههم في الأزقة والشوارع يقتشون المطابع والمنازل والحوانيت والبنائيات التي علي سطح الأرض والأنفاق والكهوف التي تحتها فلم يظفروا من كُلِّ ذلك بطائل.

وواضح بعد كُلِّ هذا البيان أن طبع مثل هذه المنشورات في روسيا نفسها بعد هذا الحذر الشديد من الحكومة واثبات جواسيسها في كُلِّ مكان أصبح محالاً، فكان لا بُدَّ إذ ذاك من متابعة العمل في "لندرا" نفسها، وعليه أحضرت اللجنة العاملة أحرافاً روسية وصفافاً أحراف من روسيا نفسها، وقامت تتابر علي العمل في حي من أحياء العاصمة، ووكلت إلي اثنين من أعضائها اللذين استحضرتهما من الوطن القيام بجمع الأحراف وطبع الرسائل وذلك سرّاً دون أن يعلم أحد مكان المطبعة، أو العمال، وكان اسم هذين الرّجلين: "أينوفتش"، و"ستنسكي".

وحدث يوماً ما أنني كنتُ في صحبة الرّجل الضرير وابنته، فالتقينا بهذين العاملين وعرّفته بهما، وكانا قد علما شيئاً من أحوال هذا الرّجل ممّا كنت أقصّه عليهما، فذهبنا إجابة لدعوتهما إلي منزلهما وجلسنا في الغرفة الأمامية، أمّا موضع المطبعة فكان في غرفةٍ داخليةٍ، ولم نذكر قط أمام ذلك الرّجل الضرير شيئاً عن العمل الذي كان صديقنا منقطعين إليه.

(1) حيص بيص: أصلها: أنَّ الشاعر أبو الفوارس التميمي، الملقب شهاب الدين، (1098-1179م) قد لُقِّب بـ«حيص بيص» لأنَّه رأى النَّاس يوماً في حركةٍ مزعجةٍ وأمرٍ شديد، فقال: «ما للناس في حيص بيص»، فبقي عليه هذا اللُّقب، ومعنى هاتين الكلمتين الشدة والاختلاط، تقول العرب: وقع النَّاسُ في «حيص بيص»، أي في شدةٍ واختلاطٍ. (المُعد).





ثُمَّ كنت أتردد والرَّجل وابنته من حينٍ إلى آخرٍ إلى موضع هذين الصديقين، فكانت ابنته "أليونورا" تغني لنا أغنية بولونية غرامية، ورخيم صوتهما يقع علي الآذان في هدوء الليل فتتهتز له أوتار القلوب.

وبينما كنا جميعاً ذات ليلة في منزل صديقي المُشار إليهما، وفي عدادنا ذلك الرَّجل الضَّرير جري أمر دُهِشت له غاية الدهشة، وذلك أَنَّهُ بينما كنا علي هذه الحال وردت مذكرة من اللجنة العاملة لصديقي بخصوص شيءٍ يتعلَّق بتلك المنشورات، فدخلنا علي أثر ذلك إلي الغرفة الداخلية ليتشاوروا في أمرها، فلاحَت مِنِّي إذ ذاك التفاتة إلي الرَّجل الضَّرير فوجدت وراء رأسه علي نافذة نشرة غير كاملة الطبع يبلغ عدد صفحاتها ست عشرة، وهي النشرة التي كان لوقعها دوي عظيم في سائر الأنحاء الروسية، وعنوانها: «وإنَّ غدًا لناظره قريب». وكان البوليس السري في "بطرسبرج" و«موسكو» وغيرهما من المدن حاول جهده ليقف علي شيءٍ من سرِّ هذه النشرة فلم يفلح، فلمَّا وقعت عينيَّ عليها رأيت من سوء الرأي أَن تكون هذه النسخة مُعرضة لأعين الزائرين، ثُمَّ عدت فافتكرت أَنَّهُ لا يوجد في الغرفة سوانا ورجل ضَرير لا يُبصر، وبينما كنت في هذه الهواجس وإذا بأحد صديقي قد فتح الباب الداخلي وأومأ إليَّ للدخول والمداولة معهما بشأن التعليمات التي قد تلقاها الآن من اللجنة، فلبثتُ معهما نحو خمس دقائق، ولمَّا عدنا إلي غرفة الجلوس وجدت أَنَّ النشرة الثورية قد اختفت، فاعترتني من جراء ذلك حيرة عظيمة، لأنَّ الرَّجل الذي أمامي ضَرير لا يُبصر، ولم يدخل غريب علينا أثناء مداولتنا في الغرفة الداخلية، فهممت أن أذكر لذلك الرَّجل شيئاً من هذا القبيل ولكنني خشيت أن ذلك يחדش عواطفه، وعلاوة علي ذلك فإن في مثل هذا السؤال ما يلقي في نفسه ريبة من حقيقة أمرنا، فقرَّرت الصُّمت، ولكنني عزمت علي مراقبة هذا الرَّجل ومعرفة ما إذا كان هو الذي اختلسها، وإذا كان الأمر كذلك فما الغرض الذي يرمي إليه ؟

فلم يمرَّ سوي بضعة أيام حتي توجهت إلي المعمل الذي كان فيه الضَّرير يعمل



في صقل الحجارة الكريمة، فوجدت فيه غرفةً فسيحةً ومكتبةً كبيرةً مشحونةً بأنواع الكتب المختلفة، فلمَّا دخلت علي الرَّجل استقبلني بالبشاشة والترحاب، وعندما جلست قال لي:

- أظنك قدمت لتري العامل الضرير الذي أحضرته إليَّ وأناي أخبرك أنَّه من أمهر الصُّناع.

ثمَّ فتح خزانةً أمامه وأخرج منها علبةً داخلها حجر كريم فسلمني إياه، وقال:

- أنظر إتقان شغله العجيب.

فأخذته وإذا هو قطعة كبيرة من الألماس صفراء اللون تتألق فيها الأشعة تألقُ النور، فدهشت من إحكام صقلها، وقلت:

- كم تمنها؟

قال:

- لا أقل من ألف جنيه، وستكون هدية من عريس إلي عروسه في نحو أسبوع من الزمن.

فقلت له:

- أود أن أري الرَّجل مشغلاً.

فأجابني إلي سؤالِي، وصعدنا إلي الطابق العلوي حيث كان العُمال، فاقتربتُ إلي الرَّجل بكلِّ هدوءٍ حتي لا يشعر بي، فوجدته يصقل حجراً كريماً بقطعة من الألماس في يده فلم يلتفت إلينا بل بقي مواظباً علي عمله، وكان كلُّما أخذ في الصقل يعود فيلمس الحجر بطرف سبابته ليحس إذا كان قد أحكم الصُّنع.

وكان الغرض من ذهابي إلي الموضع المذكور أمرين: أولاً معرفة ما إذا كان الرَّجل حقيقةً أعمي البصر وهو ما ظهر لي منه أثناء العمل، وثانياً الوقوف علي سرِّ





تلك النشرة التي اختفت، فبعد أن وقفنا أمامه لحظة وهمنا بالعودة وجدت رداء الرجل مُعلقاً علي الحائط، فأومأت إلي صاحب المعمل أنني أقصد المزاح فوضعت يدي في أحد جيوبه فأخرجت منها أنواعاً مُتعدّدة من الأوراق، وفي جملتها النشرة المسروقة، فلم أقل شيئاً، ولكن أعدت سائر الأوراق إلي موضعها، وودعت الرجل منصرفاً وأنا أفكر ما غرض ذلك الرجل الضرير من سرقة هذه النشرة ؟

وحدث ذات يوم أن كان الضرير زائراً منزل صديقيّ العالمين: "أينوقتش"، و"ستنسكي" مرّة أخرى فبعد أن لبث برهة، قام وهو يقول:

- لا بدّ لي من الذهاب.. فإن ابنتي المسكينة "أليونورا" في انتظاري، وهي وحدها لا أنيس معها ولا جليس يُخفف عنها كربة الوحدة والانفراد.
فأثر كلام الرجل عن ابنته تأثيراً شديداً، وقلت له:

- إني أصطحبك إلي البيت.

فشكرني وتناول يدي، ولما بلغنا منزله، وجدنا الفتاة في انتظاره، فلما شاهدته أسرعت إليه وهي تُقبله، فجلست أحدثهما نحو ساعة من الزمن، ثم ودعتها عائداً إلي منزل صديقيّ.

ولما بلغت الموضع وجدت مدخله غاصاً بجمهور من المتفرجين، وكانت هناك جلبة عظيمة، فاستجليت الأمر، فقبل لي أنّ عدداً من أفراد البوليس قد دخل منزل صديقيّ، فتأسفت كثيراً من انكشاف أمرنا، ولكني كنت علي يقين أنّ الحكومة الإنجليزية لا تمنع إصدار منشورات ثورية في بلادها، فاخترقت صفوف المحتشدين إلي أن بلغت المنزل فسمعت "أينوقتش"، يقول للبوليس:

- ولكن أحبّ أن أعرف السبب الذي لأجله تلقون القبض عليّ؟!

فأجابه البوليس:

- إننا أفدناك بحقيقة الأمر. فاجر معنا إذ لا فائدة من المقاومة.



وكنْتُ إذ ذاك لا أزال علي باب المنزل بين الجماهير، فلم يرني صديقِي فتبعتهما عن بُعد، وكان غرضي أولاً الذهاب معهما إلي إدارة البوليس، ولكن رأيت بعد التروي أن ذلك قد يكون باعثاً علي دخولي في الأمر دون أدني جدوى لرفيقي، فعدتُ إلي منزلي عاقداً النية علي حضور الجلسة التي تُعقد في محكمة الغد، غير أنَّه حدث ما منعني عن ذلك، وفي المساء تناولت إحدى صحف العاصمة فإذا فيها تفصيل محاكمة الصديقين، وخلاصة الأمر أنَّ البوليس السري دخل منزلهما فوجد هنالك أوراقاً ماليةً روسيةً مزورةً، وصفائح نحاسية محفورة لطبع تلك الأوراق التي قد وُجد منها في المنزل ما تبلغ قيمته عشرين ألف روبل، وأنَّ العمال الروسيين كانوا قد أبلغوا الحكومة الإنجليزية أنَّ الأوراق المالية المزورة قد فشت في روسيا، ويظنون أنَّ مصدرها مطابع سرية في “لندرا”.

فوقع هذا الخبر عليَّ وقع الصاعقة، لأنِّي كنت موقناً كُلَّ اليقين أنَّ صديقِي بريئان من هذه التهمة التي وقعت عليهما، وأنَّ الأوراق المالية المزورة مع الصفائح النحاسية إنما وضعت خلصة بيدٍ سرية، وبينما كنت في أشدَّ الحيرة والذهول خطر لي بعد بضعة أيام أن ذهبت لزيارة معمل الجواهرجي حيث يشتغل الضيرير “خورشوف” لعلِّي أقف علي شيء من هذا اللغز العجيب، فلمَّا بلغت المعمل رأيت صاحبه نادياً سوء حظه، وهو ينادي بالويل والثبور، فسألته:

- ما الخبر ؟

.. فأجابني:

- اللصوص قد دخلوا موضعي وسرقوا سائر ما عندي من الخلي والجواهر التي تبلغ قيمتها أكثر من خمسين ألف جنيه.

ولمَّا ولجت الغرفة رأيت الكتب مبعثرة في تلك المكتبة، والصندوق الحديدي الذي كان مستوراً وراءها مفتوح، وأنَّ الذي قد أتى هذه الفعلة الشنعاء لابد أن يكون





من أمهر اللصوص، فخطر لي إذ ذاك أن أسأل صاحب المعمل عن "خورشوف" فأفادني أنه لم يحضر في ذلك الصباح، وكان بجانبنا أحد أفراد البوليس السري، فقال إنه هو السارق، فذهبت وإياه إلى منزل الضير فأفادتنا امرأة هناك أن الرجل رحل مع ابنته فجر ذلك اليوم، وأنه لن يعود قبل شهر من الزمان، ففتشنا غرفته دون أن يتاح لنا العثور على شيء يتخذ دليلاً على وجهه سيره، فاشتغلت الأسلاك البرقية تنقل خبره إلى سائر محطات العاصمة، والمواني البريطانية فاختفي الرجل ولم يبق منه أي أثر كأنه شبح من عالم الخيال، فتحققت إذ ذاك أنه هو الرجل الذي وضع في غرفة عمال المطبعة الأوراق المزورة والصفائح النحاسية، وأنه بعث بعد ذلك بلاغاً بهذا الشأن إلى إدارة البوليس من دون إمضاء فتتخلص بذلك الحكومة الروسية من المنشورات الثورية في "لندرا"، وفي الجلسة التالية التي عقدتها المحكمة حكم عليهما بالأشغال الشاقة مدة سبع سنوات، ولا يزالون حتي الآن في السجن ولم تغن إيضاحات المحامي الذي أقمناه مدافعا عنهما نفعاً.

وبعد هذا الخطب عقدت اللجنة العاملة اجتماعاً للنظر في الأمر، وبعثت إلى سائر فروع جمعيات الثورة بياناً بهذا الصدد تطلب منها اقتفاء أثر الرجل، فورد علينا بعد عدة أسابيع كتاب من جمعية "أمستردام"⁽¹⁾ وفيه البيان الشافي بخصوص هذا المُحتال، ومنه علمنا أن الرجل أبرع لص في سرقة الألباس في سائر الإمبراطورية الروسية، وأنه كان فعلاً من جملة المنفيين ولكن لا لجريمة سياسية بل لسرقة جواهر من أحد المحلات التجارية فذهب إلي "سبييريا"، ولكنّه تمكّن من الهرب، ولما بلغ "لندرا" استخدمته جواسيس الروس للوصول إلي أمر هذه المنشورات، وأنه كان مُصاباً بعلّة في العينين ولكنّه كان يبصر بهما جيداً، فترقبته جواسيس لجنة

(1) أمستردام Amsterdam : هي عاصمة هولندا، وأكبر مدن البلاد من حيث عدد السكان، لكنّها وعلى الرغم من ذلك ليست مقر الحكومة الهولندية التي اتخذت من "لاهاي" مقراً لها. (المُعد).



الثورة في "أمستردام" وسلمته للبوليس السري والرجل يحاول بيع الألماسة الصفراء التي هي صقل يده، ولمّا فتش منزله ظهر فيه نحو نصف الجواهر التي فقدت من إنجلترا، فبعثت الحكومة الإنجليزية تطلبه، فأرسل تحت الحفظ وحُكم عليه بعد وصوله إلى "لندرا" بالسجن مع الأشغال الشاقة عشر سنوات، وبرد ما بقي من تلك المجوهرات إلى صاحبها الأول.





الفصل التاسع

امرأتان .. ورجل !!

Two women .. and a man !!



كنتُ ذات يوم سائراً في شوارع "لندرا" والجوّ مُلبّد بالغيوم، والرياح تعصف من كلّ ناحية، والضباب قد أرخى أستاره وأنا أفكّر في أمر جواسيس السفارة الروسية وما أتته أيديهم من أنواع المكر وضرب الغدر تنكيلاً بنا، وإذا بسيدة مليحة القد والقوام ماشية ورائي إلي إحدى محطات السكة الحديدية، فلما دخلتُ القطار جلست نحوي، ولكن كنت في تيّارٍ من الهواجس والأفكار فلم أنبه لها، بل أخذت عدداً من الصحف التي بيدي وشرعت في مطالعته، فما تحرّك بنا القطار حتي شعرت بيدٍ لمست ذراعي وصوت يناديني باسمي باللغة الروسية، فذعرت من ذلك وتطلّعت وإذا بالمنادي تلك الفتاة، فقلت لها:

- يظهر يا سيّدي أنّك تعرفيني، ولكن لم يسبق لي شرف التعرّف بك !

- التقينا قبلاً يا مولاي في "بطرسبرج" دون أن يكلم أحداً الآخر.

- أروسيّة أنتِ ؟



.. فأحنت رأسها، ثُمَّ همست في أذني الكلمة التي يتعارف بها النهلست، فعلمت أنها واحدة منا، ثُمَّ عادت إلي المحادثة، فقالت :

- سمعتُ عنك في ”بطرسبرج“ وطالعت مقالاتك في المجلات والصحف الإنجليزية حيث أتيت علي بيان المظالم التي تحل بزعماء الحُرِّيَّة ورجال الإصلاح في روسيا، وما أمامهم من الشقاء العاجل والموت الآجل في مجاهل ”سيبيريا“، وما ينالهم من الذل والحيف ⁽¹⁾ في السجون فخدمت بذلك جمعيتنا أجل خدمة فهل أجسر أن أطلب منك خدمة تقوم بها لنفسي ؟

- ماذا تطلبين مني يا مولاتي ؟

- إنَّ خطراً عظيماً يهدّد حياتي فإذا لم تمدّ إلي يد الإخاء والنجدة وقعت في التهلكة لا محالة، وإن لي أخاً ينتظرني في المحطة التالية فإذا أحببت نزلنا سوياً، ثُمَّ أقص عليك في المنزل تفاصيل أمري، وأني لست في ريبة بأنك ستكون لي من المناصرين والداعمين.

.. فنظرتُ إليها مذهولاً، وقلت :

- أتخشين سوء أيتها السيِّدة ؟

.. فنظرت إليَّ قائلَةً :

- أخفض صوتك فإننا نحن كلينا قد وقفنا أنفسنا علي خدمة الوطن وأهله، وقد نسيت أن أعرفك بنفسي فأنا ”ماريانا هنشي“.

ولمّا رأيتُ من حماسها وجراتها وإخلاصها في سبيل الوطن ما رأيت، لاح لي أنها

(1) الحيف : الظلم والجور . (المُعد).





إنما قَدِمْتُ لأمرٍ سَرِيٍّ يتعلَّقُ بشؤوننا في روسيا، فأحببت الوقوف علي حقيقة أمرها ووعدتها خيراً وأناي أساعدها جهد الطاقة.

فلَمَّا بلغنا المحطة المُشار إليها نزلنا من القطار ولبثنا برهة ننتظر أخاها علي غير جدوى، ولَمَّا مللنا الانتظار سرنا مشياً علي الأقدام حتي بلغنا منزلاً منفرداً في ساحةٍ كبيرةٍ لم يكن عند مدخله سوي كهل هو البواب، ولَمَّا بلغت غرفة الانتظار نزعْتُ عني وشاحي وجلست علي كرسي أنتظر السَيِّدة التي صعدت إلي الطابق الأعلى أن أقفلت الباب وراءها .

فشعرتُ أثناء جلوسي بانقباضٍ شديدٍ لم أدر علته وخصوصاً لَمَّا رأيت الغرفة صغيرة والنور فيها ضئيلاً، والمفروشات قديمة العهد، ورائحة لا يمكن التعبير عنها تتصاعد إلي أنفي، وبعد أن لبثت نحو ربع ساعة أنتظر عودة السَيِّدة شعرت بدوار شديد وصداً في مقدمة الجبهة، ثُمَّ تلا ذلك نوبة سعال وأسرع تنفسي، ولَمَّا وقفت شاهدت شيئاً كثيراً من الغبار في أرض الغرفة ممَّا دلني علي أنها لم تكن مأهولة منذ زمنٍ قديم، فتقدَّمت إلي جانب النَّار فرأيت هنالك شيئاً كثيراً من الفحم أخذاً بالاحتراق، فعلت وجهي صفرة الوجل وتقدمت نحو الباب لأفتحه فوجدته موصداً، فنظرت إلي النوافذ فرأيت جميعها مقفلة ومسدودة سداً محكمًا من الخارج، ولم يكن للنَّار منفذ من موضعٍ ما فأدركت حينئذٍ أنني وقعت في شركٍ، وإني في غرفة الموت، فأخذت أضرب الباب بيديَّ ورجلي فلم أتمكَّن من فتحه، وكان للصدى وسط ذلك السكون دوي هائلٌ هلع له قلبي، ثُمَّ أخذت أدور في تلك الردهة كمنْ مُس بالجنون، ثُمَّ أخذت في الصراخ لعلَّ أحداً من المارة يسمعني ولكن ذلك كان دون أدني جدوى، فمرَّت عليَّ الثواني ساعات والدقائق أياماً، وسمعت فوقِي أصواتاً غريبة وشعرت بشيءٍ وقع في أرض الغرفة التي هي في الطابق الأعلى، ثُمَّ زاد بي الدوار



وشعرت بما أمامي من الأشباح يمر كالسحاب ولم يكن إلا كمثل غمض الجفن حتي اعتراني ارتجاف في الأعضاء ووهن عام في الجسد اصطكت بعده ركبتي اصطكاً شديداً، ثُمَّ اعترتني هزة غريبة وثقل دماغي ثَقُلًا شديداً حتي لم أعد أستطيع تحريك جسدي. وبعد لحظة ترنحت ترنُّح السكران، وسقطت علي البساط الذي أمامي في سُبَات عميق لا أعِي شيئاً.

ولا أدري كم لبثت علي هذا المنوال، ولكن لَمَّا استيقظت وجدت نفسي متكئاً علي كرسي في الطابق الأعلى من ذلك المنزل المنفرد، وفي يدي مسدسي وعليه لطخ من الدَّم، ثُمَّ نظرت إلي ما حولي فوجدت الفجر قد انبتق، وباباً في جانب الغرفة مفتوحاً إلي غرفةٍ مجاورةٍ فظننت نفسي أولاً أن سائر ما جري لي لم يكن سوي أضغاث أحلام، ولَمَّا عاد إليَّ رشدي وقفت ودخلت الغرفة المجاورة فشاهدت هنالك ما اقشعر له جسدي وهلع قلبي، وذلك أني رأيت جثة الفتاة "ماريانا" التي قادتني إلي هذا الموضع موسدة علي الأرض وحولها بركة من الدَّم، وإزاء القلب جرح من فوهة مسدس أطلق عليها وهو يكاد يلامس جسدها لأنَّ بعضاً من ثيابها كان محروقاً من لهيب البارود، وهي جثة باردة لا حراك فيها.

فارتعت لهذا المنظر ارتباعاً شديداً لأنَّ الذي يتبادر إلي الذهن هو أني نفس القاتل، فلبثت بضع دقائق أنْفَرَس في الجثة وأنا في حالة من الذهول، ثُمَّ جلست في الغرفة الأخرى فرأيتها جميعها مفتوحة وخالية من السكان، فجال في خاطري أولاً أن أبلغ إدارة البوليس تفاصيل هذه الحادثة، ولكنني رأيت بعد التأمل أن الأمثل السكوت عن ذلك لأنَّه لا بدَّ عندئذٍ من إلقاء القبض عليَّ أولاً لتوفر الشبهات عليَّ في مثل هذه الجناية، فنزلت من علي السُلَّم وتوجهت إلي منزلي، ولَمَّا حاولت فتحه رأيت أن المفتاح قد فقد من جيبي فاضطرت إلي إحضار رجل كسر القفل





ووضع قفلاً جديداً موضعه، ولما دخلت المنزل وجدت سائر أشياءي مبعثرة في أرض الغرفة وخزائني مفتوحة فتبادر إلي ذهني أولاً أنَّ ذلك فعلة بعض اللصوص الذين حاولوا سرقة المنزل، وأنَّه لما لم يكن هنالك شيء من الدراهم انصرفوا دون أن يمسوا شيئاً ممَّا في الغرف فلم أرسل بلاغاً إلي البوليس بخصوص هذا أيضاً خوفاً من أن الأبحاث الدقيقة تُبين غيابي عن منزلي والموضع الذي كنت غائباً فيه أثناء هذه البرهة.

وبعد التأمل خشيت أن يكون قد وقع من جيوبي في ذلك المنزل الذي كدت ألقى فيه حتفي من الأوراق ما يستدل به عليّ، فسألت عن الموضع فقيل لي أنَّه ملك أحد الأشراف، وأنَّه معروض للاستئجار، فذهبت إلي هناك ورأيت خادماً جديداً طلبت منه مشاهدة المنزل فسلمني المفاتيح ودخلت الغرف وقلبي لا يزال يخفق من الهلع، فلم أر هنالك شيئاً من أوراقي ولا أثر للجريمة، فإن الجثة كانت قد نقلت ونظفت أرض الغرف من اللطخ الدميَّة، فعدت من حيث أتيت وأنا أفكر في أمر هذا السرِّ العجيب علي غير جدوى.

ومرَّت عليَّ الأيام والشهور علي مثل هذه الحال وأنا أحاول الوقوف علي سرِّ ذلك اللغز، فذهبت مساعي أدراج الرياح، إلي أن انجلت لي الحقيقة من مصدر لم أكن أتوقعه علي الإطلاق، وذلك أني كنت ذات يوم في منزلي وإذا بالخادم قد دخل عليّ وبيده ورقة زيارة من أحد أصدقائي القدماء، واسمه "مالر" فلقيتة بالبشاشة والأنس، وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث إلي أن أتيت علي ذكر تلك الحادثة، فتبسَّم تبسُّم رجل له شيء من الاطلاع علي دخيلة الأمر، فسألته:

- أتعرف شيئاً من ذلك ؟



.. فضحك، وقال :

- أعلم كل شيء وعند جُهينة الخبر اليقن⁽¹⁾.

.. فذهلت لكلامه، وقلت :

- أستحلفك بالله أن تقص علي ما تعلمه من أمري فإني أكاد أن أذوب تشوقاً
إلي ذلك.

.. فشرح لي الحديث الآتي :

- ورد علي اللجنة العاملة منذ عدة أشهر بلاغ لم تقف عليه في حينه لأنك كنت
وقتئذ منهمكاً في واجبات جمعيتنا خارج "لندرا"، ومفاد هذا البلاغ أن "ماريانا
هنشي"، وهي الابنة التي ذهبت معها إلي المنزل المذكور قادمة من "بطرسبرج"،

(1) وعند جُهينة الخبر اليقين: من أشهر الأمثال التي قالتها العرب، حيث يقال عند الرغبة في معرفة الأخبار،
والتحري من صحتها ودقتها. وهناك أكثر من رواية لقصة هذا المثل، سنتعرف على أشهرها: تقول القصة
أن هناك رجلين التقيا، أحدهما يدعى "حصين بن عمرو بن معاوية بن كلاب"، أما الآخر فكان من جُهينة
ويدعى "الأخنس بن كعب"، وقد اتفقا على ألا يلتقيا بأي أحد إلا ويغيران عليه ويسلبانه ما يملكه. فقاما
بالإغارة على أوّل شخص يلتقيانه، إلا أنه قدّم لهما عرضاً، وهو أن يعيدا إليه بعضاً ممّا اغتنامه، مقابل
أن يدلّهما على مغنم، فوافقا. وبالفعل، أرشدهما إلى رجل من بني لخم، وقد قدّم من عند أحد الملوك
بمغنم كبير. سريعاً التقيّا به "اللخمي" الذي كان يستظل عند أحد الأشجار، وقد كان طيباً وكريماً، فعرض
عليهما الطعام. غاب "الأخنس" قليلاً، وحين عاد وجد "اللخمي" مضرباً بدمائه، فغضب كثيراً من
"الحصين" والذي قتل الرجل الذي أكرمهما، وقال له: "ويحك فتكت برجلي قد تحرمتا بطعامه وشرابه.
فقال: "اقتد يا أخا جُهينة فهذا وشبهه خرجنا". جلس "الجهني" مع "الحصين" قليلاً، ثم إذا به يسل
سيفه عليه ويغنم متاعه ومتاع "اللخمي"، ثمّ رجع إلى قومه، فإذا بامرأة تسأل عنه (في روايات يقال أنّها
أخت "الحصين"، وروايات أخرى زوجته) وقد سألته عن "الحصين". فقال: "قتلته". فأجابته: "كذبت
ما مثلك يقتل مثله"، ثم انصرف إلى قومه، وقال: وكمن من فارس لا تزدريه / إذا شخصت لرؤيته العيون
إلي أن يقول: تُسأل عن حصين كلّ ركّب / وعند جُهينة الخبر اليقن⁽¹⁾. (المُعد).



وهي منتظمة في سلك جواسيس الحكومة الروسية، وإن الغرض من حضورها إليّ “لندرا” هو أن تتوصل بطريقتي من الطرق إلي قتل الثري الشهير والثوري العظيم “غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير” !

.. فالتفت إلي صديقي مذهولاً، وقلت له :

- أكان غرضها من القدوم إلي هنا إعدامي ؟

.. فأخني صديقي رأسه، وعاد إلي تنمة مقاله :

- ولما عرف الرئيس “بتروف” ذلك عيّن عدداً غفيراً من جواسيس اللجنة للشهر علي حياتك، ومراقبة سائر حركاتك، لكي يكونوا مستعدين لإنقاذك من مخالب الموت علي الدوام دون أن تكون أنت نفسك شاعر بشيء من ذلك، وكنت وقتئذ في عداد من نيط بهم القيام بهذه المهمة، وبينما كنت يوماً سائراً في حراستك مع صديق آخر وجدناك والسيدة المشار إليها عند المحطة، فدخلنا القطار وتبعناكما حتي رأيناكما داخلين البيت، ولم يكن هناك سوي البواب ولكنه ليس بواباً بل جاسوساً آخر من جواسيس الحكومة حضر برفقة “ماريانا” لإنجاز الجريمة، فلما رأنا اختفي، أمّا نحن فلم يكن أمامنا سوي ربع ساعة من الزمن حتي دخلنا وراءك المنزل المذكور، ولما لم يفتح لنا أحد عند قرع الباب، كسرناه وأخرجناك من تلك الغرفة المظلمة وأنت في حال الاختناق والغيوبة وأصعدناك إلي الطابق العلوي، وبينما نحن وقوف علي الباب إذ سمعنا محادثة أفضت إلي مخاصمة بين امرأتين الواحدة منهما “ماريانا” وهي كانت مصممة علي قتلك، والأخرى مدام “كريشفسكي” وكانت ترغب في الاكتفاء بالحصول علي الأوراق التي في جيبك، وقد ظهر لنا من حديثهما وخصامتهما أنّها كانت تودك كثيراً.



فاعتراني الدهول، وقلت له:

- ولكن مدام "كريشفسكي" عضو من جمعياتنا الثورية فكيف تتآمر مع جواسيس الحكومة علي؟
.. فقال:

- إن مدام "كريشفسكي" كانت كذلك، ولبثنا نعتقد بصدقها وإخلاصها حتي هذه الحادثة التي انجلي لنا بعدها أمرها، وأنّها في الحقيقة كانت من عمال الحكومة الروسية، وبعد أن لبثنا واقفين نحو دقيقة من الزمن أغلظت "ماريانا" الجواب لمدام "كريشفسكي" فأشهرت عليها هذا المسدس وأطلقتها، فدخلنا علي صوت دوي البارود، فذعرت القائلة وصرخت بأعلى صوتها، فاضطرتنا إلي تركك هناك خوفاً من حضور البوليس لأننا كنا متوجهين تلك الليلة بمهمة سرية إلي إيطاليا، فحتي تنفي مدام "كريشفسكي" عن نفسها تهمة القتل أبقتك هنالك، ووضعت المسدس في يدك وخرجت، أمّا البواب فهو كما ذكرت لك داخل في هذه الدسيسة وهو الذي انتشل من جييب المفتاح ودخل منزلك وأخذ منه ما يهمه من الأوراق، ثُمَّ تمكنت مدام "كريشفسكي" بواسطة عمالها من نقل الجثة بعد خروجك من المنزل دون أن يشعر بها أحد، ولكننا قدمنا تقريراً فيه البيان الشافي إلي اللجنة العاملة فقرّرت اللجنة الحكم عليها بالإعدام.

- ولكن أين هي الآن؟

- في "بروكسل"، ولكن أنت تعلم أنّه متى صدر حكم اللجنة العاملة فلا بدّ من إنفاذه.

فتعجبت من ذلك كلّ العجب، ثُمَّ ذهبت مع صديقي للتنزّه في بعض حدائق





العاصمة، فاشترينا عدداً من أعداد صحيفة التيمز الشهيرة، وفيما كنت أُلَبِّ صفحاتها عثرت علي تلغراف من مراسلها في ”بروكسل“ فيه ما يأتي:

(من الأخبار التي اهتزت لها أنحاء هذه المدينة هو أنَّ السَّيِّدة الروسية مدام ”كريشفسكي“ المشهورة بالغني والجمال الرائع وُجِدت هذا الصباح مقتولة في فراشها بطعنة سكين في القلب، ولم يتمكَّن البوليس من اقتفاء أثر الجاني).

فتبادلت وصديقي نظرات شفت عن معني عميق، ولكننا لم ننطق بهذا الخصوص بكلمة واحدة.







الفصل العاشر

المرأة.. اللغز !!

The woman .. the mystery



ضميري بيكتني علي كُلّ ما صدر مني من جرائم، وما اقترفت من الذنوب في سبيل الذود عن حقوق أمّتي والأخذ بثأر أبي وأمّي وشقيقتي، لقد اضطرتني الظروف والأحوال السياسيّة إلي القيام بما اقترفته كما سأقصّ.

حدث أنّ سيّدة روسية مهذبة، غاية في العلم تُسمّي مدام "شنكوف" نزلت في "لندرا" قادمة من روسيا، ولم تلبث فيها ربحاً من الزمان حتي أصبحت من أشهر سيّدات المدينة، تختال في قصور الأشراف والأمراء، وتميس⁽¹⁾ في محافل الحظ واللّهو، إذا تكلمت كان حديثها درراً، وإذا كتبت تهافت القُرّاء علي مطالعة مقالاتها في المجلات والصحف، فصار من هم لجنة الثورة الوقوف علي سرّ هذه السيّدة؛ لأنّ مظاهر الثروة التي كانت تلوح عليها، والنفوذ الذي أحرزته في قليل من الزمن جعلنا في ريبة من أمرها خشية أن تكون من عمال الحكومة الروسيّة، وهي ريبة بلغت عندنا حدّ اليقين لأنّه لم يطل أمرها حتي نشرت مقالات رنانة أتت فيها علي إطراء

(1) تميس: تَحْتَال، و تَبْتَخَر. (المُعد).



القيصر وعُماله إطراءً شديداً فأصبح من همنا حينئذ بث العيون والأرصاد عليها من كُلِّ جانب.

وبعثت اللجنة إلي سائر الفروع الروسية تستجلي أمر هذه السيِّدة، فلم يردنا بشأنها ما يشفي الغليل، ولبتنا كذلك في حُدُسٍ وتخمينٍ حتي وردنا كتاب من فرع الجمعية الثوريَّة في "خيف" مفاده أنَّ السيِّدة التي انتحلت اسم مدام "شنكوف" هي في الحقيقة امرأة رجلٍ هو رئيس بوليس تلك المدينة، وأنَّها كانت في الماضي سبباً في نفي كثيرين أخصَّهم من طلبة العلم في "بطرسبرج"، بينهم نفر من "خيف" نفسها، ولَمَّا خشيت بعد ذلك العودة إلي "خيف" أو البقاء في "بطرسبرج" أختفي أثرها حيناً من الدهر، فأرسلنا صورتها مأخوذة من إحدى المجلات الإنجليزية وبعثنا بها إلي "خيف"، فورد البيان الشافي أنَّها هي نفس المرأة وأن قدومها إلي "لندرا" لم يكن إلَّا للانخراط في زمرة الجواسيس.

وكان أمر مراقبتها لازمة علينا؛ لأنَّ اللجنة العاملة كانت قد عقدت النية علي إتيان ضربة لا تقَل في نتائجها وخطورتها عن الضربة التي أوردت القيصر "ألكسندر الثاني" ⁽¹⁾ حتفه، تلك الضربة القاضية التي كانت علي روسيا والعالم المتمدن بلية طامية ⁽²⁾، ولكن عُمال الظلم في الحكومة والاستبداد الأثيم والجور الفاحش الذي وقع علي رفاقنا في روسيا أخرج صدور اللجنة العاملة في "لندرا" حتي أعمي ذلك بصيرتها فعددت النية علي إهلاك القيصر "ألكسندر الثالث" كما سأفصل كُل ذلك فيما يلي، ولَمَّا كان وجود مثل السيِّدة مدام "شنكوف" في عِداد جواسيس "لندرا"

(1) ألكسندر الثاني: «نيكولايفيتش رومانوف» المولود في 29 أبريل عام 1818م، والمتوفي في 13 مارس عام 1881م، إمبراطور روسيا السَّادس عشر منذ 22 مارس 1855م حتى وفاته. تعرَّض إلى محاولة اغتيال في فبراير عام 1880م ولكنها باءت بالفشل. وفي 13 مارس 1881م، وأثناء طريق العودة إلى قصر الشتاء اغتيل بواسطة إرهابي استخدم قنبلة يدوية. (المُعد).

(2) بلية: الجمع بلايا، والبلاء هو المصيبة ومحنة. أمَّا طامية، فمن الطَّام، أي الشيء العظيم. (المُعد).





خطراً كبيراً علي أعمالنا السرية، قرّرت اللجنة مراقبة كُل حركة من حركاتها، وأناطت هذه المهمة بي لعلني أقف علي الغاية التي تتوخاها السيّدة المُشار إليها في قدمها إلي "إنجلترا" والإقامة بين أهلها، لأنّه أصبح للمقالات التي نشرتها في صحف "لندرا" وقع شديد فسفّحت أقوال الكتّاب الذين يزعمون أنّ "سيبيريا" بلاد الشقاء وأنّ سجونها جحيم أرضي، وأنكرت علي الكاتب الشهير "جورج كنان" ما أتني علي ذكره من أهوال تلك السجون والديار التي تقشعر لها الأبدان.

فاضطرت للوصول إلي هذا الغرض أن أتكر، فاستأجرت منزلاً جديداً في العاصمة، وانقطعت عن زيارة اللجنة العاملة في مركزها، وكانت إذا اضطرتني الحال إلي مشاورتهم في أمرٍ اجتمعنا في ناحيةٍ أخرى من نواحي "لندرا" حتي لا يكون لأحد سبيل للظن بي، فانتحلت اسم "شارل لانكور"، ولمّا كنتُ أحسن التكلّم بالفرنسيّة فلم يشك أحد في انتحالي هذه الجنسيّة، ولم يمرّ وقت طويل حتي تعرّفت بمدام "شنكوف" وأصبحنا صديقين حميمين، فكنا نذهب أكثر الأحيان إلي الملاهي والاجتماعات سوياً، إلي أن دعانا يوماً ما أحد الأصدقاء أن نصرف بضعة أيام مع أصدقاء آخرين في قصرٍ خاصّ له في جوار «لندرا»، وبينما كنت جالساً وإياها ذات يوم تحت الأشجار الغضة والأغصان النضرة في جوار القصر نظرت إليها بذهول، وقلت لها:

- «يا نينا» - وهو اسمها الأوّل - إنك أجمل امرأة رأيت في حياتي فإن لك عيوناً ساحرة، وجفوناً تشق سهامها القلوب.

.. فنظرت إليّ بدهشة، وقالت:

- ما دعاك إلي هذا التملّق؟

- دعاني إلي ذلك يا مولاتي جمالك الرائع وحسنك ذائع الصيت، وأنت تعلمين أنّنا نحن الباريسيين أخبر أهل الأرض بملامح الحُسن وبديع الجمال.



- لابد لي أن أخبرك يا مولاي أنني متزوجة منذ نحو سنتين ولي زوج...
.. فلم أمهلها لتتجز مقالها، ولكن أجبتها:
- إنَّ هذا لا يهملك كثيراً.
- كيف تعلم ذلك؟ ومن أخبرك بالأمر؟
- لا أحد، ولكن لا سبيل لك إلي نكرانه فأني أراك غير سعيدة.
- لا أظنك مخطئاً فيما تقول، ولو أخبرتك حقيقة أمري لأخذ منك العجب مأخذه.

ثم صمتت لحظة بعد ذلك وأخذت تلاعب الزهور التي أمامنا علي جوانب المياه، فنظرتُ إليها وإذا هي بالحقيقة الجمال وقد تجسَّم فإن احمرار خديها كان كالجلنار، ولون ذراعيها وعنقها يشف عن بياضٍ ناصع، وقامتها هيفاء، فأحنت رأسها نحوي وهي لا تتشعر بذلك كأنها في حلم، ثم لبثت تلاعب الأزهار فلم أتمالك أن أبث لها شيئاً من هيامي ووجدي، وبعد حين من الزمن شرحت لي حقيقة أمرها، وأنها متزوجة برَّجل يشغل مركزاً مهماً في الحكومة الروسية، ولكنها لم تذكر أن اسمه «مرلوف»، ولا أن موضع إقامته في «خيف» كما كنتُ عالماً، ولكنها اكتفت بقولها أن عيشتها معه لم تكن سعيدة نظراً لما كان عليه الرَّجل من شراسة الأخلاق، فاضطرت إلي تركه والقدوم إلي إنجلترا حيث لا أعداء لها، ولا حُساد يشون بها، ولمَّا أتت علي ختام حديثها خنق صوتها البكاء وجرت من مقلتيها العبرات.
فحاولت جهدي إرضاءها، وقلت لها:

- يلزم أن تتناسي حياتك الماضية وأن تتمتعين بما أمامنا من جمال الطبيعة،
وشذا الزهور، وتغريد الطيور.
.. فتفرَّست فيَّ، وقالت:





- أصبت.. ولكنك لا تدري أحوال الروس في الهيئة الاجتماعية، فإنك رجل فرنسي وتعيش تحت سماء الحرّيّة.

- إني أتوق كثيراً إلي معرفة شيء من أحوال الروس، وخصوصاً أقوام النهلست؛ لأنّي قد سمعت وطالعت شيئاً كثيراً عنهم.

- لماذا تسألني عن النهلست؟ وكيف يأتي لي أن أعرف شيئاً عن هؤلاء القوم الذين دأبهم الدسائس والمكائد؟!

- ولكنك روسية وكلّ روسي يعرف شيئاً عنهم.

- لقد أصبت في زعمك ولا بدّ من عذر لهؤلاء الأقوام علي ما يأتون من الجرأة والدسائس، فإنك إذا أسأت إلي رجل أو ظلمته أو نفيتَه إذا تظلم، أو سدّدت فاه إذا تكلم، أو ضربته إذا تألم ثار في رأسه أخيراً تأثر الغيظ والحنق وقد يحمله اليأس علي طعنك أو رميك بقتال الديناميت، وإذا نظرت إلي الحقيقة نظرة العاقل وجدت الحكومة الروسيّة معملاً هائلاً للقتلة وسفكة الدماء من سائر طبقات الشعب .

فعجبت من كلامها كلّ العجب وخصوصاً بعد أن طالعت مقالاتها في الصحف والمجلات الإنجليزيّة ممّا كانت تشد به أزر الحكومة الروسيّة، فتطلعت إليها بلهفّة وقلت :

- أأستحسنين إذا عمل هؤلاء الثوار؟

- أعلم أنّ الروسي لا يجسر علي الجهر بآرائه علي رؤوس الأشهاد، ولكنّه لا بدّ لي من الإقرار لك أن سائر هذه الأمور لا تهمني الآن لأنّي قد نفيت من بلادي.

.. فقلت في نفسي ما أشدّ دهاء هذه المرأة فإنّه يكاد يفوق جمالها، فتأمّلت ذلك الموقف وما كانت عليه الطبيعة من المهابة والجمال سيما لأنّ الشمس أشرفت علي المغيب وأخذت الطيور تأوي إلي أشجارها للمبيت، ووهشت ممّا لهذه المرأة



من طلاقة اللسان وثبات الجنان⁽¹⁾، وفيما أنا غارق في أبحر الأفكار إذا بالسَّيِّدة قد أخرجت من جيبها لفافتي تبغ أشعلت منها واحدة، وقَدَّمت لي الأخرى فقبلتها شاكرًا، ثُمَّ عدت إلي حديثنا، وقلت لها:

- ولكن طالعت يا مولاتي بعض مقالاتك في صحف العاصمة فوجدتكِ تحامين عن الحكومة محاماة شديدة!

.. فتبسَّمت، وقالت:

- إني أنشر أحياناً مقالات في مجلات القوم ولكن أنت تعلم أنَّ الكاتب لا يسطر علي الدوام حقيقة أفكاره الحُرَّة فإنَّك لو قطنت روسيا حيناً من الزمن لأدركت شدة الخطر الذي يحيق بمن يجسر علي انتقاد أعمال الحكام.

وفيما نحن كذلك وإذا بساعة القصر تنبهنا أنَّه قد آن وقت العشاء، فدنوت منها وقَبَّلْتُها فلاعبت وجهي بيدها وهي تبتسم، وعدنا إلي منزل مضيفنا وبينما كنا جالسين علي مائدة الطعام في صباح اليَوْم التَّالي أتني الخادم إلينا برسائل البريد، وكنت جالساً حذاء مدام "شنكوف" فوضع أمامها رسالتين أحدهما بخط رفيع يدل علي أنَّه كتابة سيِّدة، والأخرى في غلافٍ مربع عليه علامة الحكومة الروسية الرسميَّة وهي سر ذو رأسين وطابع من طوابع الحكومة فلمَّا شاهدتها طوتها ووضعتها في جيبها علي عجلٍ.

.. وفي المساء بينما كان المدعوون في إحدى القاعات، أجلت نظري فلم أجد السيِّدة الروسية بينهم فسألت عنها إحدى وصيفات القصر، فعلمت أنَّها لبست وشاحها وقبعتها وذهبت للتنزه علي جوانب النهر، فتبعتها وكان الوقت صيفاً والسكون سائداً علي الطبيعة حتي أنَّ أوراق الأشجار لم تكن تتحرَّك، فاتخذت طريقاً مختصراً وذلك أنَّي سرت في مرجٍ صغيرٍ أمام القصر تحف به الأشجار الباسقة

(1) ثبات الجنان: ثابِتُ الجنان: شُجَاعٌ، رَاطِبُ الجَأْشِ. (المُعد).





والزهور العطرة، ولمّا بلغت منتهاه سمعت أصواتاً فعرفت صوتها، وكانت تتكلم بالروسية، فسمعتها تقول :

- ماذا يجب عليّ فعله الآن ؟

.. فأجابها رجل، بقوله :

- افعلي ما يترتب عليكِ فعله فقد وردت عليكِ اليوم التعليمات من وزارة الداخلية.

- كان الأولي بها السكوت عن ذلك فإنّي قد أنجزت أعمالي.

- إذا كان الأمر كذلك فأخبريني إذا ما هي الدسيسة الجديدة ؟

- إني لم أنجز تقريرتي حتى الآن ولكن يجب عليك أن تعلم أنني في خدمة الحكومة وليس في خدمتك أنت.

- اعذريني يا مولاتي علي هذا التناول فإن محبة الوقوف علي الأخبار حملتني علي ذلك.

- إن محبتك الوقوف علي الأخبار تضرتني وتنفعك فإنك ستذهب بعد ذلك رأساً إلي الجنرال "إسكاوف" وتبيعه هذه الأخبار، ولكن يجب عليك أن تفقه أنّ المرأة التي تكلمك ليست دونك دهاء !!

- أعذرتي يا مولاتي ولكن أوكد لك أن أسرارك تكون في أمن حريز⁽¹⁾.

- آه .. كما كانت عندما أطلعتك عليها في باريس بعد جد النهار وسهر الليل حتى اكتشفت المكيدة فكانت نتيجة كلّ ذلك أنّك ذهبت وطيّرت التفاصيل علي جناح البرق فراقك الإمبراطور ورصع صدرك بالأوسمة ونفحك بالدنانير أمّا أنا فلم تكن نتيجة أتعابي سوي الشقاء !!

(1) حريز : حصين، منيع. (المُعد).



- ولكن ما ضرَّكَ فَإِنَّكَ زوجتي !

..فأجابته بنغمةٍ كُلُّها ازدراء وإهانة :

- ألا تزال تقول إني امرأتك وقد افترقنا وليس بيننا بعد ذلك أدني صلة فبأي حق تقتفي أثري إلي هنا ألا أقدر علي متابعة هذه الأعمال الممقوتة دون أن تكون لي شريكاً بها ؟!

- ولكنني أساعد يا " نينا " وأعتقد أنه إذا اجتمعت كلمتنا علي أمرٍ سهل علينا انجازه .

- إن ذلك لمن المُحال .. أمّا ما يتعلق بزواجنا فأنت أدري أننا تزوجنا ولكننا لم نعيش معاً قط .

- ألا تذكرين أنني خلصتك مرّة من الموت ؟

- أليس ذلك من واجبات الزوج لزوجته، ولكن ما لنا ولكلّ هذا الحديث فأنته لابدّ لي من العودة إلي القصر فإن سيّدته في انتظاري .

- يجب عليك أولاً أن تبقي هنا إلي أن آتي علي تمة مقالي فإنه لابدّ لك من العودة إلي روسيا للإقامة معي هناك .

- إذا كان الأمر كذلك فأخبرك يا "مرلوف" أنني أكرهك كرهاً شديداً وأن الموت لأسهل عليّ من معاشرتك .

.. فظهرت علي الرّجل علامات الغضب، وصاح بها بأعلى صوته :

- أهذا جوابك لي ؟ إني والله لأقتلنك !!

- إنّ يدك لأقصر من ذلك !

- أطلب منك الآن أن تظهر لي سرّ هذه المكيدة الجديدة التي قد اكتشفتها





وإلا فإنني أقسم بالله أن أدق عنقك بيدي في مثل غمض الجفن ثم أرمي بك إلي هذا النهر!

.. ثم تلي ذلك صوت عراك سمعتُ في خلاله “نينا”، تقول:

- دعني أيها الجبان فقد خنقتني .. دعني .. إلي يا أهل الغوث !!

.. فتقدّمت إذ ذاك من موضعي وأنا أمشي الهويناً⁽¹⁾ حتى لا يُسمع وقع قدمي صوت، فرأيت من خلال الأغصان الضابط “مرلوف” وإذا هو رجل يناهز الخمسين من عُمره، صغير العينين، قصير القامة، كبير الشدين⁽²⁾ علي وجهه ملامح الشراهة والطمع؛ لأنّ مبدأه الوحيد في العالم هو عبادة المال سواء كان من أعدائه أو أصدقائه، وكثيراً ما استخدمه النهلست لقضاء حاجاتهم من الحكومة الروسية وهو لا يزال في خدمتها، ولمّا شاهده وجدته منحنياً فوق امرأته ويداه في عنقها وهو يتهدّدها لكي تبيح له بما وقفت عليه من الأسرار، وبينما كنتُ علي وشك العودة إلي مخبأَي سمعت “مرلوف” يسب ويلعن ثمّ صراخ امرأة مزق كبد السماء، ثمّ سقوط جسم في الماء فطلعت وإذا ليس هنالك من رجلٍ أو امرأة فنظرت إلي الماء وإذا علي سطحه حلقات تتمعج⁽³⁾ تحت أشعة القمر، ولم يكن إلّا كمثل غمض الجفن حتى هدا اضطراب المياه فوقفت حائراً لا أدري ماذا أفعل؟ ثمّ أخذت أسير علي ضفاف النهر وأنظر إلي الأنجم والأشجار التي علي جانبيه ولمّا لم أر شيئاً أسرع بالعودة إلي المنزل وأعضائي ترتجف ممّا سمعت ورأيت.

.. ولقد كان لفقدان مدام “شنكوف” في ذلك القصر المنيف في ضواحي “لندرا”

(1) يمشي الهويناً: يفشي بِتَوَدَّةٍ وَرَفْقٍ. (المُعد).

(2) الشدين: البَدَنُ: جانِبُ الفمِّ ممّا تحت الخدّ، وكانت العرب تمتدح رجالة الشدين، لدلتها على جهرارة الصوت، والجمع: أشداق، وشُدُوقٌ. (المُعد).

(3) تتمعج: تَلَوَّى وتَثَنَّى. (المُعد).



ضجة وصخب في الصحف دون الوقوف على شيء من الحقيقة، ولمّا رأى الزائرون ما آل إليه أمر هذه الدعوة انصرفوا فرأيت الأمل أن أكون في جملة المنصرين لأنّ المكوث أصبح حملاً ثقيلاً على الزوار والضيوف، ولكن تمكّنت قبل عودتي من فحص سائر أشياء السيّدة لعلّي أقف على سرٍّ من أسرارها فذهبت أتعابي أدرج الرياح.

..وعند عودتي إليّ "لندرا" قدّمت تقريراً مفصلاً بما جري إلى اللجنة العاملة، فأمرت بإرسال كتب إليّ سائر فروع لجان الثورة لمعرفة ما إذا كان الرّجل "مرلوف" وامرأته لا يزالان على قيد الحياة، وإذا كان الأمر كذلك فما مبلغ علم المرأة من المكيدة التي كنا على وشك إنجازها حينئذ، وهي نصف قسم من قلعة "شلسبرج" وتخليص سائر المسجونين السياسيين هناك فكان يتحتم علينا إذ ذاك معرفة ما إذا كان هذا الضابط وامرأته لا يزالان على قيد الحياة؟ وهل يعلمان شيئاً من هذه المكيدة الجديدة؟ وأرسلنا صورة الرّجل وامرأته إليّ سائر فروع الثورة دون أن نتمكّن من الحصول على خبرٍ يوثق به.

ولبثت مع بعض الأصدقاء نرقب منزل السيّدة التي دعت نفسها مدام "شنكوف" نهراً وليلاً ونحن نتراوح في العمل ونراقب المنزل بكلّ حرص واعتناء، لأنّ الأساليب التي كنا نسير عليها على غاية الانتظام والدقة حتى أنّه متى أصدرت اللجنة العاملة أمرها بمراقبة أحد كان لا خلاص له ولا مناص.

ولم يكن بعد هذا سوي حين من الزمن حتى وُجدت جثة الضابط "مرلوف" طافية على وجه الماء، ولمّا تأكدنا أنّها بالحقيقة جثته وإن امرأته لم يظهر لها أثر وجعنا اهتمامنا إليّ أنحاء أخرى من جوار مدينة "لندرا". وحدث أنّه بينما كنُتُ برفقة أحد الأصدقاء صباح يوم نتمشي على ساحل البحر في إحدى قري إنجلترا





التي علي الشواطئ شاهدنا عن بُعد شبح امرأة ذاهبة إلي القرية من جهة الشاطئ، فتأملتها جلياً فإذا هي السيّدة مدام "شنكوف"، فكدت أطيّر فرحاً لهذا الاكتشاف، وأخذنا نقتفي خطواتها حتي رأيناها دخلت نزلاً هناك معروفاً بنزل الملكة منتحلة اسم "مسز وليمس"، وبعد هذا الاكتشاف بساعتين كنت بين النازلين في ذلك النزل فاستأجرت غرفة في ذات الطابق الذي كانت فيه "نينا"، وعقدت النية علي لزوم العجلة في العمل، وبعد العشاء رأيته داخله غرفتها فوضعت في جيبي منديلاً وزجاجة صغيرة، وذهبت توالاً إلي غرفتها دون قرع علي الباب، فوجدتها مستلقية علي فراش من الحرير، فقلت لها:

- ها إننا يا سيّدي فقد التقينا مرة أخرى !

فلماً رأيته ذعرت ذعراً شديداً واحمر وجهها من شدة الغيظ، وتأمّلت فيّ، قائلةً:
- لا تظن أيها الرّجل أنّي كنت جاهلة أمرك قط فأنت النهلستي المعروف "غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير" فأخرج من حضرتي وإلاً قرعت الجرس ودعوت الخدم لإخراجك بالقوّة.

فنظرت إليها باسمّاً وقلتُ لها:

- إنك لن تفعلي ذلك يا سيّدي !!

ووقفت بينها وبين الجري ولم يكن إلّا كمثل غمض الجفن حتى أخرجت المنديل وسكبت عليه شيئاً من الزجاجة التي في جيبي ووضعته علي أنفها وفمها معاً، فحاولت التملّص مني ولكن لم يكن سوي دقيقة من الزمن حتى استلقت علي الأرض، وقد شهقت شهقة طويلة وفقدت الشعور، ثمّ فتحت خزانتي فوجدت هنالك كتباً رسمية من وزارة الداخلية وصوراً فوتوغرافية فوضعت سائر هذه الأشياء في جيبي، ولماً هممت بالانصراف خطر لي أنّه قد يمكن أن تكون قد خبأت أهم الأوراق في طيات ثوبها، ففككت أزرار صدرتها وإذا برزمة



قد برزت علي شكل ندي اصطناعي طيها مذكرة فيها أسماء أعضاء اللجنة الثورية في "لندرا"، وأسماء مشاهير أعضاء الجمعية وفي صدرهم اسمي أنا نفسي، وبعد قراءة الورقة وضعتها في جيبي، ثُمَّ نظرت في وجه السَّيِّدة وإذا لونه قد علته صفرة الموت فوضعت يدي علي قلبها وإذا به ساكن لا حركة فيه علي الإطلاق، فعلمت إذ ذاك أنني قد نشقتها جرعة كبيرة من "الكلوروفورم"⁽¹⁾ أودت بحياتها، فوقفت أمامها لحظة مبهوتاً وقوف القاتل أمام المقتول، فترنحت من شدة الأسى ترنُّح السكران، وكدُّ أسقط علي الأرض ولكن تجلدت وخرجت من الغرفة دون أن يشعر بي أحد من النَّاس، وحتى الآن لا تزال رائحة "الكلوروفورم" واسمه في مخيلتي جزاء هذه الجناية العظيمة التي قد اقترفتها.



(1) الكلوروفورم: مركب عضوي صيغته الكيميائية CH_3Cl . وهو سائل عديم اللون، سهل التطاير. وللكلوروفورم تأثير تخديري، كما أنَّه مذيبي جيد لمختلف المواد الكيميائية خاصة الزيوت، غير قابل للاشتعال، وله رائحة خفيفة مميزة له. (المُعد).



الفصل الحادي عشر

أسرار نسف قطار القيصر

Secrets of blowing up the Kaiser train



لابدّ لي الآن من أن أقص تفاصيل تلك الحادثة العظيمة التي دوت لها أرجاء أوروبا واهترت لوقعها أنحاء العالم المتمدن، تلك الجناية العظيمة التي لا تزال حتي السّاعة تغلق ساعات نهاري وهدوء ليلي بعد هذه السنين الطويلة، ألا وهي محاولة اغتيال القيصر "ألكسندر الثالث" وزوجته حين نسف قطارهما الملكي وبصحبتها نخبة وزراء الإمبراطورية وجلة رجال الأمة، وزهرة شبان الأشراف وقد لبث تفصيل هذه المكيدة حتي السّاعة طي الخفاء والكتمان إذ لم يتسن لأحد الوقوف علي أسرار هذه الدسيسة التي أدهشت أدهي الجواسيس وأعظم السياسيين ونخبة الكُتّاب، وكان من أمرها أن نحواً من خمسين شخصاً من السّيّدات والرّجال الأبرياء حُكم عليهم بالنفي إلي مناجم الفضة من أقاصي "سيبيريا" وهم براء من كلّ جناية بينما أن البانين الحقيقيين تملّصوا ولم تتمكّن الحكومة بعد الجهد الجهد والعناء الشديد من الوقوف علي شيءٍ من أثرهم.



ولمّا لم يكن بد من التحقّط التّام والحذر الشديد في القيام بهذه المكيدة التي يصح أن يُقال عنها أنّها أعظم وأجراً مكائداً نهلست نقلت اللجنة العاملة نادي الثورة إلى قهوةٍ حقيرةٍ من شارع “لندرا” خوفاً من جواسيس السفارة الروسية فانعقدت الجلسة الرسمية في منتصف الليل وكان الرئيس “بتروف” قد عاد ذلك النّهار من “بترسبرج” فجلس في كرسي الرئاسة تحف به أهم الأعضاء الذين كنّ في صدرهم، ولمّا انتظمت الحلقة قام فينا، قائلاً:

- أيها الإخوان لقد حان الوقت أن نضرب ضربة قاضية يرن صداها في سائر أرجاء أوروبا وتهلع لها قلوب أهل الأرض، فهل أنتم موافقون علي ذلك ؟
.. فأجابته سائر الأعضاء بالإجماع دون أن يتخلف أحد، وقالوا بصوتٍ واحد:
- بلي أيها الرئيس إنّنا معك أنا فيما تقول.

فعاد “بتروف” إلي الكلام، وقال:

- أمّا الآن وقد خمدت أنفاس تلك الخائنة “نينّا” التي انتحلت هنا اسم مدام “شنكوف” ولم يعد من رقيبٍ نخشى سطوته ونميمته فإني أفيدكم أنّ القيصر وزوجته سيذهبان بعد أسبوعين من تاريخ هذا اليوم إلي أمستردام.

ثمّ أخرج بعد هذا من جيبه خريطة روسيا وعليها خط يرسم سفر العائلة الإمبراطورية في هذه الرحلة ملوناً باللّون الأحمر ومنه يستدل أنّ القيصر يسافر من “موسكو”، و“ريازان”، و“تمبوف”، و“اتكارسك” حتي “ساراتوف”، ومن هناك يسافر بحراً علي ظهر باخرة تمخر نهر “فولكا”، ثمّ عاد بعد هذا إلي الكلام، فقال:

- فترون ممّا تقدّم أيها الرفاق أنّ القطار سيمر في طريقه علي خطوط ثانوية لا أهمية كبيرة لها ولذلك يقول إخواننا في “بترسبرج” أنّ الضربة التي نصمم علي





إجرائها يجب أن تكون في هذه الخطة الثانوية لأنها لا تكون تحت رئاسة الجواسيس والعُمال كالخطوط المهمة.

.. فحدقت إذ ذاك بالرئيس وقلت له:

- ما هو نوع الضربة التي نروم القيام بها ؟

فوضع "بتروف" يده علي جبينه غارقاً في أبحر التفكير، ثُمَّ أجاب:

- هذا ما اجتمعنا لأجل الإقرار عليه في هذه الليلة ولَمَّا كان يتعذر علي رفاقنا

في "بطرسبرج" القيام بهذه المهمة العظيمة لكثرة العيون والأرصاد عليهم ترتب علي أحدنا هنا القيام بهذه الضربة، ومتى سافر إلي عاصمة الروس وجد هنالك من إخواننا مَنْ يكون له عوناً في إنجاز عمله.

فقام أحد الحضور، وقال:

- قد تكون الوسيلة الفضلى في ذلك وضع ديناميت تحت الخطوط الحديدية كما

فعلنا في موسكو.

.. ثُمَّ وقف آخر وأبدى رأيه وهو يقول:

- أو نسف أحد الجسور (الكباري) كما فعلنا في "اليزابثغراد".

.. فتأمل "بتروف"، وقال:

- أو نسف الآلة البخارية التي تتقدّم القطار مثلاً، ولكن كُلّ هذا لا يجدي نفعاً

إذ الطريقة الفضلى التي نعول عليها في بلوغ أمنيّتنا هي أن تحصل الضربة في نفس القطار وما سوي ذلك عبث.

وبعد ذلك أخرج "بتروف" من جيبه خريطة أخرى رسم عليها شكل القطار



الملكي وحجمه وسائر ما يتعلّق به، وأسماء الوزراء والأمراء الذين يصطحبون القيصر في هذا السفر، ثمّ عاد إلي إيضاح التفاصيل الشافية التي من شأنها بيان كلّ خطوة في تحقيق هذه المكيدة بياناً لم يبق معه حاجة إلي زيادة.

بقي علينا بعد كلّ هذا أمر آخر خطير، وهو تعيين الرّجل الذي يُنَاط به القيام بهذه الضربة الرهيبة، فانتخبنا أولاً أحد أعضاء اللجنة العاملين، بيد أنّه بعد مداولة طويلة بهذا الخصوص أقرت الجمعية علي وجوب إلقاء القرعة وبعد سحبها وقف الرئيس، وقال:

- أخبركم أنّ القرعة وقعت علي أحدنا "غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير".

.. فلم أتكلّم، ولكنني تبسمت واكتفيت بانحناء رئيسي، وبعد ذلك وقفنا للانصراف وقد تبلج الصباح.

.. وبعد هذا بضعة أيام بلغت مدينة "بترسبرج" بعد انتصاف اللّيل بساعتين، وذلك في شهر سبتمبر وكان الجوّ ملبداً بالغيوم، وأثوابي مبللة، من تساقط الأمطار، والريح تثور عاصفة، وأعضائي متيبسة من الجلوس خمسة أيام متواصلة في قطار مزدحم بالمسافرين، فأخذت أسير في شوارع المدينة قاصداً منزل بعض الأصدقاء الذين سيكونون لي عوناً في إنجاز مهمتي، فلمّا بلغت جوار نزل كبير من نزل العاصمة شاهدت علي ضوء مصباح الشارع شبهاً يجري علي مقربةٍ مني فتأمّلته فإذا هو رجل قصير القامة، كبير الرأس، براق المقلتين نظر إليّ نظرة حادة، ثمّ سار في طريقه لا يولي علي شيء.

فلم يعترني من ذلك أقلّ خوفاً أو قلق لأنّه كان بيدي جواز رسمي من الحكومة ذكر فيه أن اسمي "إيفان إيفانوفتش" من أحد الرعايا الروسيين مولود في "أودسا"





ومقيم حالياً في "مونيخ"، وأني عائد إلى "بترسبرج" للبحث عن عملٍ. وفضلاً عن كلِّ ما تقدّم فإنّي كنت متنبّكراً أشدّ التنكر إذ قد حلقت لحيّتي وشاربي، وتزّينت بزي غريب كنت معه في مأمن من اكتشاف حقيقة حالي حتّى أنّ جواسيس السفارة الروسية في "لندرا" لو رأوني في تلك الحالة لم تداخلهم ريبة في أمري، ولذلك كنت في غاية الأمن والاطمئنان.

وما لبثت حتّى بلغت عطفة في الشارع دخلت منها إلى زقاق ضيقٍ إلى أن بلغت الشارع المُقابل، فوقفت أمام بيت بجانب حانوت كبير وقرعت الجرس فلم يكن سوي مثل غمض الجفن حتّى فتح الباب بيديّ خفيفةٍ دخلت، وصندوقتي بيدي فوجدت نفسي في موضع ظلامه دامس تكاد تلمس ظلامه بأناملك، فوقفت حائراً لا أدري كيف أسير؟ وماذا أفعل؟ وبينما أنا كذلك إذا بيديّ وضعت عليّ كتفي، وصوت رجل بجانبني يقول همساً:

- أهلاً وسهلاً بصديقنا الذي بلغ الآن "بترسبرج" تقدّم واصعد السلم إلى الطابق العلوي حيث أعددنا لك سائر وسائل الرّاحة.

فلمّا بلغت المنزل في الطابق العلوي وجدته رحيباً جميلاً فما جلست في غرفة الجلوس حتّى عرفني الرّجل بنفسه، فإذا هو المسيو "كولد نبرغ" أحد طلبة الطب في جامعة "بترسبرج"، ثمّ عرفني بصديق له هناك وهو صاحب مخزن الحلوى، وفيما نحن كذلك إذا بسيدةٍ هيفاء قد أقبلت علينا فقال لها "كولد نبرغ":

- أحضري يا عزيزتي "أولغا" الطعام لضيّفتنا لأنّه لا بدّ أن يكون جائعاً.

.. فأرسلت إليّ السيّدة نظرة صرخت بعدها صرخة الدهشة والابتهاج، لأنّها كانت شقيقيتي "أولغا" بعينيها فلمّا تفرّست في لحظة عرفتني وجرت إليّ كالسهم المنطلق



فطوقت عنقي بيديها اللطيفتين، ولبثنا كذلك دقيقة من الزمن وكلانا يكاد يغمي عليه من شدة الجذل، وكانت شقيقتي لم تعلم حتي الآن ببقائي علي قيد الحياة طانة أني ميت، أو لا أزال في "سيبيريا" لأنني كنتُ أنتحل أسماء مختلفة، فجلسنا نقص علي بعضنا حديثنا وما جري لنا أثناء هذا الغياب الطويل، فعلمت أنها سجنحت في قلعة "بطرس وبولس" بضع سنوات بحجة أنها من صاحبات المبادئ السياسية المضرة بحقوق الأمة والدولة، ولكنّها لم تحاكم قط بل لبثت هذه السنين علي هذه الحال إلي أن أصيبت بحُمى التيفود فأخلي بعد ذلك سبيلها، فخرجت إلي العالم وهي تحصل قوتها يشغل يديها، وبعد هذا ببرهة وجيزة من الزمن تزوّجت بـ"كولد نبرغ" الذي هو أيضاً من أعضاء الجمعية، وأدخلت نفسها بين عداد النهلست لتأخذ بثأرها عمّا لحق بها من الإهانة والظلم أثناء هذه السنين الطوال فكانت من أجرأ الأعضاء وأشدهم إقداماً وأثبتهم جناناً حتي حيرت عقول ذوي النّهي⁽¹⁾.

وبينما كنت أقصّ عليها حكايتي، وإذا بالباب الخارجي قد فُتح بمفتاح من الخارج، ورجل صعد السلم صعوداً سريعاً ودخل علينا وهو يتنفس تنفساً سريعاً، ويده علي جانبه من شدة الإعياء، فنظرنا إليه فإذا هو رجل متوسط القامة، أسود الشعر، ذو عينيّن براقّتين، ففتح باب المنزل بسرعةٍ شديدةٍ، ثمّ التفت إلي الحضور، وقال:

- حذار.. حذار فإن البوليس قادم في هذه الدقيقة للتفتيش بمنزلكم.

ثمّ التفت نحوي، وقال:

"اختبئ وإلا أصبحت في عداد الأموات.

(1) النّهي: من يبلغ الغاية في سلامة التفكير. (المُعد).





.. ثُمَّ خرج من المنزل في طرفة عين.

.. فوقفت شقيقتي "أولغا" مذعورة وهي تصفق بيديها نادبة سوء حظها، وتقول

لي:

- أهرب يا "غورتشا كوف" .. أهرب لأنهم إذا وجدوك قضوا عليك فالهرب ..

الهرب.

.. ولكن "كولد نبرع" التفت إليّ بتأن قائلاً:

- لا مجال الآن للهرب، لأنك إذا نزلت من هنا ألقوا القبض عليك عند

الباب، فليس لك إلى النجاة سوي طريقة واحدة وهي الاختباء، وليس من

موضع أفضل للاختباء من النافذة التي في منتصف الحائط فاصعد إليها وخذ

صندوقك معك.

فنظرت إلى النافذة وإذا هي عالية، وليس إلى بلوغها من سييل فتقدم إليّ "كولد

نبرع" وأحني ظهره وقال:

- أصعد عليّ إليها.

.. فلم يكن سوي ثانية من الزمن حتي علوت ظهره وبيدي صندوقي فرميت به

إلى النافذة وصعدت إليها بعد جهد عنيف.

.. ثُمَّ نزلت منها إلى سطح بجانبها وأغلقت خشبها وكانت الريح عاصفة

والسطح الذي وقفت عليه مائلاً حتي كدت أسقط من موضعي إلى أسفل، فتمسكت

بخشب النافذة إلى أن وجدت جداراً صغيراً إلى جانب النافذة فجلست عليه،

وأحنيت برأسي إلى الأمام فتمكنت بذلك من مشاهدة الغرفة التي كنت جالساً فيها

دون أن يراني أحد، فوجدت أنّ شقيقتي "أولغا" جالسة بجانب النّار وبيدها كتاب،



وإلي جانبها زوجها وصديقهما وكانت لوائح الهدوء والسكينة علي وجوههم ذلك تغريراً للقادمين.

وبعد وصولي إلي النافذة بدقيقة واحدة دخل خمسة أنفار من ضباط البوليس وما بلغوا باب المنزل حتي نظر إليهم "كولد نبرغ" وهو في أشد حالات الدهشة رافعا حاجبيه مقطباً جبينه، بينما أن "سافاروف" تقدّم وقابلهم نحو الباب بكلّ بشاشة وأنس وهو يرحب بهم بيديه ويدعوهم للدخول والتفتيش في الموضع، أمّا "أولغا" فإنّها أظهرت لقدمهم ذعراً عظيماً، وقابلتهم بأنفة وكبرياء من أجل هذا التطاول بدخولهم بيت قوم أبرياء من كلّ مكيدة أو دسيسة.

فوقف الضباط وهم حيارى يجيلون أنظارهم في نواحي الغرفة فلا تقع علي الشبح الذي أتوا لأجله وسط هذه الزوايح والأمطار، ثمّ حصل علي أثر ذلك مناقشة طويلة وأسئلة وأجوبة شتي لم أتمكّن من سماع شيء منها لشدة الزوايح والرياح، ولكني كنت أستنتج واستدل علي ذلك بما أمامي من حركات اليد وملامح الوجه وكان "سافاروف" أول من سأل فأجابهم بتأنٍ وابتسام دون أن يلوح علي محياه شيء من علائم الاضطراب، بينما أن "كولد نبرغ" كان واقفاً يدخن لفافته وظهره مسند إلي الحائط ينظر إليهم نظرة الرّجل البريء يضحكه مثل هذا الموقف الذي هو أدعي إلي السخرية منه إلي الخوف، ثمّ أتى دور شقيقتي "أولغا" فخاطبتهم كملكة لحق بها السخف حيث أنّهم تجاسروا علي إقلاق راحتها، ثمّ رأيتهما قد دفعت إليهم جوازها الذي فيه الإباحة لها بسكني "بطرسبرج" فأعاده إليها الضابط الذي استلمه بلطف وأدب، وهي خطة بعض ضباط الروس في كلّ حال حتي ولو كنت ذاهباً بين أيديهم إلي الشق.





ثُمَّ بعد هنيهة أمرهم الضابط الأكبر بينهم بتفتيش المنزل، فذهبوا إلي سائر جوانبه وأتحائه ولم يتركوا فيه زاوية أو خزانة أو صندوقاً دون أن يفتشوه، وبينما هم كذلك خطر لي أمر دُعرت لأجله ذعراً شديداً، وهو أَنَّهُ قد يخطر لهم تفتيش النافذة التي كنت جالساً بجانبها فألصقت جسدي بجانب الجدار من وراء، ولم أكد أفعل ذلك حتي سمعت فتح النافذة ورأيت رأساً مطلاً منها يُحدق في ذلك الظلام الدامس تحديق النسر، فلبست في موضعي لا أبدي حراكاً حتي إني قطعت التنفس، ولم يكن إلَّا كلمح البصر حتي عاد فأغلقها قائلاً:

- ليس من أحدٍ هاهنا .

ثُمَّ عاد إلي الغرفة وعاد الضابط إلي تفتيش سائر الأوراق التي هنالك فلم يعثروا علي شيءٍ يلقي أدني شبهة في أمرهم، وبعد هذا العناء الشديد قفلوا راجعين فسمعت وقع أقدامهم علي السلالم، إلي أن بلغوا الشارع حتي لم يعد يسمع لأصواتهم شيء من الصدى، فنزلت إذ ذاك من مخبئي وتعانقنا لشدة جلدنا ولخلاصنا من الوقوع في شرك هؤلاء الأقوام، وبعد أن تحدثنا طويلاً ذهبنا للنمام ولكن "كولد نبرغ" لبث قائماً يحرس المنزل خوفاً من إعادة البوليس الكرة علينا.

وبعد بلوغي "بترسبرج" بثلاثة أيام كانت محطة السكة الحديدية مكتظة بأمرء المملكة، وأشرف البلاد، وكبراء الوزراء، وأعظم الحكام، ونخبة أعيان القوم قياماً بفروض الوداع للقيصر في هذا السفر الميمون والعساكر والفرسان علي جانبي الطريق لأداء التحية العسكرية، ولَمَّا تحركَ القطار اهتزت جوانب الفضاء من هتاف القوم الذي بلغ عنان السَّماء فجري القطار الهويناء وكان مؤلفاً من خمس



عربات تشغلها أعضاء العائلة القيصريّة وحاشيتها الكبيرة، وفي جملتها وزير المالية والداخلية، والجنرال “بيلي” وزير الجاسوسية وغيرهم من أصحاب المنزلة السّامية والمقامات السياسيّة، وأمّا العربية السّادسة التي كانت وراء القاطرة فهي المطبخ الإمبراطوري وتوابعه وكان في جملة خدمته أنا وصهري “كولد نبرغ”.

أمّا الطريقة التي تمكّنا بها من الدخول في عداد خدمة المطبخ الملكي أثناء هذا السفر فهي من جملة أسرار التهلست العظيمة إلّا أنّي أكتفي بأن أوضح أنّ خادمين من خدمة المطبخ مرضا أو تمارضا في اليوم التّالي بعد وصولي إلي “بترسبرج” وأنّ صديقنا “سافاروف” صاحب معمل الحلوى الذي هو جار “كولد نبرغ” أرسلنا لنكون بدلاً منهما، وكان في جملة الخدمة الآخرين أحد أعضاء البوليس السّريّ متتكرراً بزي الخادم للمائدة الإمبراطورية، وعليه كنا علي أشدّ الانتباه والحذر.

فسار بنا القطار يقطع البيد والقفار وينهب الأرض نهباً⁽¹⁾ في تلك السهول مترامية الأطراف بين هضاب “فالدي”، ونهر “الفلوكا”، وكانت الاحتياطات التي اتخذها القوم لوقاية القيصر في هذا السفر بالغة غاية الشدة والحذر، حتّى أنّ سائر الخطوط الحديدية كانت ملئي بالعساكر الكثيرة علي جانبيها في أثناء هذه المسافات الشاسعة بين “بترسبرج” و موسكو، وهتاف الترحاب والدعاء باليمن والإقبال متواصل علي الدوام حتّى أنّه لم ينقطع دقيقة قط، ولمّا بلغنا موسكو لم يقف بنا القطار بل واصلنا المسير علي خط “تمبوف” في أوساط روسيا.

وبعد نحو نصف اللّيل بساعتين ذهب أكثر الخدمة للنّوم ليريحوا أجسامهم ساعة من الزمن، ولم يبق منهم معنا سوي اثنين فقط، فوقع لي إذ ذاك أن أحمل شيئاً

(1) (القطار) ينهب الأرض نهباً : أي سار عليها وقطعها بسرعة قُصوى. (المُعد).





من الخمر المعتق إلى المائدة الإمبراطورية حيث تناوله مني عند الباب البوليس السري المتنكر، فتمكنت إذ ذاك من إجمالة الطرف لحظة داخل غرفة المائدة فرأيت أنَّ الإمبراطورة ووصائفها قد ذهبن إلي غرفهن الخاصة بالنم، وأنَّ جلالة القيصر كان جالساً مع اثنين من كبار الوزراء يدخلون ويشربون الخمر، فعدتُ إلي عربة المطبخ أشتغل بتنظيف بعض الآنية الذهبية، و إذا بـ"كولد نبرغ" قد دخل عليّ مقفلاً الباب وراءه، ووجهه شاحب كأوجه الموتى، والعرق البارد يقطر من جبينه، فالتفتُ إليه مدعوراً، وقلت له:

- ما وراءك يا "كولد نبرغ" ؟

.. فأخني رأسه عليّ وهمس في أذني قائلاً، وهو يرتجف:

- إنَّ الآلة قد وضعت وضعتاً عمودياً.

- منذ كم من الزمن ؟

- لا أدري تماماً ولكنني أظن منذ نحو ربع ساعة.

.. فلم أتوقف بعد هذه اللحظة قط، بل فتحت الباب وسرت إلي الجهة المركزية من العربات حيث كانت هنالك خزانة فيها أنواع الحلوى فنظرت إلي الأسفل فوجدت في قاعها قطعة من السكر هرمية الشكل صغيرة الحجم أحضرتها معي من "لندرا" ولا يمكن لأحد أن يشربه في أمرها شيئاً علي الإطلاق، حتي أن جانباً منها كسر من جهة الرأس واستعمله الطباخ في تحلية الطعام، وكانت لفافة الورق الزرقاء التي يلف بها السكر لا تزال حول الأجزاء الباقية فلم يكن هنالك من شيء يميزها عن غيرها من نوعها، ولقد كنت أخذت سائر الاحتياطات في أثناء هذا السفر لإبقاء هذه القطعة مسندة أفقياً فاستنتجت أنَّ أحد الخدم فتح الخزانة منذ بضع دقائق وأنَّه



لَمَّا وجدها تروح ذهاباً وإياباً بارتجاج القطار، وضعها وضعاً عمودياً لكي لا تتحرك، ولَمَّا لمستها لكي أعيدها إلي وضعها الأصلي الأفقي وجدت أن أصابعي لمست مادة رغوية كثيفة فأيقنت عند ذلك أنه لا يمكنني تأخير الخطب، فقفلت راجعاً إلي موضعي حيث كان "كولد نبرغ"، فسألني:

- ماذا نفعل الآن ؟

فأجبته علي عجلٍ :

- ليس لنا الآن سوي سبيل واحد للخلاص .

- وما هو ؟

- أن نقفز من القطار طلباً للنجاة !

ثُمَّ تطلعنا من النافذة إلي الخارج فرأينا أننا قد بلغنا محطة تبعد عن "بوركي" نحو عشرين ميلاً، أي بجانب الموضع الذي عيناه لضرب الضربة القاضية فيه، وكان في المطبخ الخادمان الآخرون يدخنان ويشربان "الفودكا" فقلت لـ "كولد نبرغ"، بصوت عال لكي يتمكّن الخادمان من سماعنا :

- تعال ننظر إلي هذه المحطة فإن بجانبها بلدة أعرفها يوم كنت يافعاً.

ثُمَّ خرجنا من المطبخ وفتحت باب العربة وكان القطار سائراً بسرعةٍ شديدة، والظلام حالكاً والأمطار تتساقط بغزارة، فقلت لـ "كولد نبرغ":
- أتبعني.

.. ثُمَّ قفزت من جانب العربة إلي الخارج فشعرت علي أثر ذلك بلطمة علي رأسي، ثُمَّ فقدت الشعور ولم أعد أع شيئاً، ولَمَّا عاد إلي رشدي رأيت





”كولد نبرغ“ واقفا فوق رأسي، ونحن في أرضٍ مملوءة بالأعشاب، فتطلعت وإذا بالفجر قد انبثق.

.. فوقفت علي قدمي أترنح كالسكران، ثُمَّ التفت إلي ”كولد نبرغ“، قائلاً:

- ولكن ماذا جري للقطار؟

.. فقال لي وهو يهز كتفيه:

- كيف أعلم؟

.. ثُمَّ أشار بعد هذا بيديه إلي رزمة من الثياب علي جانب الطريق، قائلاً:

- إن إخواننا في ”تمبوف“ لم ينسونا.

.. فقلت له بلهفة:

- أتمكنك من أن تجدها؟

.. فقال:

- نعم.. ولقد كانت مودعة في هذا الكوخ الحقيق الذي بجانبنا.

.. ولم يمض سوي بضع دقائق من الزمن حتي خلعنا ثيابنا وارتدينا الثياب الرثة

التي وجدناها في جوار ذلك الموضع، وبذلك تقمصنا في مثل غمض الجفن من

خادمين لجلالة القيصر إلي فلاحين فقيرين وبيدنا جوازان كنا قد حصلنا عليهما قبلاً

فيهما أسماء منتحلين، وإننا نتجوّل في تلك المديرية طلباً للأشغال.

.. وبعد الجولان من موضعٍ إلي آخر بلغنا أخيراً بلدة ”أركاداك“ حيث نزلنا ضيوفاً

في بيت العمدة الذي كان في عداد جمعيتنا، وكانت الاحتياطات التي اتخذتها

جمعية الثورة في ”تمبوف“ لتسهيل الهرب لنا بالغة غاية الإلتقان والعناية، فإننا



بعد أن تركنا البلدة المُشار إليها بقليل، وجدنا هنالك عربة نقل تنتظرنا فركبنا فيها ونحن ننتقل من بلدةٍ إلى أخرى، إلي أن بلغنا مدينة علي الحدود تسمي "فريمبالن"، وصلنا منها إلي "كنغرسبرغ" وسافرنا من هناك إلي إنجلترا، وكان البوليس أثناء هذا السفر كُلِّما بلغنا بلدة يفحص جوازنا فيجده علي غاية ما يرام من إتباع الأصول المرعية الإجراء في روسيا، وقد اشتريت أثناء السفر في روسيا بعد نزولنا من القطار الملكي بعض أعداد من الصحف الروسية كـ "النوفو فريميا" و "موسكو جازيت"، و "نسكوي بشالا" فلم يكن في أحدها ذكر قط للرحلة الإمبراطورية، وذلك لأنَّ وزير الداخلية أصدر أمراً قاطعاً يمنع فيه الصحف الإيماء إلي الحادث الذي لم أعلم بشيءٍ من تفاصيله إلَّا بعد عودتي إلي إنجلترا.

.. ولَمَّا بلغت "لندرا" تلقاني الرئيس "بتروف" بالبشاشة والترحاب، ثُمَّ أطلعني علي أحد أعداد صحيفة "التيمز" الشهيرة، فكان فيها تحت العنوان الآتي بياناً موجزاً للفاوجة:

(فاجعة عظيمة في روسيا : مكيدة ضد القيصر)

(حدث عند بلوغ القطار الإمبراطوري محطة "بوركي" فاجعة أليمة اهتزت لها جوانب الإمبراطورية الروسية، وهلعت قلوب الوزراء والحكام لهذا الخطب الجلل، وذلك أنَّ القطار الذي يقلُّ جلالة القيصر وزوجته ووزراء الدولة وعظماء الأمة نسف بالديناميت نسفاً فتحطمت سائر عرباته واحترق أكثرها وقتل عشرون رجلاً. وجرح عدد غير من الركاب، وفُقد اثنان من الخدم، أمَّا الأسرة الملكية فقد نجت من هذا الخطب وكانت نجاتها أعجوبة عظيمة فإنَّ الديناميت حطَّم في وسط القطار موضع الانفجار وعطل السكة الحديدية التي أسفله وما جاورها وفتح فيها فوهة كبيرة فحفر





الأرض حفراً وسحق القضبان الحديدية الكثيفة، أمّا البيان الشافي بهذا الخصوص فلم يرد منه شيء حتى الآن وذلك لأنّه قد صدرت الأوامر بعدم نشر شيء من هذا القبيل إلي أن يتم التحقيق بشأنه، وقد أُلقي القبض علي سائر من بقي في الخدمة أحياء، وإدارة البوليس توالي البحث بجهد لا يعرف الملل ونشاط لا يدركه خمول، ومتى انجلت الحقيقة أتينا علي تفاصيلها.

ولابدّ من الإيماء هنا إلي أن هذه المكيده كانت أعظم المكائد التي قام بها النهلست وأدقها إحكاماً وأوفرها اتقاناً وأغمضها أسراراً فإنّه كان وسط ذلك الهرم الصّغير من السكر آلة محكمة الوضع والإتقان قام علي عملها أبرع العمال وهي مؤلّفة من ساعة أمريكانية صغيرة يتصل بها أنبوبان من الزجاج يتضمنان سائلين من أشدّ السوائل المعروفة وأهلكها انفجاراً ، فإذا ما أديرَت السّاعة بالزنبرك ووضع الهرم وضعاً أفقيّاً اقتضي لإتمام العمل وانكسار الأنبوبتين وتلاقي السّائلين المتفجرين نحواً من أربع وعشرين ساعة أمّا إذا وضع الهرم عمودياً دارت السّاعة وانكسر الأنبوبان واتحد السائلان وحصل الانفجار الهائل في نحو ربع ساعة فقط، وقد كان الاختراع علي هذه الصورة حتي أني إذا لم أتمكن من دخول القطار الإمبراطوري في جملة الخدمة أدخلنا الآلة مهربة مع لوازم الطعام وأنواع الحلوى موضوعة وضعاً عمودياً فتنفجر بعد ذلك بربع ساعة، أمّا خلاص الأسرة الإمبراطورية وعدم ذهابها ضحية هذا الانفجار الهائل فيعلّل عنه بهذا الانفجار العمودي الذي ذهبت فيه قوّة الديناميت بين الجو والأرض، أمّا لو بقيت الآلة علي وضعها الأصلي وانفجرت انفجاراً أفقيّاً لم يسلم من سائر الذين كانوا في ذلك القطار شخصاً واحداً ولأمتست سائر العربات هباءً منشوراً.



وبعد أن انتهيت من مطالعة المقالة تقدم إليّ "بتروف" وعانقني طويلاً، ثُمَّ قال :
- أهنيء صديقي "غورثشاكوف سرجيوس فلاديمير" لانتخابه رئيساً عاماً وجنرالاً
للنهلست في سائر أنحاء أوروبا.
فوقفت مذعوراً، وقلت له :

- ماذا تقول ؟

.. فدفع إليّ قراراً رسمياً يعلن أنّ اللجنة العاملة قد انتخبني في اجتماعها الأخير
زعيم النهلست العام، وأنها طالبت "بتروف" بالذهاب إلي روسيا لقضاء مصالح
خاصّة تتعلق بالجمعية.





الفصل الثاني عشر

الانتقام الرهيب !!

Terrible revenge !!



بينما كنتُ تلك الليلة جالساً مع "بتروف" في نادي الثورة أستريح من مشاق ذلك السفر الذي دوت لنتائجهُ أنحاء أوروبا دويّاً عظيماً، هممت بالانصراف فأمسكني "بتروف" وقال: ستبقي هذه الليلة معنا للعشاء وخصوصاً لأننا في انتظار أخ صدوق، ثُمَّ دفع إليّ كتاباً مُحَرَّراً بالأحرف النهلستية التي لا يأتي لأحد حلُّها سوانا فإذا فيه ما يأتي:

(إنَّ "مزراكي أوبندورف" الذي سيصل إليّ "لندرا" مساء الخميس القادم هو أحد الأعضاء المهمين في لجنة الثورة في موسكو، ولقد سجن مرّتين متواليتين إحداهما في "شلسبرغ"، والأخرى في سجن القديسين "بطرس وبولس"، وأُتيح له الآن الهرب، ولقد بعثنا به إليكم لأننا علي ثقةٍ أنّه سيكون من الأعوان الأمناء الذين لخدماتهم شأن كبير، وذلك لما هو عليه من الجرأة والإقدام ومعرفة كثير من اللغات الأوروبية التي تسهل عليه بلوغ المُراد، وبما أنّه ذو ثروة كبيرة فهو ليس في حاجةٍ إلي



شيء من المال، أو تقديم معونات له من اللجنة العاملة، ومتى بلغ "لندرا" يسلمكم كتاباً منا لتعريفه بكم.

رئيس جمعية الثورة في موسكو

« مكس هونفرسكي » (.

فأرجعت الكتاب إلي «بتروف» وقد أحنيت رأسي علي كرسي مريح ولبثت كذلك أدخن لفاتي وأنا أتأمل في الوقائع التي حدثت علي يدي منذ عهد قريب، وإذا بـ«بتروف» وغيره من أعضاء اللجنة يرحبون بالزائر الجديد وهم يتكلمون الروسية، ثم دخلوا جميعاً وعرفوني به، فإذا هو شاب قوي القامة يناهز الثلاثين سنة من العمر، ذو عينين صغيرتين براقيتين، فنزع عنه وشاحه وجلس بجانب النار، ثم أخرج من جيبه كتاباً وسلمه لـ«بتروف».

ولمّا جلسنا علي المائدة كنت بجانبه فأخذ يحدثنا عن حركة الثورة في روسيا، وتنبه خواطر رجال الأمة إلي المطالبة بحقوق الشعب، وكان في انتقاده الحكومة شديد اللهجة، حاد اللسان، جريء الجنان، وكان كلامه فصيحاً، وحديثه يأخذ بمجامع القلوب والألباب، وبعد أن انتهى من كل ذلك سألته أن يقص علينا شيئاً من أمره، وما جري له، فقال: إن المصائب التي حلّت عليه لو وقعت علي جبل لتصدّع، ثم نظر إلي «بتروف»، وقال:

- أتعرف سجن « شلسبرغ » المظلم وغرفته الرطبة التي هي تحت الأرض ؟

.. فتأوه «بتروف» قائلاً:

- كيف أنسي ذلك الجحيم الأرضي وقد سجنت فيه مع امرأتي، وذقت مرارتها، وشدة بلواها، ولقد أودت هذه الحال بامرأتي العزيزة إلي الجنون، وها هي الآن في مستشفى المجانين !

فالتفت «أوبندورف» إلينا قائلاً:





- إنَّ الجنون هو نصيب أكثر أولئك التعساء الذين قضى عليهم الظلم والاستبداد بأن يدخلوا ذلك المكان الهائل، ولقد كاد يعتريني الجنون أثناء سجنني فيه، ولكنني كنت علي الدوام أتمشي في غرفة السجن أنظم الشعر، وبقيت علي هذا المنوال أسابيع وأشهرًا ولولا ذلك لكان فيَّ مسٌّ من الجنون، ولبثت صابراً علي مُر البلوى إلي أن فيض الله لي الهرب، وكيفية ذلك أنَّ فريقاً كبيراً من المجرمين القتلة أرسلوا إلي هناك من «بطرسبرج» حتي غصت بهم غرف السجن فقلّني السَّجان من موضعي إلي غرفةٍ من غرف البرج الكبير هناك، وهي غرفة بسيطة لها نافذة تطل علي الجسر (الكوبري) وهي عالية، ولكن في أسفل النافذة أنبواباً كبيراً للماء ينحني علي سطح مائل لا يتعذر علي الجريء استعماله سبيلاً للهرب، ولمّا كانت هذه الفرصة هي الوحيدة التي تمكّنت بها من الهرب عزمّت علي المخاطرة بحياتي لأنّ الموت أفضل من ذلك السجن الرهيب، ولذلك اصطنعت حبلاً من ثيابي وتدلّيت علي الجسر الذي يصل إلي السجن بالضفة الأخرى من النهر، وبينما كنت أهني نفسي علي هذا الحظ السعيد الذي كان لي، رأيّني أحد الحُراس وصاح برفاقه لإتباعي، فجريت كالسهم إذا انطلق فجرى ورائي بضعة نفر من الحرس ولكنهم لم يتمكنوا من إتباعي إذ أني بعد بضع دقائق اختفيت بين الأشجار الغضة وأصبحت في مأمن منهم، وما لبثت في مخبأٍ بضع دقائق حتي رأيّت نحو عشرين فارساً من حرس الفرسان ينهبون الطريق نهباً، فلمّا تواروا عن الأبصار خرجت من مخبأٍ وقصدت جانب نهر «النيفا» فرأيْتُ علي الشاطئ المُقابل ما ظننته سواري مراكب وكان بجانبني عدد غفير من البحارة فعرضت «روبلين» علي أحدهم لكي يقطع بي النهر إلي الضفة الأخرى، ولمّا سألني الرَّجل الباعث علي ذلك، أخبرته أنّ هنالك مركباً أحبّ ركوبه، فنظر إلي الرَّجل شزراً وسألني: من أنا، فأخبرته أنّي أحد الفعلة، فحدّق بي كمّن اشتبه بأمرى، فخطر لي أن أجري ركضاً تخلصاً من هؤلاء الأقوام، ولكنني رأيّت بعد النظر أنّ ذلك من المُحال لأنّ عدد البحارة غفير وقد أصبحوا محيطين بي



من كُلِّ جانب، فاضطرت أخيراً إلى الإقرار بحقيقة أمري، فتارت في قلبه عاطفة الحنان عليّ وقطع بي النهر، ولمّا بلغت الضفة الأخرى نظر إليّ قائلاً:
- لا تقل لغيري بعد الآن أنّك تقصد مركباً في هذه الضفة لأنّ ذلك كان منذ نحو عشرين سنة، أمّا الآن فلا يوجد فيها مركب واحد أبداً.

.. فصرفت ذلك النّهار وأنا تائه بين الأدغال، ولَمّا أَمسى المساء بلغ التّعب والجوع مني مبلغاً عظيماً فأخذت أسير طلباً للوصول إلى قريةٍ من القرى، فلمّا وصلت إليها قرعت أبواب القوم فلم يكن منهم من يقبلني ضيفاً في بيته، وأخيراً ذهبت إلى بيت عمدة البلدة ولمّا فتح لي الباب أخبرته أنّي أحد طلبة العلم في «بطرسبرج» حضرنا للنزهة، ثُمَّ أنّ أصحابي عادوا وتركوني بعد أن غلب الكرى⁽¹⁾ أجفاني من وفرة الفودكا التي تعاطيناها، فأخذني الرّجل إليه، وفي صباح اليوم التّالي استأجرت قارباً وبلغت «بطرسبرج» فنزلت عند بعض الأصدقاء الذين آووني، ولبثت هناك آمناً وبعد أن قتش عليّ البوليس جهده علي غير طائل سافرت من «بطرسبرج» كأحد العمّال إلى أن بلغت «لندرا».

ولمّا عدتُ إلي منزلي تلك اللّيلة طلبت من «أوبندورف» أن ينزل ضيفاً عندي، فقبل ذلك شاكراً، فكنا نجول سوياً، ونقوم ببعض الخدمات التي تطلبها جمعيتنا معاً فوجدته شديد العزم، رابط الجأش، كثير الحزم والإقدام فتمكّنت بيننا عري الصداقة، وكنا نذهب إلى نادي الحُرّيّة سوياً حيث نلتقي بجمهور من أعيان الإنجليز لانكليز وعظام النهلست.

وحدث ذات يوم بينما كنت جالساً وحدي في منزلي أن أحد سعاة البريد قد دخل عليّ ودفع إليّ كتباً عديدة باسمي واسم صديقي «أوبندورف»، وبينما كنت أتأمل فيها وجدت أحدها باسم «أوبندورف» معنوناً إلى السفارة الروسيّة وعليه

(1) الكرى: النوم، أو التّعب. ران الكرى في عينيه: إذا غلبه التّعب. (المُعد).





طابع حكومة روسيا، فعلمت أن الساعي قد أحضره إلي منزلي خطأ، فأقفلت الباب وفضضت الغلاف فإذا فيه ما يأتي:

(عزيزي "أوبندروف" ..

إنّ التقارير التي بعثت بها إلينا بعد بلوغك "لندرا" أتت مصداقاً لما تكهننا بخصوصه، وهو أنّ الفاجعة التي حصلت لجلالة القيصر إنما هي مكيدة نهلست "لندرا" قام بإخراجها من حيز الخيال إلي عالم الحقيقة ذلك المارق "غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير" الذي سينال يوماً جزاء ما جنت يداه، ولقد رفعنا خلاصة تقاريرك إلي وزير الداخلية ولا يمرّ زمن طويل حتي يصدر الأمر بتعيينك رئيساً للبوليس السري في "لندرا"، ومتى أنجزت مهمتك هناك تعود إلي "بترسبرج" مستشاراً لوزارة الداخلية، ولقد عُقدت النية علي التوجه إلي باريس بعد أسبوع من الزمن فعليك بإرسال سائر التقارير باسمي إلي نزل الأمراء في شارع اللوفر، وسيكون قدومي إلي عاصمة الفرنسيين صاعقة تنقض علي أعدائنا من حيث لا يدرون.

الجنرال "ملاكوف".

.. هذا هو عدوي الألد "ملاكوف" الذي أوقعني وشقيقتي تحت أفاعي السياط فأدمني الجلد، وكان باعثاً علي إرسالي إلي أقاصي "سيبيريا"، ذلك المنفي الذي لا تزال أهواله مطبوعة علي مخيلتي كأنّها طبعت بنار.. هو نفسه الذي تمّ تعيينه رئيساً لبوليس "بترسبرج"، والآن قادم ليقع في الشراك التي نصبها لنا، وهذا "أوبندروف" الذي رجبنا به ترحاب الأخ بأخيه، والصديق الودود بصديقه الودود، لم يحضر إلّا ليكون حية تسعي بين أعضائنا، ورقبياً علي حركاتنا، وجاسوساً علي أعمالنا، فذهبت توّاً إلي نادي الثورة وزرعت كتاب الدعوة علي أعضاء اللجنة العاملة فانعقدت الجمعية تلك الليلة وحكمت علي "أوبندروف" بالإعدام، فلمّا عدتُ في المساء إلي



منزلي وجدت كتاباً من "أوبندروف" يقول فيه أن طرأت طوارئ تضطره إلى تأجيل حضوره إلي نحو أسبوعين.

وبعد أسبوع من الزمن توجهت إلي "باريس" فوجدت لجنة الثورة هنالك في اضطراب شديد فإن "ملاكوف" قد بلغ المدينة مساء اليوم الماضي، وقد علمت جواسيسنا هناك أن المسيو "لوران" رئيس بوليس المدينة زاره في نزل الأمراء ولبث معه برهة طويلة في حديث ذي شجون، الغرض منه إيجاد وسائل سرية يمكن أن ييني عليها حكم في تسليم بعض أعضاء الثورة هناك إلي الحكومة الروسية وإعادتهم إلي تلك البلاد، ومعني ذلك الحكم علي هؤلاء الأقسام الأبرياء بالنفي والأشغال الشاقة في مناجم "سيبيريا".

ولمّا نزل "ملاكوف" في نزل الأمراء ادعي أنه تاجر حضر لترويج النفس من مشاق الأعمال التجارية، ولم يتظاهر بشيء من البذخ والإسراف، بل كان عنده خادم واحد فقط يقوم علي خدمته ويحترمه كثيراً أحضره معه من روسيا، وكان "ملاكوف" يتعهد مواضع اللهو ومنتزهات المدينة ويتغيب عن المنزل أياماً بطولها دون أن يعرف له قرار، ومتى عاد إلي النزل حضر إليه جماعة من الأقسام بثياب رثة ينثر الدنانير بين أيديهم نثراً، إذ كانوا يدعون أنهم أقوام قد جار عليهم الدهر، وعضهم القهر بنابه، وأنهم أتوا يستغيثون بهذا الجواد الكريم، والمحسن العظيم، وما هم سوي ليفيه وآلات مكائده.

وبينما كنت سائر ذات يوم في شوارع المدينة شاهدت الجنرال "ملاكوف" راكباً عربة وذاهباً للتنزه إلي "بولونيا"⁽¹⁾، فخطر لي خاطر غريب فسددت خطواتي إلي نزل الأمراء، وقرعت باب منزل الجنرال "ملاكوف"، وإذا بخادمه قد فتح الباب وهو

(1) بولونيا Bologna: مدينة إيطالية، تأسست في عام 1088 م، وتعتبر من أهم المنارات العلمية إبان عصر النهضة. وهي إحدى أكثر المدن الإيطالية الأكثر تقدماً. (المُعد).





شاب نحيل الجسم، أصفر اللون، فقال لي أن سيّده قد خرج ولا يعلم متى يعود، فأخبرته أنني قد أتيت لغرض مهم ولابدّ لي من الانتظار إلي أن يعود، ثُمَّ وضعت في يدّ الخادم جنيتهاً، فمَرَّ بي من القاعة وأدخلني غرفة فسيحة كبيرة تطل على الشارع، وكانت تلك الغرفة للجلوس والكتابة معاً، فلَمَّا انصرف الخادم وأغلق الباب ورائه تلفت فإذا بجانبي طاولة كبيرة عليها كتب شتي ففتحت واحداً منها وإذا هو تقرير مطول عن أعضاء لجنة الثورة في "باريس" من أحد جواسيس الجنرال، وذلك علي أوراق مطبوعة فيه الأسئلة الآتية:

(يجب أن يملأ فراغ الجواب علي هذه الأسئلة مرّة في الأسبوع).

(1) ما هو اسم الشخص الذي هو تحت المراقبة، و اسم أبيه، واسم عائلته سواء كان رجلاً أو امرأة ؟

(2) أين يسكن، وما أسم الحي، والشارع، والمنزل ؟

(3) أين التقيت به أولاً، وما هي الظروف التي رأيته فيها، وهل رآك هو نفسه ؟

(4) منذ كم من الزمن سكن في منزله الحالي، ومن أين أتى ، وماذا تعلم عن موضع سكناه السّابق ؟

(5) هل يسكن منفرداً، أو يسكنه أحد آخر، وإذا كان الأمر كذلك فَمَنْ يسكنه، وماذا تعلم من أمر هذا الرفيق ؟

(6) هل في خدمته أحد، وإذا كان الأمر كذلك فما اسمه أو أَسْمَاؤُهُم إذا كانوا أكثر من واحد، وإذا لم يكن له خادم فَمَنْ يرتب غرفته أو غرفه، وما هي الأشياء الموجودة فيها، ومَنْ تغسل ثيابه، وما اسمها، وموضع سكنها ؟

(7) هل يتناول طعامه في منزله أو في مطعم، وإذا كان الأمر كذلك فما هو ذلك المطعم ؟

(8) هل يتردد علي مكتبةٍ ما، وما هي الكتب التي استعارها أثناء الأسبوع ؟



(9) في أي ساعة يترك غرفته، وفي أي ساعة يعود إليها ؟

(10) كيف يصرف وقته في منزله ؟

(11) هل هو أعزب أو متزوج، وإذا كان الأمر كذلك فهل له أولاد، وكم عددهم ؟

(12) هل هو مغرم بامرأة، وإذا كان الأمر كذلك فمَنْ هي، وما هو منزلها، وأين يجتمعان ؟

(13) مَنْ يزوره أثناء الأسبوع، وفي أي وقت من النَّهار سواء كان قبل الظهر أو بعده ؟

(14) هل صرف أحد اللَّيل عنده سواء كان رجلاً أو امرأة، وإذا كان كذلك فمَنْ هو هذا الشخص أو الأشخاص وما موضع سكنهم ؟

(15) هل ترده رسائل أو صحف من روسيا ؟

(16) أي ساعة أشد موافقة لإلقاء القبض عليه ؟

.. وكانت الأجوبة علي هذه الأسئلة غاية في الدقة والإسهاب فلم يترك الكاتب تفصيلاً إلا أتى علي بيانه، ولا إفادة إلا أبان دقائقها، أمّا توقيع التقرير الذي كان بيدي فكان بإمضاء أحد الرقباء وعليه توقيع الجنرال «ملاكوف» إيماء إلي أنه طالعه ووافق علي صحّته.

.. وبينما كنت منهمكاً بمطالعة هذا التقرير، إذا بالباب قد انفتح ودخل علي الخادم، فذعرت من ذلك وأعدت الكتاب إلي موضعه، فتقدّم إليّ الخادم باحترام، وقال :

- أرجوك يا مولاي « غورتشاكوف سرجيوس فلاديمير » أن تترك الغرفة قبل عودة سيّدي.

.. فشعرت كأن صاعقة قد انقضت علي رأسي، وتفرّست بالرجل قائلاً :





- أتعرفني يا رجل ؟

.. فلم يجب علي سؤالي بالكلام، ولكنه أحني رأسه وأدي الإشارة النهلستية، فزادني ذهولاً ونظرت إلي الرجل، سائلاً:

- ما أسمك ؟ وكيف تأتي لك الوصول إلي خدمة رئيس الجواسيس ؟

- أسمى «جورج كراكوفتش» وقد انقضت الآن سنة من الزمن وأنا في خدمة الجنرال.

- هل تعلم مضمون الرسائل التي ترد علي الجنرال من جواسيسه ؟

- انسخ كل تقرير علي حده وأرسله إلي لجنة الثورة في «بطرسبرج».

- رأيت الآن بين أسماء الذين وقعت عليهم الشبهة من أعضائنا اسم «نبتوفسكي» أحد إخواننا فهلا بعثت إليه تحذيراً ؟

- أجل يا مولاي وقد باع الآن معمل التبغ الذي يملكه وهو مزعم علي الرحيل إلي «لندرا».

- ولكن ماذا جري بابنته «نينتا» ؟

.. وبينما همّ بالإجابة، وإذا بصوت وقع أقدام فتقدّم إلي الخادم، قائلاً:

- أرجوك يا مولاي أن تعجل فهو ذا الجنرال قد أتى.. العجل.. العجل.

.. ثم تقدّم نحوي وجذبني بيدي إلي غرفة مجاورة، وأقفل الباب فتمكنت بذلك من الوصول إلي السلم والنزول إلي الشارع دون أن ألتقي بالجنرال.

..ولمّا أرخي الليل سدوله جلست في غرفتي أتأمل بحوادث ذلك النهار، وأنه

لابدّ من التعجيل في رحيل «نبتوفسكي»، وإذا بأحد الإخوان من لجنة باريس قد قرع الباب شديداً، ثم دخل علي عجل، قائلاً:



- إنَّ بوليس باريس قد ألقي القبض علي «نبتوفسكي» وسائر أوراقه وأشياءه وفي جملتها قنابل ديناميت غير كاملة العدة.

.. فتطلعت إلي الرَّجل مذهولاً، وقلت:

- ولكن «نبتوفسكي» قد حذر وكان علي أهبة الرحيل من باريس !!

- ذلك صحيح ولكنَّه الآن في قبضة أيديهم.

.. فتفرست فيه وسألته نفس السؤال الذي لم يجيبني عنه خادم «ملاكوف»،
قائلاً:

- ولكن ما جري بابنته «نينتا» ؟

- خرجت من المنزل عصر أمس وحتى الآن لم تعد.

.. فتعجبت من تمكن بوليس باريس من العثور علي قنابل ديناميتية في منزل «نبتوفسكي» بعد أن وردته رسائل التحذير، واستنتجت بعد أعمال الروية أنَّ جواسيس السفارة قد وضعتها هناك عمداً بطرق سرية كما جري مثل ذلك قبلاً، فلبست ثيابي وتوجهت مع صديقي إلي موضع اجتماع الأعضاء لتداول في أفضل الوسائل لإنقاذ «نبتوفسكي».

وفي اليوم التَّالي حضرت محاكمة «نبتوفسكي» فوجدت المحكمة غاصة بالجماهير، وبينهم شهود من جواسيس السفارة الذين شهدوا بمعاينة القنابل في منزل «نبتوفسكي»، وكان بين الجمهور الجنرال «ملاكوف» لابساً ثياباً بسيطة، وهو يراقب سير المحاكمة باسمًا عن وجه يفتر سروراً بفوزه، ثُمَّ أنَّ بعضاً من رجال السفارة ذكر أنَّ «نبتوفسكي» من جملة الهاربين من روسيا لجرائم كبيرة، وإنَّ الحكومة الروسية تطلب تسليمه إليها بعد الذي بدا منه من صنع المفترقات والآلات المهلكة، فأيقنت عندئذ أن لا وسيلة لخلاص الرَّجل وأن نصيبه سوف يكون النفي إلي مناجم «سيبيريا».





..وبعد انتهاء المحاكمة توجهت مع صديق إلي إحدى المقاهي حيث اشترينا بعض أعداد من الصحف فرأيت في إحداها وهي «الأيكودي باري» ما يأتي :

(عشر الليلة الفاتئة أحد البحارة المسمي «ليبرنيه» وهو يصطاد سمكاً علي جثة فتاة التقطتها صنارته في نهر السين ولم يوجد في ثياب الفتاة ما يعلم منه حقيقة أمرها، وقد بعث بالجثة إلي غرفة الموتى إلي أن يجري بشأنها التحري اللّازم).

فلم نبطئ بعد هذا أن توجهنا إلي الموضع المذكور الذي هو وراء «نوتردام» فعلمنا من النظرة الأولى أنّ الجثة إنما هي جثة «نينتا» سيئة الطالع.

ولمّا وقفت علي هذه الحقيقة توجهت توّاً إلي منزل الجنرال «ملاكوف» فسلمني الخادم ورقة أسرعت إلي وضعها في جيبتي، وكانت تقريراً مفصلاً بخصوص سائر حركات «ملاكوف» أثناء الأربع والعشرين السّاعة الفاتئة.

ثمّ ذهبت بعد ذلك إلي نادي الثورة في باريس وعقدت اجتماعاً عاجلاً أتيت فيه علي بيان المهمة التي لأجلها أتيت «ملاكوف» بباريس، ووضعت أمامهم الأدلة والأوراق التي تثبت الجنايات التي قام بها الرّجل، فبعد مداولة طويلة حكم عليه بالإعدام وألقينا قرعة كالعادة.

وكان بين الأعضاء المجتمعين «جورج كراكوفتش» خادم الجنرال «ملاكوف» فمشينا سوياً بعد انقضاء الجلسة، ولما صرنا في خلوة نظر إليّ قائلاً :

- لقد جد عليّ من المشاغل ما يضطرنني إلي ترك خدمة الجنرال في أقرب وقت.

فتطلعت إليه قائلاً :

- إذا كان لابدّ لك من ذلك أفلا يمكن أن أحلّ محلّك ؟

- أجل ويمكنك إذ ذاك من مراقبته.



- وعلاوة علي ما تقدّم فإن بيدي شهادات تدل علي حسن سلوكي وخدماتي السابقة من أسيادي السّالفين.

.. فتأملني ضاحكاً، وأجاب:

- ممّن؟

- من البرنس «أوختومسكي».

.. فتبسّم وتابعنا سيرنا ولم يمر بعد هذا بضعة أيام حتي تمّ تعييني خادماً للجنرال «ملاكوف»، حيث تمكّنت أثناء ذلك من نسخ سائر التقارير التي كانت ترد عليه من عُماله السريّين رجالاً وسيدات.

وبعد نحو ثلاثة أسابيع عثرت بين أعداد الصحف التي كنت أشتريها من الباعة علي تلغراف منشور في صحيفة «التان» الشهيرة لمكاتبها في «بطرسبرج» يُفيد أنّ «نبتوفسكي» الذي أُلقي القبض عليه في باريس قد حوكم أمام مجلس عسكري، وثبّتت عليه تهمة محاولته اغتيال القيصر، فحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة في «سيبيريا».

ولم أكد أنجز مطالعة هذا التلغراف حتي قرع جرس الباب، فوجدت هنالك رجلاً قوي القامة يطلب مواجهة الجنرال، ويده صحيفة، وعليه ثياب رثة، فدخل إلي غرفة الجنرال وأغلق الباب ورائه، فبقيت جالساً إلي جانب الباب أنصت إلي ما يكون من أمرهما، وإذا بـ«ملاكوف» يقول للزائر:

- لقد ثبتت عليه تهمة محاولة الاغتيال ومتى علم جلالة القيصر ذلك انهالت علينا أنعاماته المتواليّة انهيال الغيث علي ما أبديناها من الدهاء.

.. فأجابته الزائر، قائلاً:

- ولكنّه دهاء لو علّمت سائر تفاصيله انقلبت علينا وبالأّ.





- ماذا يهمك أو يهمني لو خسر العالم نهليستياً من هؤلاء الطغام⁽¹⁾.

- قد يكون ذلك صحيحاً ولكن أنت تعلم يا مولاي الجنرال أننا لم نتمكن من إلقاء القبض علي هذا الرجل في باريس وتسليمه إلي الحكومة الروسية إلا بتضحية حياة ابنته «نينتا».

- إنَّ «نينتا» انتحرت انتحاراً وعلاوة علي ذلك فإنَّها دُفنت دون أن يعرف أحد جثتها.

.. فأجابه الزائر الذي لم يكن سوي أحد جواسيسه:

- إنَّ «نينتا» لم تنتحر ولكنها قُتلت قتلاً.

- كيف تعلم ذلك ؟

- إنَّ جواسيس الحكومة الروسية حاضرة في كُلِّ مكان، وكان أحدهم حاضراً لما رُميت إلي النَّهر وذلك الجاسوس الذي رأى ذلك هو خادمكم المطيع.

.. فأجابه الجنرال «ملاكوف» علي عجل:

- أخفض صوتك لأنَّ خادمي في الغرفة الأخرى فقد يتمكن من سماعك فارح السمع لما أقول لك تجد أني كنت في عملي مصيباً فإن لهذه الفتاة حبيباً يُسمي «مرلن» كان من جملة موظفي السفارة الفرنسية في «بترسبرج»، ولما كان الرجل يقدر أن يقوم لنا بخدماتٍ مهمةٍ تظاهرتُ بصداقته غير أني اكتشفت بعد وجيز من الزمن أنَّ الرجل يميل إلي آراء النهليستيين، وأنَّه أحد أصدقاء «نيتوفسكي» الأقدمين، ولقد تمكنت «نينتا» ابنته من معرفة شيء من أمري، وأنَّ لي علاقة بجواسيس الحكومة الروسية، فأغوت «مرلن» علي سرقة بعض الأوراق التي تتعلَّق بأبيها فإنَّه زارني مرّة فتركته وحده في غرفتي بضع دقائق من الزمن تمكن أثناءها من

(1) الطغام: أرذال النَّاس وأوغادُهم، أو الضَّعيف والرَّديء من كُلِّ شيء. (المُعد).



إحراز كتاب علي غاية من الأهمية، فإنه لو اطلع عليه القوم في فرنسا كان جزاؤنا الطرد من أرضها، لأنَّ في ذلك الكتاب تفاصيل المكيدة والشبكة التي ألقيناها للرَّجل بوضعنا قنابل ديناميتية في منزله، وأنت تعلم أنَّ وزارة الداخلية في «بطرسبرج» قد صاق صدرها من الإبطاء والتسويق فكان لابدَّ لنا إذ ذاك من إيجاد رجل يصح أن تلقى علي عاتقه مسؤولية ما.

- إذا ما ترمي إليه هو إيجاد رجل نهلستي يُذنب سواء كان مجرمًا أم لا.
- لقد أصبت كبد الحقيقة، ثُمَّ أفيدك أنَّي أخذت في مراقبة «مرلن» والفتاة حتي تأكدت أنَّ الشاب قد دفع الكتاب إليها دون أن يعرف هو نفسه ما يتضمنه، فكان لابدَّ لنا إذ ذاك من التوصل إلي طريقة نتمكَّن بها من لجم لسان تلك الفتاة، والطريقة الوحيدة الفعالة هي الموت، وعليه فإنَّي راقبتها حتي إذا ما كان علي مقربةٍ من نهر السين ...

- لا لزوم لسرد ما تبقي من الحديث لأنَّي تبعتك إلي هناك ظاناً أنَّك قد تكون في حاجةٍ إلي مساعدةٍ فرأيتك تدنوا من الفتاة بعد أن افترقت عن حبيبها ثُمَّ انتشلت الكتاب من جيبها ورميت بها إلي الماء.

- لو لم أفعل ذلك كانت النتيجة أنَّ الفتاة تذهب بذلك الكتاب إلي أحد أعضاء الاشتراكيين في مجلس السناتو في فرنسا فيأخذ ذلك الحزب بناصرها ويطرحون في مجلس الأمة أسئلة بهذا الخصوص عاقبتها علينا الويل والحرب والخذلان، فينكشف أمرنا ويسقط احترام مصلحة البوليس السري الروسي في عيون الأمة الفرنسية وتسلقنا صحفها باللسنة حداد ويحكم علينا بالطرد والخذلان.
.. فأجابه الزائر:

- أمَّا الآن فلا خوف علينا من ذلك، ولا نحن نحزن بل إنَّ جلالة القيصر سيكون لنا من الشاكرين ويغدق إحسانه علينا إغداق الكريم الجواد فتمتلئ جيوبنا بالدنانير





وتتألق صدورنا بالأوسمة وأني مقر لك يا مولاي بأنك أدهي دهاة السياسة، وأعدك أن لا نعود إلي ذكر هذا الحديث مرّة أخرى.

.. وعند ذلك سمعت صوت أقدام في الغرفة فتراجعت إلي الغرفة المحاذية فرأيت الباب قد فتح والزائر خارجاً منه إلي أن تواري عن الأبصار في أسفل الشارع، وبعد ساعة من الزمن دخلت علي الجنرال «ملاكوف» فوجدته قد استلقي علي مقعده في زاوية الغرفة، وأوراقه مبعثرة علي الطاولة وبينها مسدس، فلما رأني تفرّس فيّ، وقال:

- أهنأك أمر مهم جعلك تحضر إليّ؟

.. فأجبتة:

- لأمرٍ مهم جدّاً.

- وما هو؟

- لأستقيل من خدمة مولاي.

.. فنظر إليّ «ملاكوف» نظرة كلّها سخرية وازدراء، وأجاب:

- أأسمي ذلك أمراً مهماً؟ فأنت من هذه الدقيقة في حلّ من خدمتي، فأذهب وغداً أحضر من يقوم مقامك.

- أشكرك إذاً باسم مولاي الجديد.

- من هو هذا المولي الجديد الذي أشغاله السياسية تستدعي كلّ هذا الإلحاح؟

- خلّ عنك المزاح يا مولاي فإنّ الرّجل من أصحاب السياسة واسمه

«غورتشاكوف» سرجيوس فلاديمير».

.. فجلس «ملاكوف» علي المقعد كأنّه وخز بحربة، وقال لي بلهفة:

- هل «غورتشاكوف» سرجيوس فلاديمير» في باريس؟



- نعم يا مولاي .

- ومتى حضر إليها ؟

- منذ نحو أسبوعين من الزمن .

- هل لك معرفة سابقة به ؟

- نعم فقد كنت خادماً له برهة طويلة في « لندرا » .

- هل تعرف شيئاً من أمره ؟

- أعرف عنه ما لا يعرفه رجل سواي .

- أكان مؤخراً في روسيا ؟

- لم يذهب فقط إلى روسيا ولكنه ذهب حاملاً معه آلة الهلاك الديناميتية لنسف
القطار الملكي .

.. فنظر إليّ مندهشاً وكُلَّه عيون ومسامع، وقال :

- أتعلم شيئاً عن ذلك ؟

- أخبرتك يا مولاي أنّي أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه سواي، فإنّه من أسرة
«فلاديمير» الشهيرة بالثروة فإن نصف يتابع البترول في روسيا ملكهم، ولكن والد
الرجل كان من عصابة النيهليست فحلّ عليه غضب القيصر ونفاه إلى «سبييريا»
وصادر سائر أملاكه، ولما عاد أبنه وجد نفسه فقيراً فأخذ يتجول مفتشاً علي أمّه
وأخته إلى أن حظي أخيراً بهما الواحدة ميتة من الجوع علي حصيرٍ بالٍ في غرفةٍ
مظلمةٍ رطبةٍ، والأخرى موثقةٍ إلي آلة خشبيةٍ ومعرّاةٍ حتي وسطها والسيّاط تنهال
عليها انهيال الغيث حتي أدمت جلدها، وذلك لأنّ ميكروب النيهليست انتقل إليها
من والدها، فلمّا شاهدها شقيقها علي هذه الحال ود تخليصها فأمر الحاكم بجلده،





وأخيراً نُفي إلي «سيبيريا»، ثُمَّ هرب من هنالك إلي «لندرا» حيث دخل في عداد النيهليست وقام بأعمال تقشعر لها الأبدان.

- سمعت شيئاً من ذلك، ولكن الأمر الذي يهمني الوقوف عليه هو معرفة دخائل تلك الدسيسة التي تمّ بها نسف القطار الملكي الذي تشير إليه.

- ذلك من أسهل الأمور فإنّ النيهليست لمّا أجمعوا علي ذلك أقرّوا علي اصطناع آلة جهنمية قام بصنعها نفس النهلستي الذي اخترع تلك السّاعة التي دكت قسماً من قصر الشتاء الإمبراطوري، ولكن هذه الآلة الأخيرة كانت أغرب صنْعاً، لأنّها كانت عبارة عن قطعة هرمية الشكل من السكر تتضمّن السوائل القابلة للانفجار علي شكل ساعة أمريكانية إذا وضعت عمودياً انفجرت في ربع ساعة، أو أفضية فني أربع وعشرين ساعة.

.. فهز «ملاكوف» رأسه عدة مرّات، وبدت علي وجهه دلائل الجد والاهتمام، وأخرج من جيبه كتاباً وقلماً وأخذ يعلّق هنالك من الملاحظات ما اهتم به.

- هل تعلم كيف دخل روسيا ؟

- دخلها تحت اسم منتحل وذلك بمساعدة سكرتير الداخلية الذي هو أحد أعضاء النهلست السريين.

.. فصاح الجنرال «ملاكوف» بأعلى صوته:

- وهل «اسبنسكي» سكرتير الداخلية من هؤلاء الأقوام ؟

- ليس منهم فقط ولكنّه أشدهم دهاءً وأوفرهم مكرّاً، وهو الذي سهّل له السفر سبيل الدخول لأنّ يكون هو وصهره «كولد نبرغ» بين خدمة القيصر في ذلك السفر. .. فضحك «ملاكوف»، قائلاً:



- ها ! ها ! الآن ينجلي لي ذلك اللغز العظيم.. الآن تنفتح أبواب المجد أمامي..
تكلم.. تكلم ولا توجز.

- ولما بلغ «بطرسبرج» في ذلك الليل المدلهم تحت عصف الزوابع وقصف الصواعق، شاهده أحد الجواسيس ذاهباً إلي محل صهره «كولد نبرغ»، وفيما كان البوليس ذاهباً لإلقاء القبض عليه ركض أحد جواسيس النيهليست، وهو في الظاهر أحد أعضاء جواسيس «بطرسبرج» واسمه «ديمتراسكي» فحذره وخرج لا يلوي علي شيء، وقبل أن بلغ البوليس بيت «كولد نبرغ» كان «غورتشا كوف فلاديمير» قد خرج من النافذة التي في أعلي الحائط وبلغ السطح الذي هو بأسفله، وهذا هو السبب الذي لأجله لم يعثر البوليس له علي أثر.

.. فضرب الجنرال رأسه بيده عدة مرّات من الغيظ، ويقول:
- «ديمتراسكي» أيضاً نهلستي ؟ ذلك الرّجل الذي كنت أظن أنّه...
.. ثمّ استدرّك، فقال :

- ذلك الرّجل الذي كان رئيس الجواسيس يظنه من أخلص عُماله أيضاً نهلستي ؟
- هو نفسه يا مولاي الذي حذر «غورتشا كوف» ولكن هذا تمكّن من الانخراط في سلك خدمة القيصر مع نسيبه «كولد نبرغ» ولما أصبحت الآلة علي وشك الانفجار تركا القطار يحملان جوازاً مزوراً ثمّ عاد إلي إنجلترا وهما الخادمان اللذان فُقدّا من القطار عند حادثة الانفجار.

.. فأبرقت سرائر الرّجل وهو يدون ما رام من هذا الحديث، ثمّ نظر إليّ قائلاً :

- وماذا يبغي «غورتشا كوف فلاديمير» من الحضور إلي باريس ؟

- الغرض من ذلك إحباط مساعي رجل مهم من الروس قدم باريس منذ عدة أيام واسمه شبيه باسم حضرتك يا مولاي، ولكنك أنت تاجر وذاك رئيس جواسيس روسيا، فقد قدم هذا الموظف إلي عاصمة الفرنسيين ليثير حرباً شعواء علي النهلست.





.. فحدّق فيّ هذه المرة «ملاكوف» بي وقد أوجس ريبة، ولكنّه أظهر التّبسّم وعدم المبالاة، سائلاً:

- هل عثر رئيس الجواسيس هذا علي أمر مهم ؟

- حدث بعد حضوره إلي باريس أنّ البوليس السري اكتشف وجود قنابل ديناميتية في منزل أحد هؤلاء الأقوام فسلم إلي الحكومة الروسية، وهذا الأمر قد حير «غورتشا كوف» غاية الحيرة لأنّ الرّجل «نبتوفسكي» كان قد حذر قبل ذلك بعدة أيام أنّ البوليس السري الفرنسي سيقبّض منزله، فلم يفهم «غورتشا كوف» كيف أمكن بعد ذلك العثور علي هذه القنابل في منزله.

- ولكن كيف علموا ذلك حتي أنّهم تمكّنوا من تحذيره ؟

- مولاي أنّ هؤلاء النهلست هم أبالسة في صورة بشر، وشياطين في ثياب حملان، فقد راقبوا خطوات رئيس الجواسيس واكتشفوا رسائله فإن الخادم الذي أحضره معه إلي هنا من «بطرسبرج» لم يكن سوي واحد من هؤلاء الأقوام.

فاشتاط «ملاكوف» غيظاً، وثارت في رأسه ثورة السخط، ونظر إليّ قائلاً والشرر يتطاير من عينيه:

- هل كان خادمي «سلنك» نهلستياً ؟

- إنّي أقصّ علي سيّدي ومولاي حديثاً يختص بالجنرال «ملاكوف» رئيس الجواسيس الروسية ولا شيء له من العلاقة بأمر مولاي الذي حضر إلي هنا ترويحاً للنفس من التجارة.

.. فاحمر «ملاكوف» ورفس برجله الأرض علي هذه الهفوة، ثمّ نظر إليّ قائلاً:

- إنّ ملابس الأسمين قد أدت بي إلي هذا الشطط فأكمل حديثك.

.. فعدت إلي تتمة المقال غير مكترث:



- ولما كان الأمر كذلك استنتج «غورتشا كوف» أنَّ جواسيس الجنرال «ملاكوف» أنفسهم وضعوا هذه القنابل الديناميتية لتيسر لهم بذلك تسليم «نتوفسكي» إلي الحكومة الروسية ومحاكمته هناك، وما يهمك من الأمر فإنَّ الرَّجل قد سُلِمَ وحُوكِمَ ونفي إلي «سيبيريا»، ولكن الأمر المهم الذي أشغل أفكار «غورتشا كوف» هو اختفاء ابنة هذا الرَّجل فإنَّها ذهبت وحتى الآن لم تعد، وبعد التفتيش والتنقيب الطويل انجلت لهم واقعة الأمر وهو أنَّ الجنرال «ملاكوف» نفسه رمي بها في نهر السين.

.. فوقف «ملاكوف» علي قدميه وقد اصفر لونه وغارت عيناه، وهو يقول :

- أبلغ من قحة هؤلاء القوم أن يلصقوا بي هذه التهمة ؟

- إنني أطلب إلي مولاي ألا تأخذه حدة الغضب، وأكثّر علي مسامحه مرّة أخرى
أني أقصّ عليه حديث «ملاكوف» رئيس الجواسيس لا «ملاكوف» التاجر الروسي.

.. فنظر إليّ باسماء، ثمّ قال :

- أنت هو الرَّجل الذي أطلبه منذ سنين فإنَّ كُلَّ جواسيسي بلداء وليس لهم أقلّ نفع فقد وضعت الآن من الإفادات في يديّ ما يؤهلني لمنصب وزارة الداخلية.
- وأنت يا مولاي هو الرَّجل الذي أطلبه منذ سنين عديدة، فإن لي أيضاً كثيرين من الجواسيس البلداء الذين ليس لهم أقلّ نفع.

.. فلم يتنبه «ملاكوف» إلي جوابي إذ كان منشغلاً بتعليق حواش في كتابه، ثمّ التفت إليّ قائلاً وهو يبتسم ابتسامة الفوز :

- أيمكنك إلقاء القبض علي «غورتشا كوف» هذا ؟





- سأضعه بين يدي مولاي بعد لحظةٍ من الزمن ومقابلة لهذه الخدمة العظيمة أرجوه أن يوقع إمضاء علي هذه الأسطر الوجيزة.

.. ثُمَّ تَقَدَّمتُ إليه وسلمته ورقة فيها ما يأتي:

(أنا الجنرال "ملاكوف" رئيس البوليس السري والجواسيس الروسية أقر وأعترف أنَّ القنابل الديناميتية التي وجدت في منزل "نبتوفسكي" إنَّمَا وضعت عمداً بيدي بعض الجواسيس الروس في باريس لتذنيب رجل بريء ولذلك أطلب الإفراج عن هذا الرَّجل وإعادته من المنفى).

.. فنظر إليَّ غاضباً باحتقار، وقال:

- ما معني هذا ؟

- المُراد من ذلك أن تُكفر بإعادة هذا الرَّجل من منفاه عن بعض الإثم الذي ارتكبته في قتل ابنته.

- أمجنون أنت ؟!

- هل الحديث الذي شرحته لك حديث مجانيين ؟

- ماذا يعنيني ويعنيك من كُلِّ هذا ؟

- يعنيك أنت .. لأنَّك "ملاكوف" جنرال البوليس السري والجواسيس الروسية في سائر الإمبراطورية ويعنيني أنا لأنِّي "غورتشاكوف" سرجيوس فلاديمير" جنرال النهلست في سائر العالم.

.. فانقبض الرَّجل كما لو أنَّه يجري إلي أعضائه تيار كهربائي عنيف، وجحظت عيناه، وأكفر وجهه كأوجه الموتى، ووقف تنفسه.. ولكن لم يكن إلَّا مثل غمض الجفن حتى وثب نحو المسدس، ولكنَّه لم يخط سوى خطوة واحدة حتى أغمدت



بعدها خنجري في صدره، وما هي إلا صرخة واهنة حتي انقلب إلي الوراء جثة لا حراك بها.

.. وفي تلك الليلة بينما كنت مسافراً في القطار من باريس عثرت علي خبر في أحد أعداد صحيفة “الدايلي مال” مفاده أنَّ رجلاً يُسمي “أويندورف” في “لندرا” وُجد قتيلاً في غرفته دون أن يتمكن أحد من الوقوف علي أثرٍ للقاتل.

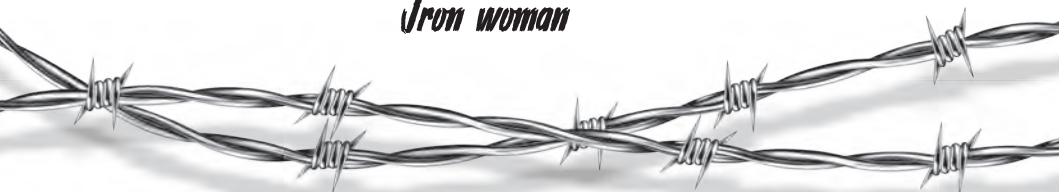




الفصل الثالث عشر

المرأة الحديدية

Iron woman



ولبت أمرنا علي هذا المنوال بين رقدة ونهضة إلي أن استعرت الحرب اليابانيّة الروسيّة، فكان ذلك في تاريخنا فجر يوم جديد، أشرقت في سمائه شمس جديدة تحيي منا ميت الآمال، وتنعش ذابل الرجاء، لأنّنا رأيناها الوسيلة الوحيدة التي ننال بها المني، ونجد ضالّتنا المنشودة، وكنا نتوقّع ونتمنى من صميم الفؤاد فشل دولتنا في هذه الحرب، لأنّ ذلك يفتح باباً جديداً لنا في إثارة خواطر الأمة الروسيّة بأسرها، ويُتاح لنا أن نقوم بحركة عامّة تختلف عن سائر الحركات والأعمال التي قمنا بها حتي الآن، وذلك بإحداث ثورة عامّة في البلاد شبيهة بالثورة الفرنسيّة، تهتز لها عروش الملوك وتهلع قلوب الأمم.

فإذا تبيّنت ذلك فقهت الأسباب الباعثة بفريق من كبار الأمة ومقربي البلاط الإمبراطوري الروسي إلي المناداة علناً بوجوب إشهار الحرب علي اليابان، مع علمهم أنّ روسيا ليست في شيءٍ من الاستعداد إلي ذلك، وقد أطلق علي هذا الفريق



لقب «حزب الحرب»، وما هو سوى أعضاء النهلستين السريين الذين في خدمة الحكومة الروسية.

ولقد كان القيصر «نيكولاي الثاني»⁽¹⁾ كارهاً كُلّ من شأنه إثارة هذه الحرب جانحاً بكلّيته إلى السّلام، وبقي يسعى إلى ذلك جهده ويأمل حل المعضلة بالطرق السلمية، حتى أنّه بعد أن رفع إليه سفير اليابان بلاغاً ينذره بانقطاع العلاقات السياسية بقي يختلج في صدره هذا الأمل الكاذب، إلى أن باغتت بوارج اليابان الأسطول الروسي في «بورت آرثر» في حلك اللّيل، ونسفت بعض المدرعات بالتوريد خلسة واغتيالاً، فأصبحت الحرب إذ ذاك ضربة اضطرت روسيا إلى ركوبها مكرهة غير مخيرة.

(1) نيكولاي الثاني: نيكولاي ألكسندروفيتش رومانوف، (1868-1918م) آخر أباطرة روسيا، استمر حكمه لروسيا من الأوّل من شهر نوفمبر 1894م عند وفاة والده الإمبراطور «ألكسندر الثالث»، وحتى 15 مارس 1917م حين تنازل عن العرش لأخيه الدوق الأكبر «ميخائيل ألكسندروفيتش».

تميزت إدارته بالتطوّر الاقتصادي في روسيا، في الوقت الذي زادت فيه التناقضات الاجتماعيّة والسياسيّة مع الحركة الثورية التي أشعلت ثورة 1905-1907م، وثورة 1917م. أمّا في السياسة الخارجية، فقد تميزت إدارته بالتوسع في الشرق الأقصى، والحرب مع اليابان، كما تعرضت روسيا في عهده إلى هزيمة منكرة حين دمر اليابانيون الأسطول الروسي، ممّا أثار في البلاد انتفاضة قوية امتلأت بالشيوعية، ولكن «نيكولاي» استنّج رغم فشلها أن عليه القيام بإصلاحاتٍ فوافق مباشرة على دعوة المجلس التشريعي الدوما أو البرلمان الروسي، فضلاً عن مشاركة روسيا في الكتل العسكريّة للقوى الأوروبيّة، وفي عام 1914م أدخل روسيا في الحرب العالمية الأولى رغم أن البلاد لم تكن مهيةاً لها، فتعرّض للكثير من الهزائم. قامت الطبقات الوسطى على الفور غاضبة بلا حدود تدعمها مجموعات عديدة تدعو للإصلاح بالمطالبة بتغيير الحكم، فتنازل «نيكولاي الثاني» عن العرش بعد قيام ثورة فبراير 1917م ووضّع أسرته تحت الإقامة الجبرية في قصر «تسارسكوي سيلو». وفي صيف عام 1917م، نقل مع عائلته إلى المنفى في «توبولسك» بموجب قرار من الحكومة المؤقتة. وفي ربيع عام 1918م نقله البلاشفة إلى مدينة «بيكاتيرينبرغ»، حيث أعدموا رمياً بالرصاص في 17 يوليو 1918م، إلى جانب أسرته وحاشيته. (المعد).





ولمّا استعرت الحرب أصدرت أوامري إلي سائر لجان الثورة في روسيا أن تكون جميعاً متأهبة للإقدام علي عمل عظيم يرن صدها في سائر أنحاء الكرة الأرضيّة، وتتشنج له روسيا بكليتها.

وليث الأمر علي هذا المنوال حتي حملت إلينا الأنباء البرقية خبر حصار «بورت أرثر» فعلمت أنّ السّاعة التي سنقوم فيها بتلك الضربة الهائلة قد اقتربت، ولذلك عقدت مجلساً في «لندرا» مؤلفاً من نخبة أعضاء النهلست وبقينا نتباحث فيه حتي مطلع الفجر، فقرر رأي سائر الأعضاء علي القيام بحركة عامّة في سائر الأنحاء الروسيّة تكون نتيجتها ثورة هائلة تُذكر العالم بأيام «لويس السّادس عشر»⁽¹⁾ وحكم الأعضاء بوجوب ذهابي إلي روسيا حيث كان قد سبقني إلي هناك الرئيس السّابق «بتروف» منذ زمن طويل لتمهيد الصعاب وإعداد وسائل الثورة.

ورأينا إنهاضاً للهمم وتحريكاً للخواطر أن نشعل جذوة الثورة ليس في روسيا فقط ولكن في «سيبيريا» وسائر الأصقاع البعيدة، بحيث يكون اضطرامها في وقتٍ واحدٍ، ولمّا كان يتعذر تسهيل المواصلات والرسائل إلي تلك الأنحاء الشاسعة ضربنا سقوط «بورت أرثر» موعداً للقيام بهذا العمل الخطير.

فلم أبطئ بعد هذا عن التعجيل بالسفر إلي روسيا، ولمّا بلغت «بطرسبرج» اجتمعت بـ«بتروف» ولجنة الثورة هناك، فأقمنا أسبوعين من الزمن ونحن في اجتماعات سرية دون انقطاع، أتينّا فيها علي ما يجب تقرير عمله في «بطرسبرج»، ولمّا كان الوزير «بلف» ناظر الداخلية رجلاً مشهوراً بشدة الشكيمة، وتصلّب الرأي،

(1) لويس السّادس عشر: آخر ملوك فرنسا قبل الثورة الفرنسيّة، في عهده قامت الثورة الفرنسيّة وأدت إلى إطاحة الحكم المطلق. (وُلد في 23 أغسطس 1754م، وتوفي في 21 يناير 1793م نتيجة إعدامه بالمقصلة وزوجته) تزوج من «ماري أنطوانيت» وهو في عمر الخامسة عشر، والأخيرة تصغره بقرابة العام، وأنجب منها «لويس السّابع عشر» الذي مات صغيراً. (المُعد).



والضرب علي كُلِّ ما من شأنه إصلاح البلاد، وإقامة الدستور موضع الاستبداد، والتصنيق علي أعضاء جمعياتنا سواء كانوا مجرمين أو أبرياء، عقدنا اجتماعاً خاصاً للنظر في أمره، فتقرَّر بعد المناقشات الطويلة الحكم عليه بالإعدام، فلم يمرّ سوى وجيزة من الزمن حتي أنفذ ذلك الحكم علي ما نشرت تفاصيله سائر الصحف الأوروبية.

وحدثت أثناء وجودي في روسيا حركة في الخواطر لم يحصل نظيرها منذ وفاة القيصر "ألكسندر الثالث"، فإن لجان الثورة هنالك هبت من ضجعة الخمول ونفضت عنها غبار الذل، فأخذ كثيرون من نخبة الشبان، وطلبة العلم، والسيدات ربات الجمال، يتواردون علينا فرادي وأزواجاً حتي فريق من عداد جواسيس الحكومة الروسية، ولكي نتمكّن من معرفة الحدّ الذي بلغت إليه تلك الحركة أقص حديثاً واحداً كمثال:

بعد أن زرعت بذور الثورة في روسيا عقدت النية علي السفر إلي أرجاء "سيبيريا" لتأليف لجان جديدة هناك عوضاً للجان القديمة التي اندثر أمرها، بسبب الضغط الشديد الذي أحدثته عليها الوزير "بلف" الذي لقي حتفه جزاء ذلك، وكان لي غرض آخر وهو إنقاذ أحد زعماء الثورة سابقاً، ولكي أكون في مأمن من كُلِّ طارئ حصلت علي جواز من "بترسبرج" بواسطة بعض إخواننا من ذوي السطوة والكلمة النفاذة، يُعلن أيّ من جملة موظفي الحكومة الروسية، بل ذاهب في مهمةٍ سياسيّة تختص بجلالة القيصر نفسه حتي لا يتيسر لأحد التمكن من إلقاء القبض عليّ مهما كانت الأعذار الباعثة علي ذلك.

فقطعت في "سيبيريا" نحو من ألفي ميل، وبينما كنت في مدينةٍ وأنا علي وشك السفر إلي الأصقاع البعيدة، وإذا بأحد ضباط الفرسان وهو صديق قديم لي يُسمي "فارتنسكي" ومن الأعضاء العاملين في جمعيتنا، تقدّم ورغب إليّ أن آخذ معي إلي "أركوتسك" أحد أصدقائه، فأجبتة إلي ذلك، وبينما أنا أنتظر وإذا بسيدةٍ في ربيع





الحياة، ومقبل الغُر قد قَدِمت إلينا وعليها ثياب السفر، فتأملتُها وإذا هي غادة تزرى قامتها بالغصن الرطيب، تخجل طلعتها البدر، فقال لي صديقي "فارتسكي":
- هذه هي السيِّدة هي الصديق الذي رجوتك بشأنه ولي الشرف أن أعرف بها فهي السيِّدة "أيدا سندرسكي".

ولم يذكر لي بشأنها أكثر ممَّا تقدَّم، فكنتُ علي جهل تامٍّ من أمرها، والغرض الذي لأجله سائرة معي إلى أقاصي "سيبيريا".

ولم يكن سوي طرفة عين حتي ودَّعنا أصدقائنا، وأخذنا نقطع تلك الفيافي والقفار المغطاة بالثلوج المتراكمة بعضها فوق بعض، فجرت بنا العربة جرياً سريعاً، وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث وصار بيننا شيء من التعارُف أُلْتَفْتُ إلي الغادة التي بجانبِي، وقلْتُ:

- لماذا تتجشمين يا سيِّدتي مشاق السفر إلي "أركوتسك" البعيدة ؟
.. فأجابتنِي بالفرنسيَّة:

- أعذرني يا مولاي إذا أبقيت غرضي من هذا السفر سراً.

.. ثُمَّ تأملتُ لحظة من الزمن، وقالت بصوتٍ رخيم:

- إنَّ ذلك لمن الأسرار التي لا يمكن الإباحة بها.

.. ثُمَّ لبثنا سائرين بعد ذلك دون أن ننس بكلمةٍ أُخري، وكُلَّ منا غارق في بحار هواجسه، والظاهر أن ارتجاج العربة أفضي برفيقتي إلي النعاس، فأغمضت جفونها طويلاً الأهداب، وأخذتها سنة الكري فمال رأسها حتي لامس كتفي، فغطيت وجهها الجميل بقبعة الفرو التي علي رأسها، لوقايتها من زمهرير البرد، وكانت تتكلم أثناء



نومها بألفاظٍ مقتضبة غير مفهومة، وكانت دلائل الوناء⁽¹⁾ والكلال⁽²⁾ بادية عليها، لأنها لبثت في هذا الرقاد علي هذه الحال زمناً طويلاً، وأنا لا أتحرك من موضعي خوفاً من إيقاظها، مُفَكِّراً فيما عسي أن يكون الغرض الذي قد بُعث بهذه السيِّدة اللطيفة أن تتحمَّل سَفْراً بعيد المسافة يعجز عن القيام به أقوياء الرجال، ومكثت علي هذا المنوال كُلَّ ذلك اللَّيْلِ إلي أن انبثق الفجر ووقفت بنا المركبة بجانب خان علي الطريق، فلَمَّا فتحت عينيها ورأت رأسها علي صدري دُعرت واحمرت وجنتها، واعتذرت إليّ، ثُمَّ نزلنا في الخان ولبثنا فيه ذلك النَّهار واللَّيْل التالي.

ولَمَّا ارتحنا من مشاق المسير واصلنا السفر، فإذا وجدنا خائناً علي الطريق نزلنا فيه وإلا تابعنا المسير ولبثنا كذلك أياماً وأسابيع نقطع تلك الثلوج حتي جاوزنا "أوشيم"، و"أومسك"، و"كوليفان" إلي أن بلغنا "تومسك" بعد سفر ألف ميل، فكانت "أيدا سندرسكي" في هذا السفر لغزاً من الألغاز التي لم أتمكَّن من حلِّها، وتبيَّن لي أنَّها سيِّدة ذات صلة بالأشراف والأمراء، لأنَّها كانت تقص عليَّ أحاديث أقوام من أصدقائها في "بطرسبرج" يعدون في أعلي طبقات الأمة وأشرف أسرها، وكنتُ أظنها سيِّدة من الجميلات لما رأيت من ظرف حديثها وأدب كلامها، ولكن لما ذكرت أنَّها صديقة "فارتنسكي" الذي اشتهر في "بطرسبرج" بالتردُّد علي محال اللُّهو وبيوت الخلاعة ظننتها خلاف ذلك.

ولقد التقينا في أثناء هذا السفر الطويل بكثيرٍ من السجناء الذين مال عليهم الدهر فمشوا يجرون سلاسل الذل وقيود العبودية وسط تلك الثلوج الكثيفة، واليأس قد كُتب علي أوجهم أسطر من التعاسة والشقاء فكانت تنظر إليهم "أيدا سندرسكي" بعيون ملؤها اللُّطف، وقلب تختلج فيه عاطفة الحنو، وبينما هي تنظر

(1) الوناء: من الوائي: ضَعِيفُ البدن. (المُعَد).

(2) الكلال: من كَلَل: إعْيَاء وتعب. (المُعَد).





إلي هؤلاء التعساء وإذا بواحدٍ من القوزاق⁽¹⁾ رفع سوطه وضرب به ظهر امرأة من المتفنين ضئيلة الجسم، شاحبة اللون، فأثار ذلك حنق "أيدا"، ونظرت إليّ قائلةً:

- ما أظلم الشريعة الروسية ؟

.. فالتفت إليها، وأجبتها:

- الأفضل يا سيّدي ألاّ يتفوه الإنسان بمثل هذه الألفاظ في هذه البلاد، لأنّ انتقاد أعمال الحكومة الروسية قد يعود علي المنتقد بالخسارة والهوان.

- لا يهمني ذلك، ولو أنّك علمت بعض ما أعلم ممّا يجري في الإمبراطورية الروسية من أنواع المغارم⁽²⁾، وألوان المظالم، وأشكال الرشوة والفساد لم يكن لك إليّ السكوت من سبيل.

.. وكان كلامها بالفرنسيّة لكي لا يفهم السائق شيئاً منه، فأحنيت رأسي نحوها، وهمست في أذنها قائلاً:

- إذاً يا سيّدي أنت في عداد النهلست.

.. فدعرت لهذا الكلام ذعراً شديداً، وارتجفت أعضاؤها، واصفر لونها، ثمّ مسكت بيدي قائلةً:

- من أخبرك ذلك ؟ وهل فعلت أمراً فشيئ به سري ؟

(1) القوزاق: هم مجموعة أثنية للسلافيين الشرقيين الذين يقطنون بجملتهم السهول الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا. وهناك أكثر من فرضية بشأن أصل القوزاق ومن أين ينحدرون. ثمة فرضية تقول إن القوزاق هم فئة عسكرية من الناس ضمن روسيا. ولا يوافق على ذلك القوزاق أنفسهم، إذ يعتبرون أن أصولهم أعرق بكثير. ومن المعتقد أن موطن القوزاق هو خط من القلاع والحصون كان يمر من نهر الفولغا الوسطى باتجاه مدينتي "ريازان"، و"تولا" ثمّ ينعطف نحو الجنوب ويصل إلى نهر "الدينير" في منطقة مدينتي "بوتيفل"، و"بيرياسلاف". (المُعد).

(2) المغارم : من الغُرم: ما ينوبُ الإنسان في ماله من ضررٍ بغير جنابة أو خيانة. (المُعد).



- إنَّ في كلامك إشارة بيّنة إلى ذلك، أمّا الآن وقد اكتشفت هذا السرّ أفلا تبوحين بهذا السرّ الآخر العظيم الذي تتجشمين هذه الأسفار لأجله ؟
.. فارتجفت أعضاؤها، ثُمَّ نظرت إلَيَّ قائلة:
- أستحلفك بالله ألا تعود فتفتّح لي هذا الحديث مرّة أخرى، فإنَّ السائق قد يفهم شيئاً منه، وعند ذلك نصير كلانا في عداد الأموات.
.. فأخذت يدها بيدي، وهمست في أذنها الكلمة النهلسيّة، ثُمَّ قلت:
- أبقى عندك شك في إخلاصي ؟
- إنني أتق بك غاية الثقة ولكن ما مضى قاتم كالليل.
- ألا تسمحين لي بمعرفته ! أفلا يمكنني تخفيف شيء منه ؟
- إنَّ ماضيّ مشوه بالمخاتلة⁽¹⁾ والمخادعة، ولو عرفته لاحترقتني، فالأمثل بي أن أحفظه مكتوماً طَيّ صدري.
- ولكن أخبريني شيئاً واحداً وهو: هل "فارتنسكي" ولي أمرك ؟
.. فرفعت نحوي عينيها المغرورقتين بالدموع، ثُمَّ قالت:
- نعم.. هو صديقي الوحيد.

.. فظننت سوءاً في الأمر، ولمت نفسي عليّ إلحاحي في سؤالها، ثُمَّ نزلنا بعد هذا في خانٍ، فسكبت "أيدا" الشاي لي وللسائق عليّ عادتتها أثناء السفر، فلاحظت أنّ السائق عندما تناول قدحه بعد سكبها من الآلة التي نسميها في روسيا بـ"السموفر" نظر إليّ "أيدا" نظرة كُلهّا حقد وضغينة، ولكن لم تلبث تلك النظرة عليّ ملامح وجهه سوي لحظة واحدة عاد بعدها إليّ سكونه المعتاد، فجلست و"أيدا" نتجاذب أطراف الحديث أثناء الليل، وتلك النظرة العدائية التي بدت عليّ وجه السائق لم تبرح من

(1) المخاتلة: المُزَاوغة، والمُخَادعة. (المُعد).





مخيلتي، وأنا أناجي نفسي: "أهنالك سرٌّ لا أدريه بينهما، أو أنّه فهم يا تري مغزى السرّ الذي باحت لي به".

.. ولما انبثق الفجر كنا لا نزال بعيدين نحو ستين ميلاً عن أقرب قرية في ذلك الجوار، فخرجت أرواح النفس بالرياضة قليلاً، وأنشق ذلك الهواء النقي، وأدخن لفافتي وأنا غارق في أبحر الهواجس، أفكر فيما عسي أن يكون من أمر هذه الثورة التي قد قدحت زنادها في روسيا و"سيبيريا"، ولبثت كذلك حيناً من الزمن فلما عدت إلي الخان وجدت صاحبه قد علته صفرة الوجل وأعضاؤه ترتجف من شدة الجزع، وقد بلغ منه الهلع مبلغاً عقد لسانه، وأعدمه النطق، فأدركت أنّ نائبة قد حلّت في ذلك الموضع، فلم يفه بكلمة ولكنه قادني بيدي إلي داخل المنزل فشاهدت منظراً انقبضت له أعضائي خوفاً ودهشةً، وذلك أنّ سائق مركبتنا واسمه "بلزنسكي" كان موسداً علي فراشٍ من القش، وسائر ملابسه عليه، وفي صدره طعنة نجلاء بلغت قلبه وهو جثة لا حراك بها.

أما "أيذا" فلما خرجت من غرفتها وعلمت بما حصل، تبدت عليها لوائح الهلع والذهول، ولم تدخل غرفة القتل لأنها قالت أنّها لم تطق مشاهدة مثل هذا المنظر الفظيع، ثمّ دنت مني وأعضاؤها ترتجف ارتجافاً وهمست في أذني بالفرنسيّة أن نعجل بالمسير دون أدني إبطاء، فلما أخبرتها عن عزمي علي التوجه إلي "أركوتسك" لكي أبلغ البوليس خبر هذه الجريمة، بدا علي وجهها من ملامح الارتباك والحيرة ما دعاني إلي الاشتباه بأمرها، وخصوصاً لما بدا منها من الإلحاح الشديد في متابعة السير دون إبطاء، لاحظت علي رسغ احدي يديها خدشاً صغيراً، فزادت الدلائل الباعثة علي الاشتباه حتي أصبحت علي يقين أنّها هي الجانية، فناجيت نفسي قائلاً: "إنّ هذه الغادة الهيفاء رفيقتي في هذا السفر ليست سوي قاتلة وسفاكة دم".



ولما بلغنا أخيراً مدينة "أركوتسك" نزلنا في خانٍ وكان الوقت أصيلاً فتناولنا الطعام وارتشفنا الشاي، وكانت "أيدا" صفراء اللون مضطربة الملامح، ولكن كُلّ ذلك لم ينقص شيئاً من جمالها الفتان، فلم يكن سوي بضع دقائق من مناولة الشاي حتي اختفت عن الأبصار، ولم أجدها، سألت عنها أحد الرِّجال الذي كان يتدفأ في جانب النَّار وكان قد وصل في تلك اللحظة وهو ينفض الثلج عن حذائه، فقال لي أَنَّهُ شاهداها وهو قادم داخلة سراي الحاكم، ثُمَّ تَبَسَّ وقال إن حضرة الحاكم من أرباب الذوق السَّليم، وإن له خبرة تامة بالجمال والجماليات.

.. فلم أتوقف لحظة بعد هذه الإفادة، بل تركت المنزل وتوجهت إلي سراي المحافظة التي لم تكن تبعد عنا سوي بضع خطوات، فعلمت عند بلوعي الموضع من الحارس الخارجي أَنَّ سَيِّدة قادمة من سفر قد دخلت إلي مقابلة المحافظ، فأخذت أحد أتباع الحاكم علي حِده، وبعد مناقشة وجيزة في أمر السماح لي بالدخول نفحته بمئة روبل، فأدخلني إلي السراي الفسيحة إلي أن بلغ بي غرفة جميلة الأثاث لا شيء بينها وبين غرفة المحافظ سوي ستائر كثيفة مدلاة من السقف، حتي أرض الغرفة، ثُمَّ تركني وانصرف، فما أصغيت إلَّا قليلاً حتي سمعت صوت رجل أجش يقول بصوتٍ عالٍ:

- إذاً قد حضرت بعد هذا الغياب أيتها السَيِّدة اللطيفة ؟

.. فأجابته السَيِّدة:

- نعم عدتُ بعد هذا الغياب.

.. فعلمت من الصوت أَنَّ السَيِّدة إنما هي "أيدا سندرسكي"، فتطلعت من بين الستائر دون أن يتمكَّن أحد من رؤيتي، فوجدت أَنَّهُ يمكنني مشاهدة كُلِّ ما يحدث داخل تلك الغرفة، التي هي أمامي، فرأيت في منتصف الغرفة موقداً فيه نار متأججة





اللّهيب وإلى جانبها واقف رجل كهل بلباس الحرس القيصري الأبيض، وصدره مملوء بالأوسمة التي تتألق تألق النور، وأمامه واقفة "أيدا" يعلوا وجهها الاصفرار، ولكنها ثابتة الجأش، براقعة المقلتين، كأنها ملكة في قصرها، ثم رأيتها تكرر جوابها الأول علي مسامع المحافظ ، وتقول له بعزم ثابت :

- نعم عدتُ بعد هذا الغياب ولكن أخبرك يا جنرال "زغلوسكي" أنني أود الآن التحرُّر من ربة هذه الأعمال الشاقة التي اضطررتي إلي القيام بها منذ بضع سنين عندما كنت رئيس البوليس السري في "بطرسبرج"، فإنني كنت عندئذ فتاة نهلستية لم أختبر شيئاً من أحوال العالم، فألقيت القبض عليّ وبعثت بي إلي المناجم، ثم خيرتني بعد ذلك أن تمنح لي حُرّيتي وتبقي علي شرف أخي العسكري علي شريطة أن أصير في عداد هؤلاء الجواسيس الأذنياء الذين تستخدمهم لقضاء مقاصدك، فسلمت لك حينئذ بذلك لأنني كنت في ريعان الصبا لم أكد أدرج من حماية والدتي، وقد لبثت الآن في هذه الخدمة الممقوتة نحو ثلاث سنين، فقمتم بهذه الواجبات المخجلة التي وضعتها علي عاتقي وهو ما أدي إلي نفي كثيرين من القوام الأبرياء الذين يواجهون في هذه الدقيقة ضروب الذل وأنواع العذاب في المناجم التي هي في جوف الأرض، أو الأصقاع في أطراف "سيبيريا" بينما حضرتك جالس هنا تنعم في هذا القصر الملكي برغد العيش وبذخه، وتظهر أمام قيصرك مظهر الرّجل العظيم الذي يكشف أسرار البشر، ودسائس الأقوام، ويفقه ما تكشف الصدور وما تكن.

.. فأجابها المحافظ بحنقٍ شديد:

- ولكن ماذا يعينيك من ذلك؟ وهل يصح أن يكون حاكم مثلي عرضة لانتقادات فتاة مثلك؟ وعليك أن تضعي نصب عينيك علي الدوام أنك أحد عمال البوليس



السري وأن واجباتك تقضي عليك بالسهر علي أمن جلالة القيصر، وأنه لابد لك من البقاء كذلك رضىت أم لم ترض، وإلا فاعلمي أنك الآن في وسط "سيبيريا"، وأنه لا يكلفني نفياً إلي تلك المناجم الرهيبة سوي وضع إمضائي علي هذه الورقة التي أمامي فتصرفين بقية حياتك وأنت تجرين سلاسل الذل وقيود الاستعباد، وهناك تتعلمين من جنودي القوزاق كيف تكون الطاعة التي نسييتها الآن.. فاذهبي أيتها الحمقاء ولا تريني وجهك فيما بعد.

.. ثم مديده ليقرع الجرس، فتقدمت "أيدا" نحوه قائلة:

- لابد لك من سماع سائر ما تحملت لأجله هذه المشاق لأقوله لك فإنني أخبرك أنني قد أتيت إلي هنا لأخطرك أنني عازمة علي أبدال هذه الخطة الممقوتة التي أنا سائرة فيها.. جئت لأخبرك أنه يترتب عليك توقيع إمضاءك علي هذه الورقة التي بيدي التي تحلني بها من هذا القيد الذي أجبرت علي وضعه في رجلي وألا يكون للحكومة بعد هذا حق في إلقاء القبض علي من جراء ذلك وإلا فإنني...

- أتهديني أيتها الفتاة.. فأرجوك أن تفيديني ما مبلغ اقتدارك إذا رفضت طلبك؟
- لقد نصبت لي قبلاً شركك اللعينة فوقعت بها، أما الآن فأنت واقع في شراكي فإنك إذا رفضت بعثت إلي جلالة القيصر بالبراهين الدامغة والاعتراف البين الذي به تعترف أنت نفسك أنك أنت.. أنت هو الرجل الذي قتل في غسق الليل "ماري سكاي".

.. فذعر المحافظ، وانقبضت أعضاؤه، وعلا الاصفرار وجهه، وسألها بلهفة:

- ولكن أتني لك معرفة ذلك؟

- ألا تذكر أنك أنت نفسك وقعت علي هذا الإقرار! وهل نسيت أننا نحن النهلست تتبعنا خطواتك واكتشفنا أمرك واضطرنناك إلي الإقرار، فكان ذلك باعثاً علي الإبقاء عليك؟ أو تجهل أنني وقفت علي الجريمة التي ارتكبتها منذ بضعة أيام





وذلك أن أحد أخصائك المقربين قد قتل سائق مركبتنا في "أرتنسك" بطعنة خنجر في قلبه لأنّ هذا السائق المسكين يعلم سرّ قتلك "ماري سكايا" ؟
.. فأجابها المحافظ :

- أنك تكذبن وما ذلك سوي تلفيق أترومين أن تبغثي بي أنا إلي مناجم سيبيريا؟
ولكني أقسم لك أنك ستمتين في حضرتي.. وسوف أقتلك بيدي.

.. ثمّ أشهر في وجهها مسدساً وخطا نحوها فلم يكن سوي مثل وميض البرق حتي رفعت تلك الستائر الكثيفة وانطلقت نحوه انطلاق السهم، ولكن يد الرجل كانت أسرع من خطوي فانطلق المسدس ولم تصب الرصاصة الغرض، بل مرّت فوق رأس "أيدا" وكسرت مرآة كبيرة في الجار المقابل، فهجمت عليه هجوم المستقل واختطففت المسدس من يده، قائلاً :

- إنّ هذه الفتاة قد نيط الاعتناء بأمرها في هذا السفر بي، ولقد سمعت سائر ما دار بينكما من الحديث وأنا سنبقي هنا إلي أن توقع إمضاءك علي هذه الورقة وإلاّ لبثنا أمامك طول الدهر.

.. فهددني بإلقاء القبض عليّ، ولكني هزأت بتهديده وأخبرته إن بيدي جوازاً يُعلن أنّي في مهمةٍ سياسيّةٍ تختص بشخص جلاله القيصر، وأنّ يده أقصر من أن تصل إليّ بشيءٍ من الأذى، فتردّد في الأمر حوالي نصف ساعة وهو يُفكّر تفكيراً لا يجد له مناصاً إلي أن وقّع إمضاءه أخيراً علي الورقة، وقبل خروجنا من الغرفة التفتت إليه "أيدا" قائلةً :

- إذا أمرت بإلقاء القبض عليّ فإن أخي يبعث بإقرارك إلي جلاله القيصر.

فسألت "أيدا" بعد نزولنا قائلاً لها :

- ومن هو أخوك ؟



..فقلت:

- إن أخي وولي أمري هو صديقك "فارتنسكي".
فصحت عند ذلك صيحة الدهشة والسرور، وقلت لها:
- ستكونين في أثناء هذا السفر أعز لدي من شقيقتي.





الفصل الرابع عشر

قصة القصر المهجور !!

The story of the abandoned palace !!



ولكي نفقه سرعة حركة الخواطر التي تهيأت في نفوس القوم للتحفز إلى الثورة بسبب اللجان التي أنشأتها في أقاصي روسيا لابد لي من سرد حادثة واحدة تكون دليلاً علي كثير من أمثالها علي النهضة التي حصلت من أنفس القوم، وهوبهم لكسر نير الظلم وقيود الاستبداد التي لبثوا راضخين لها مئات من السنين دون أن يبدوا بشأن ذلك تدمراً أو يرفعوا صوتاً.

فإني بينما كنت راجعاً من تلك الأقصاء السحيقة رأيت قصر المحافظة في بلدة كنت قد أنشأت فيها منذ بضعة أشهر أثناء مروري إلى "سبييريا" لجنة ثورية، وإذا ذلك القصر قد أصبح أطلالاً بالية، فسألت أحد الأعضاء الذين خفوا لاستقبالي عن سبب ذلك فنظر إليّ الرجل نظرة ملؤها الدهشة لإبداء مثل هذه الملاحظة، ثم قص عليّ الحديث الآتي:

إنّ المحافظ الذي كان يقطن هذا القصر الذي رأيته أثناء مرورك هنا وقد أصبح الآن رماداً إنما كان رجلاً فظ الأخلاق، شرس الطباع، ظالماً عاتياً، وكان وصياً علي



شاب يسمى "درنفتش" اغتصب منه أملاكه الشاسعة، ولكنه سمح له أن يقيم معه في داره، وكان المحافظ شديد الوطأة علي الفلاحين الذين بلغ بهم الفقر المدقع مبلغاً فاحشاً، وخصوصاً أنَّ تربة هذه الأرض قاحلة لا تنبت سوي النزر القليل ممَّا يقوم ببعض أود⁽¹⁾ هؤلاء الفلاحين المساكين، وفي أيام الشتاء يشتد البرد القارس إلي حدٍّ لا يكاد يُطاق وبسبب استنزاف مال الفلاحين لم يبق لهم ما يمكنهم من الحصول علي وقود أثناء الشتاء، أو شيء من ضروريات المعاش لسدِّ جوعهم، وحدث ذات يوم أنَّ المحافظ كان جالساً في قصره المنيف حيث كان يعيش بالبخ والإسراف أنَّ دخل عليه كاتم أسرارهِ، قائلاً:

- إنَّ علي الباب يا مولاي فريقاً من الفلاحين يودون مقابلتك.

.. فحدِّق فيه المحافظ، وقال:

- ماذا يروم⁽²⁾ هؤلاء الأقوام مني ؟

- لم يفيدوني يا مولاي ولكنَّهم يطلبون رؤيتك بشخصك.

.. فوقف الحاكم عابساً، وقال:

- إذا كان هؤلاء الأقوام قد حضروا ليثبتوا لي شكواهم أو ليتذمروا من الحالة

التي هم عليها سوف يدركون أي منقلب ينقلبون.. دعهم يدخلون.

.. ولم يكن سوي دقيقة من الزمن حتي دخل هؤلاء الأقوام علي المحافظ، وهم

في ثيابٍ رثية، وأعضاؤهم ترتجف من شدة البرد. فحدِّق فيهم المحافظ قائلاً:

- ماذا تريدون من مقابلتي ؟ وكيف تجسرون علي الحضور إليَّ علي مثل هذا

المنوال ؟

(1) أود: معاش أو إعالة. (المُعد).

(2) يروم: ينشد، أو يطلب. (المُعد).





.. فخاطبه كبيرهم وقد انحنى:

- أرحمنا أيها المولي العظيم فإننا قد أتينا لنترمي عند أقدامك.

- ماذا ترغبون ؟

- أتينا لنقص عليك أن الجوع قد أخذ منا مأخذه، وقد أصبحنا في حاجةٍ إلي كل شيءٍ، ولذلك فإن عبيدك لا يتمكنون من دفع أجرة المنازل التي اعتدنا قبلاً دفعها، وغرضنا الآن أن تمنحنا الإذن لتتمهل علينا قليلاً ريثما يمن الله علينا بالفرج.

.. وكان سائر هؤلاء الفلاحين وقوفاً أمامه باحترام، وقبعاتهم الرثة بأيديهم، وعيونهم مطرقة إلى الأرض، لا يجسرون علي رفعها نحوه، وأعضاؤهم ترتجف من الخوف. فنظر إليهم المحافظ بامتهانٍ، وقال:

- لا بد لكم من دفع ما ترتب عليكم دفعه فإذا أبيتم عدّدت ذلك عصياناً، وأنتم أدري ما يحلّ بكم من العقاب أثر ذلك.

.. فعاد كبيرهم إلي الكلام، وهو رجل قد أحني الكبير ظهره، وبَيَض المشيب رأسه:

- إنَّ ما تطلبه منا الآن هو فوق الطاقة البشريّة، لأنّه ليس لنا ما نسد به جوعنا حتي أنّه لو أتى أبونا القيصر نفسه وطلب منا ذلك لم نكن لنقدر علي القيام بشيءٍ منه.

- لسْتُ من الذين يحبون تكرار الكلام، ولذلك أخطرتكم أنّه لا بد لكم من دفع سائر ما عليكم خلال أسبوع واحد من الزمن.

- ولكن ذلك مُحال لأنّه ليس لدينا شيء من الدراهم ولا ما نبيعه للحصول علي ذلك.



- لا تكثرُوا أمامي الكلام فقد أخبرتكم أَنَّهُ لابدَّ لكم من دفع سائر ما عليكم خلال أسبوع واحد، وانصرفوا الآن عني إلي مواضعكم.

- أَلَا يوجد في قلبك شفقة علي أطفالنا ونسائنا، أَلَا يرق قلبك علي هؤلاء المساكين الذين يتضورون الآن جوعاً ؟

.. فكان جواب المحافظ الأخير :

- انصرفوا عني وعودوا بالدراهم بعد أسبوع.

.. وكان الشَّاب “درنفتش” جالساً بجانبه فحاول أن يستعطفه فلم ير سوي أذن صمء وقلب مثل الصخر، فانصرف القوم من حضرته وقد علت وجوههم صفرة الوجل، ولمَّا انقضى الأسبوع ولم يكن هنالك ما يسدون به مطالب المحافظ انهالت السياط علي ظهور القوم تلدغهم كالأفاعي، فحنق الأهالي لذلك حنقاً شديداً وكادوا يثورون علي ذلك الحاكم المتجبر، ولكنَّه أحضر شيوخ البلدة وجلد كلَّ منهم مئتي جلدة في الساحة العمومية.

وكان “درنفتش” يصرف أكثر أوقاته في التنزه في الحدائق والبساتين تخلّصاً من وصية ذلك الرَّجل، وبينما كان مرّة كذلك بجانب الأشجار رأي علي مقربةٍ منه ابنة بارعة الجمال، بدیعة الحسن، ولم تكن الفتاة تشعر بوجوده إلي جانبها لما كان بينهما من الأشجار الغضة، فتأمَّل “درنفتش” قامتها الممشوقة، وجمالها الرائع الذي يأخذ بالأبصار، وعينها الفاتنتين، وشعرها الأسود الحالك، ووجهها المزدان بملامح الطهارة كما لو كانت ملكاً، فتقدَّم إليها وكلمها، فذعرت منه ولكنَّها ما لبثت أن استأنست به فعلم منها أنَّ اسمها “نكامولي” ابنة “شنوف” أحد مزارعي المحافظ، فشغف بها شغفاً شديداً، وتعاهدا أن يجتمعا سرّاً كلَّ يوم في ذلك الموضع، ولبثا يجتمعان علي هذا الموال حيناً طويلاً من الدهر، وتعاهدا أن يكونا حبيبين. ولمَّا رأي “درنفتش”





من حسن أدبها ولطف معشرها ما خلب لُبه، صمّم أخيراً أن يطلبها زوجة له من أبيها.

فتوجه إلي كوخ الرّجل، وباح له بحُبّه لابنته، وطلب إليه أن يزوجه منها، فلمّا سمع منه الرّجل ذلك رفع يديه إلي السّماء قائلاً:

- أأنت تحب ابنتي ؟ أأنت واقع في غرامها ؟ إني استحلفك بالله أن تحول عن ذلك لأنّه إذا علم المحافظ جلية الأمر كان ذلك علينا وبالأ و أورد ابنتي حتفها.

فطَيّب ”درفنتش“ خاطر الرّجل وأخبره أنّه سوف يحميها من كلّ سوء، ويرد عنها كلّ مكروه، وأنّها متى أصبحت زوجته، فإن المحافظ لا يجسر علي الإتيان بمثل هذه الأعمال البربرية، فأبي الرّجل مراراً ولكنّه أذعن أخيراً بعد إلحاح الشّاب الشديد، فتزوج بها سرّاً في بلدةٍ أخرى علي يدّ قس قام لهما بالطقوس الدينية المألوفة، ثمّ عاد إلي البلدة وبقي أمرهما مكتوماً، فكانا يجتمعان في حدائق أمامهما الزهور، وفوقهما الأشجار الباسقة، والطبيعية تبسم لهما عن ثغر يفتّر بالسّعادة، وبينما كانا مرّة علي هذا المنوال، التفت إليها ”درفنتش“ قائلاً:

- أود يا حبيبتي أن أعلن بعد قليل زواجنا علي رؤوس الأشهاد حتي تكوني سيّدة عزيزة الجانب، محترمة المقام.
.. فأجابته قائلةً:

- دعنا نبقي الآن كما نحن لأنّه إذا علم المحافظ أمرنا فَرّق بيننا، وبعث بي إلي موضع آخر كما فعل قبلاً بفتاةٍ أخرى من هذه البلدة.
واتفق أنّه كان علي مقربةٍ منهما كاتم أسرار المحافظ، وهما لم يشعرا به، فسمع ما دار بينهما من الحديث فقصّه علي سيّده المحافظ.



فلَمَّا عاد "درفنتش" إلى قصر المحافظة، بش⁽¹⁾ المحافظ في وجهه، وهش⁽²⁾ له علي خلاف عاداته، ثُمَّ لم يكن سوى بضع دقائق حتي نظر إلى الشَّاب وقال له: - هل لك يا "درفنتش" أن تقوم لي بخدمةٍ أحفظها لك مدي الدهر، فأني في ضيق مالي شديد، وأحب أن أرفقك بكتابٍ لأحد أصدقائي في إحدى المدن المجاورة فتحضر لي كمية من الدراهم التي يسلمك إياها.

.. فرضي "درفنتش" بطيبة خاطر أن يقوم بهذه المهمة، وركب لسَّاعته فرسه وأخذ ينهب الطريق نهباً، ولكنَّه بعد أن سار بضع ساعات خطر في باله أمر ألقفه، وهو أنَّ الحاكم قد يكون بعثه في هذه المهمة ليوقع بامراته شراً فأخذت منه الهواجس كُلَّ مأخذ، وبعد أن سار هنيهة عزم أخيراً علي الرجوع لأنَّه شعر أنَّه ترك امرأته وحيدة شريفة ليس لها مَنْ يُحامي عنها، أو يأخذ بناصرها⁽³⁾ إذا وقعت في ضيم، ثُمَّ أدار فرسه نحو الطريق التي أتى عليها وأخذ يعدو، ولمَّا عاد إلي البلدة كانت الشمس علي وشك المغيب، فلَمَّا بلغ السَّاحة العامَّة وجد هناك جمعاً غفيراً تعلوا وجوههم صفرة الوجل، فعلم أن لا بدَّ من نائبه قد حلَّت، ولمَّا تأمَّل قليلاً ذلك الحشد سمع صراخ امرأة يمزق الفضاء، فعلم أنَّ الباعث علي ذلك الألم الناشئ عن الجلد بالسياط، ولمَّا دنا من الموضع شاهد منظراً تقشعر له الأبدان وتهلع القلوب، إذ رأي امرأة مُعراة إلي وسطها وهي مربوطة إلي آلَةٍ خشبيَّةٍ وأحد أتباع المحافظ يرفع سوطاً خشنأً، ثُمَّ ينزل به علي تلك منكودة الحظ، حتي صبغ دَمها ظهرها وجري إلي الأرض، ولمَّا تفرَّس بوجه المرأة وجدها عروسه.

(1) بَشَّ : أي تهلَّل، وَأَشْرَقَ . (المُعد).

(2) هَشَّ : أي انشرح صدره فرحاً وسروراً. (المُعد).

(3) يأخذ بناصرها : أي يُساعدُها أو يؤيِّدها. (المُعد).





.. فهجم الشَّاب علي الرَّجل الذي كان يجلدها، وأمسك يده، والتفت إلي المحافظ قائلاً:

- ما هذا الذي أري أمامي؟

.. فأجابه المحافظ بخشونة:

- ليس لك شأن هنا والأمثل بك أن تجري إلي دار المحافظة.

- لا أسمح بمثل ذلك لأنَّ هذه الفتاة هي امرأتي.

- إني أعرف ذلك وهي غداً تكون علي طريق المنفي إلي "سيبيريا".

.. ثُمَّ التفت إلي الضارب، وقال له:

- أجهز عليها.

فحاول الشَّاب منعه ولكنَّه قبل أن يفعل ذلك وقع السوط علي ظهر تلك الفتاة المسكينة بذوائبه الرصاصية، فسمع صوت كفرقة مسدس، فلعن الشَّاب المحافظ، ثم انتزع من جيبه مديّة⁽¹⁾ قطع بها وثاق الفتاة، ووضع وجهها الأصفر علي وجهه وقبَّلها بحرارة ولكنَّه لم يُقبَل عروسه بل جثتها، إذ أنَّها أصبحت في عداد الأموات، وإذ ذاك رفع نظره إلي السَّماء وأقسم في قلبه أن يأخذ بثأر امرأته من ذلك المحافظ القاتل.

وكانت لوائح الغيظ والغضب تلوح علي محيا الأهالي الذين شاهدوا هذا المنظر الفظيع، ودلائل التهديد وشق عصا الطاعة تبدو علي وجوههم، إذ أنني كنت في عدادهم، أمَّا "درنفتش" فإنَّه تاه في الحداثق ولم يعد إلَّا مساء اليوم التَّالي، فوجدني مع بعض الأهالي واقفين بجانب دار المحافظة، ولمَّا سألتني عن السبب في ذلك أخبرته إنا أتينا لتأخذ بثأر تلك الفتاة التي ذهبت أمس ضحية بربرية هذا الظالم،

(1) مديّة: سيكين. (المُعد).



فانتظم في عِدادنا، وإذ كان قد حان اللَّيل دخلْتُ و“درنفتش” وصديق آخر إلي
المحافظة خلصة، حتي بلغنا غرفة المحافظ نفسه، وكان إذ ذاك نائماً فلمَّا شعر
بالحركة دُعر دُعرًا شديدًا، وهبَ من نومه حيران، وأوَّل مَنْ تقدَّم إليه كان “درنفتش”
وبيده خنجر مسلول، فلمَّا رآه المحافظ جزع جزعًا شديدًا، وصاح به قائلًا:

- ابق عليَّ يا “درنفتش”.. ابق عليَّ وارحمني.

.. فأجابه هذا بتهكم:

- هل أبقيت علي امرأتي أمس عندما رجوت منك ذلك جاثيًا علي قدمي، وإني
لأجرعنك الآن كأس الموت بيدي.

.. وما أتى علي ختام ذلك حتي أخدم خنجره في قلب المحافظ، فسقط علي
الأرض جثة لا حياة بها، ولمَّا قضى علي الرَّجل دخل سائر رفاقنا الذين تخلفوا عنا
دار المحافظة وأشعلوا فيها النَّار وسط ذلك اللَّيل الدامس فكان منظرًا رهيبًا، لم أر
في حياتي مثله قط، ولمَّا تبليج صبح اليَّوم التَّالي كانت دار المحافظة أطلالاً بالياً.

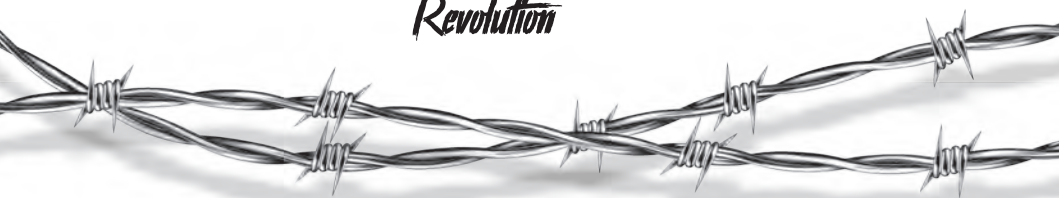




الفصل الخامس عشر

الثورة

Revolution



لمّا عدت إلى "بترسبرج" نحو مغيب العام الماضي كانت "بورت أرثر" آخذة في الاحتضار شيئاً فشيئاً، يتر جسمها عضواً عضواً، وبينما كان الجنرال "ستوسل" يعلن علي رؤوس الأشهاد أنّ تلك القلعة منيعة الجانب، بعيدة المنال، كان عُمالنا ينبئوننا بالتلغرافات السريّة التي كان يرسلها ذلك القائد تبعاً إلى وزارة الداخلية يشرح فيها خطورة موقفه، والأخطار المحدقة من كلّ جانب، وأنّه لا يتسنى له المناضلة سوي بضعة أسابيع إذا لم ينجده أسطول البلطيق.

وكان كلّما مرّ يوم من شهر ديسمبر الماضي أشعر بدنو تلك السّاعة الرهيبة التي وقفت حياتي وثروتي لأجلها، فتحفزت للوثوب إلى هذه الأمانة، وعلمت أنّي إذا لم أضرب في مثل هذه الفرصة السانحة الضربة الهائلة التي تقوض أركان الاستبداد، وتزعزع عرش الإمبراطورية المطلقة في روسيا، وتحدّث بذكرها صحف العالم



وَألسنة النَّاس من أَقصي المعمور إلى أَقصاها، ذهبت سائر مساعي أدراج الرياح، ولم أفر من الأمانى والآمال التي بنيتها بوطر⁽¹⁾.

وبينما كان جلالة القيصر "نيكولاي الثاني" إمبراطور الروس جالساً في قصر الشتاء يصدر أوامره إلى أنحاء "منشوريا"⁽²⁾، وأسطول البلطيق، كنت أنا "غورتشا كوف سرجيوس فلاديمير" إمبراطور النهلست، أصدر أوامري من قصر في "بترسبرج" لا يبعد كثيراً عن قصر القيصر إلى سائر لجان الثورة في أنحاء الإمبراطورية الروسية، فيصدع بها ألوف من نخبة الشبان، وأشرف الأمة، ووزراء الدولة الذين لم يكونوا سوى عُمال سريين يرضخون لأذني إشارة تصدر من زعيمهم، كما يرضخ اليسوعيون لسائر أوامر جنرالهم دون أن يسألوا كيف؟ أو لماذا؟.

ولمّا انصرمت أيام العام الغابر وانبتق فجر العام الجديد أصبحت كمَنْ علي جمر الغضا⁽³⁾ أحسب الدقائق أياماً، والسَّاعات أشهراً، واليَّوم سنَّةً، وخصوصاً أنَّ البوليس السري أظهر من النشاط وكثرة التنقُّل من موضعٍ إلى آخرٍ ما يؤخذ منه أنَّه أوجس خيفة من مكيدة لم يقف حتي الآن علي شيءٍ من تفاصيلها، ولكنَّه لم ينبلج صباح اليوم الثالث من شهر يناير حتي أتت التلغرافات تفيد أنَّ الحامية في "بورت أرثر" قد سلمت، فكان سقوط تلك القلعة المنيعة إشارة إلى سائر لجان النهلست في روسيا أنَّ السَّاعة للقيام إلى الثورة العامَّة قد حلَّت، فكان روسيا و"بولونيا" وسائر أنحاء الإمبراطورية الروسية بأسرها مخزن ديناميت كبير، وسقوط "بورت أرثر" شرارة كهر بائية وقعت عليها فألهبته.

(1) الوطر: المأرب. (المُعد).

(2) منشوريا: هو اسم تاريخي يطلق على منطقة جغرافية واسعة في شمال شرق آسيا. وهي عادة تقع بالكامل داخل جمهورية الصين الشعبية، أو أحياناً تنقسم بين الصين وروسيا. (المُعد).

(3) جمر الغضا: أي في مَوْقِفٍ خرجَ لَا يُحْسَدُ عَلَيْهِ. (المُعد)





ولابدُّ هنا من بيان الأسلوب الذي تمكنت به من تحويل حركة نهلستية بسيطة اعتيادية إلى ثورة عامّةٍ التهمت جذوتها في سائر أنحاء المملكة، وذلك أنّي رأيت عند قدومي إلى روسيا قبل سفري الأخير إلى "سيبيريا" أنّه لابدّ لنجاح هذه الحركة من اشتراك سائر العمال فيها علي اختلاف أنواعهم ومهنتهم في جميع أطراف المملكة، فعند حلول الوقت المُعيّن يضربون جميعاً عن العمل لمطالب يطالبونها من أصحاب المعامل، ثُمَّ إذا مرّ علي ذلك بضعة أيام تغيّرت وجهة الإضراب عن العمل واصطبغت بصبغة سياسية بحتة، ومن البديهي أنّ العمال إنّما هم جسم الأمة وقوامها، فإذا أمكن انضمام كلمتهم في مطالب سياسية كان ذلك أمام القيصر وأوروبا والعالم بأسره عبارة عن مطالبة سائر الأمة الروسيةّ بذلك، وأصبح لهذه الحركة شأن يختلف كلّ الاختلاف عن سائر الحركات السياسيّة السّابقة.

ولكن لابدّ من القيام بذلك ونجاحه من أمرين مهمين، أحدهما موافقة زعماء أولئك العمال علي ذلك، وثانيهما أن يكون الزعماء وحدهم عالمين بسريرة الأمر، وأن يبقى العمال أنفسهم في جهل تامّ بخصوص تحوّل الحركة إلى غرضٍ سياسي بعد الإضراب عن العمل، ولذلك كان الغرض الذي رُميت إليه عند وصولي إلى روسيا جمع كلمة هؤلاء الزعماء، ولما كان أكثرهم من أعضاء النهلست لم يكن هنالك صعوبة كلية في الأمر، فتمكّنت بواسطة هؤلاء من إدخال الباقيين في عداد جميعتنا فأصبحوا جميعاً طوع بنائي⁽¹⁾ ياتَمرون بأوامري وينتهون بنواهي.

وفي منتصف اليوم الثالث من يناير جرت بي مركبة تسابق خيلها الريح إلى قصر منفرد في أطراف "بطرسبرج" تحف به الحدائق الغناء من كلّ جانب، وتفوح من أزهاره أرج الروائح العطرية، تنطح أشجاره الباسقة عنان السّماء، وتكسو نضارة

(1) طَوْعَ بَنَائِهِ: في خِدمَتِهِ. (المُعَد)



الخنصرة أرضه الفسيحة، لا تبلغه جلبه القوم وضوء الجماعات، بل هنالك سكون تام لا يسمع وسطه سوي هبوب الرياح وحفيف الأشجار.

إلي هذا القصر المنفرد المنيف سدّدت خطواتي بعد نزولي من العربة، ولَمّا بلغت قاعته الكبرى إذا بها غاصة بجماهير نخبة النهلست وزعماء العُمال، وكانت الأنوار تتألّق فيها تألّق الشمس، فلَمّا جلست علي كرسي الرئاسة، تفرّست في القوم فإذا هم صامتون كأن علي رؤوسهم الطير، وكان منظر ذلك الاجتماع مهيباً وقوراً، ولا غرو فإنّه أعظم اجتماع نهلستي عُقد في الإمبراطوريّة الروسيّة حتي الآن، وجري علي أن يكون علي هذا النمط نظراً لخطورة موضوعه، والغرض العظيم الذي يرمي إليه، والآمال السامية التي كانت معقودة بنواصيه، والنتائج البعيدة التي ترتبت عليه، ممّا لا يزال صدها يرن في الأذان حتي السّاعة، فإنّه مصدر الشرارة الأوّلي لهذه الثورة العظيمة التي لم يعهد لها نظير منذ أيام الثورة الفرنسيّة، والتي لا يعلم إلّا الله متى تكون نهايتها، فإني أقصّ هذا الحديث، والتلغرافات لا تزال ترد تنقل حديث عراك عظيم، ومذابح دموية شديدة، وصراخ يمزق كبد السّماء، وآلام تهلع لها القلوب، وهي آلام أمة تربو علي مئة وعشرين مليون آخذة في الخروج من دياجير الجهل والاستبداد إلي جنائن العدل والحريّة، ولابدّ لها قبل بلوغ ذلك أن يخوض إقدامها في دم أبنائها، وتتضجّ أياديها بدم أطفالها.

.. ولَمّا استقر بي المقام في ذلك النادي الرهيب النفث إلي الأعضاء مخاطباً:

- أيها الإخوان لقد اجتمعنا الآن للمداولة بخصوص القيام بضربة عظيمة تُحرّر بلادنا من ربكة⁽¹⁾ الاستبداد، وتضرب علي أيدي الجور، وتغل عضد الظلم، وتخرج بأعظم أمة أوروبية من بيداء الرق إلي جنات الحريّة.. فهل أنتم راضون عن ذلك ؟ فأجاب سائر الأعضاء من دون تخلف واحد:

(1) ربكة: قيده. (المُعد)





- نعم.. نعم.. إننا راضون كُلّ الرضي.

.. فعدتُ إلي تتمة الكلام قائلاً:

- إذا كان الأمر كذلك فلا بد لي من تذكيركم أولاً أنَّ الفرصة التي سنحت الآن قد لا يتيسر لنا الحصول عليها مرّة أخرى في مستقبل الغُمر، فإن دولتنا مشتبكة في حربٍ تشيب لهولها الولدان، في بلادٍ سحيقةٍ حيث جيوش الحكومة التي هي ساعدها الأقوى بعيدة عنا لا نحشى شيئاً من بأسها ووطأتها، ولقد سقط كثيرون من إخواننا جرحي في ميادين الوغى⁽¹⁾ وارتدت ألوف من الأسر الروسية أثواب الجداد، فالأمة الآن نائمة علي الحكومة ودخلت هذه الحرب الشَّعواء⁽²⁾ دون أن تكون من الاستعداد علي شيءٍ، وكلّ يوم تعلو أصوات التذمُّر، وغرضنا الآن من هذا الاجتماع أن نحول مطالب الأمة إلي أصوات تكون رعوداً قاصفةً تبلغ آذان القيصر، وتحمله علي منح الدستور للبلاد والأمة، واعلموا أنَّنا إذا تمكَّنا من نوال الدستور في هذه الآونة فليس سقوت "بورت آرثر" سوي نهضة روسيا وليست بلائنا الحرب الحاضرة ونوابها سوي بركة عظيمة إذا كان من وراءها حُرّية مئة وعشرين مليوناً من النفوس، والسؤال الذي أطرحه عليكم الآن هو: ما هي الطريقة التي يجب علينا الجري عليها في نوال الغرض الذي نسعى إليه؟

.. فحصل علي أثر ذلك سكوت عظيم، ثُمَّ قام بعض الأعضاء وأجابوا عليه كما

يأتي:

- الطريقة المثلي هي اغتيال القيصر.

- يجب علينا قبل ذلك اغتيال العُمال الذين هم تحت سلطته.

- نقوم أولاً بأعمالٍ إرهابيةٍ بقنابل الديناميت.

(1) الوغى: الحرب. (المُعد).

(2) الشَّعواءُ: المنتشرة، المتفرقة، الفاشية. (المُعد).



- يجب نسف سائر مصالح الحكومة دفعة واحدة في يوم واحد.

.. وبعد أن تكلم كثيرون علي مثل هذا النمط عدت إلي تمة الكلام، فقلت:

- لا يجب علينا أن نقوم بشيء من هذا في الوقت الحاضر، لأننا كنا نقوم قبلاً بمثل هذه الضربات باسم النهلست، وأما اليوم فإننا نتكلم باسم الأمة الروسية ونضرب بساعدها، وها أن عيون أوروبا والعالم بأسره شاخصة إلينا فلا يليق بنا أن نتخذ جانب العنف والإرهاب ممّا تعود علينا تبعته باللوم، ولكن الطريقة الفضلى هي أن نطلب الدستور من القيصر أولاً باسم الأمة باللين والرفق، ولمّا كانت الأمة ممثلة بجماعة العمال ترتب أن يكون ذلك علي يدهم والذي أحكم بلزوم عمله هو إضراب العمال عن العمل، ولمّا كان زعماءهم حاضرين معنا الآن وهم إخوة لنا في المبدأ والرأي تيسر لنا القيام به.

.. وبعد مداوات طالت نحو ثلاث ساعات، قرّ الرأي علي الشروط التي لأجلها يضرب العمال عن العمل، والتي يجب أن تتلي عليهم هي ما يأتي:

- (1) ألا تزيد مدة العمل في النهار عن ثمان ساعات.
- (2) تعيين قيمة العمل ممّا تقوم به لجنة مؤلفة من العمال والنظار عليهم.
- (3) تعيين لجنة دائمة تكون حكماً في مواد الخلاف.
- (4) أقل أجره للفاعل إذا كان رجلاً روبلاً في النهار.
- (5) أقل أجره للمرأة نصف روبل.
- (6) لا يلزم العامل باشتغال أكثر من الوقت المعيّن، وأن تكون أجره العمل في مثل هذه الأوقات ضعفي المعدل العادي.
- (7) تعيين أطباء وصيادلة يقومون بحاجات العمال الصحيّة أثناء المرض.
- (8) عدم معاقبة المعتصمين.





- (9) لزوم دفع أجرة العمال أثناء الاعتصام.
- .. أمّا المطالب السياسية التي لا يعلم العمال شيئاً منها، عند تحوّل الاعتصام إلى صبغةٍ سياسيةٍ، فهي كما يلي:
- (1) استدعاء مجلس نواب تنتخبه الأمة بأكثرية الأصوات.
- (2) إيقاف الحرب في الشرق الأقصى.
- (3) العفو عن سائر المنفيين والمُسجونين من المجرمين السياسيين.
- (4) حُرّيّة الصحف والأديان.
- (5) حُرّيّة الاجتماعات والجمعيات.
- .. وترتب حركات الثورة على الأسلوب الآتي بيانه:
- في 16 يناير.. يبدأ الاعتصام فيتوقف 12000 ألف عامل عن الاشتغال في معامل "بوتيلوف".
- وفي 18 ينقلب الاعتصام سياسياً فيترأس الأب "غابون" 55 ألفاً من العمال.
- وفي 19 يزيد عدد المعتصمين إلى أن يبلغ 75000.
- وفي 20 يصبح الاعتصام عاماً فيتوقف 100000 عامل، ويقتل 124 معملاً.
- ويسير المعتصمون في الأسواق ويضطرون بقبه العمال إلى الانضمام إليهم، ويطلب الأب "غابون" باسمهم أن 500000 يودون مقابلة القيصر.
- .. وعند بلوغ هذا الحدّ من المناقشة قام كبير العمال، وقال:
- إذا كان لابدّ من نجاح المسعى في اعتصام العمال فلا بدّ من إيجاد وسيلة نتمكّن بها من إسعافهم بالدراهم وإلّا ذهب سائر مساعينا أدرج الرياح، لأنّ العمال إذا أضربوا اليوم عن العمل عادوا إليه غداً بحكم الضرورة، ولما كان عدد المعتصمين في "بطرسبرج" وضواحيها يبلغ خمسمئة ألف نفس فما قولك



بسائر العمال الآخرين في: "موسكو"، و "لوتزو"، و "سيبيريا"، و "بولونيا".. وغيرها، ويلزم بالقيام لرعاية عائلات هؤلاء المساكين عدة ملايين من الروبلات وهو ممّا لا قبل لنا به، ولذلك أري أن القيام بالثورة دون هذا السند الوحيد العظيم إحباط كافة المساعي.

.. فحصل علي أثر ذلك سكوت عميق دام بضع دقائق، لأنّ سائر الأعضاء أدركوا أنّ الرّجل قد أصاب القلب في اعتراضه. فعلمت إذ ذاك أنّ السّاعة قد حانت للإجهار بما بقي حتي الآن مكنوناً عن إخواننا في "بطرسبرج"، فوقفت وسط ذلك المحفل الرهيب، وقلت:

- إنّ الثورة التي نحن قائمون بها إنما هي ضرب من الحرب، وقد قال "نابليون"⁽¹⁾ العظيم أنّه يلزم للحرب ثلاثة أمور أولها المال، وثانيها المال، وثالثها المال، ولو لم أكن علي يقين من ذلك لما كنت قد دعوتكم للاجتماع هذه اللّيلة للقيام بأمرٍ خطيرٍ يقتضي له ملايين من الروبلات، وعليه فإنّي أعلن الآن علي رؤوس الإِشهاد أنّ ثروتي البالغة خمسين مليون روبل والتي هي الآن في مصرف إنجلترا ستكون جميعها تحت أمر لجنة العمال ليوزعوها عليهم أثناء الاعتصام، ليس في "بطرسبرج" فقط

(1) نابليون بونابرت : Napoléon Bonaparte، أو "نابليون الأوّل"، واسمه الأصلي "نابليون دي بونابرت"، (وُلد في 15 أغسطس 1769م، وتوفي في الخامس من شهر مايو 1821م)، وهو قائد عسكري وسياسي فرنسي إيطالي الأصل، برّغ نجمه خلال أحداث الثورة الفرنسية، وقاد عدّة حملات عسكرية ناجحة ضدّ أعداء فرنسا خلال حروبها الثورية. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عاماً، ثمّ بصفته إمبراطوراً في العقد الأوّل من القرن التاسع عشر، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثيراً كبيراً على السياسة الأوروبيّة. هيمن "نابليون" على الشؤون الأوروبيّة والدولية خلال فترة حكمه، وقاد فرنسا في سلسلة انتصارات مبهرة على القوى العسكريّة الحليفة التي قامت في وجهها، فيما عُرف بالحُرُوب النابليونية، وبني إمبراطوريّة كبيرة سيطرت على مُعظم أنحاء أوروبا القاريّة حتّى سنة 1815م عندما سقطت وتفكّكت. (المُعد).





ولكن في موسكو وسواها من المدن والأمصار الروسية، وستكون برمتها هنا في نحو أسبوعين من الزمن.

.. فضج الحاضرون لذلك ضجيجاً عظيماً، وصفقوا تصفيق الفرح والحبور، حتي بلغ هتافهم عنان السماء.

ولم يمرَّ أسبوعان من الزمن حتي وردت حوالة مالية علي مصرف "بطرسبرج" بقيمة خمسين مليون روبل باسم أعظم تاجر هنالك، وهو واحد من عدادنا، فكانت حوالة لم يسبق لها مثيل في تاريخ تجارة روسيا، فلم نلبث أن وزعنا جانباً كبيراً منها في 21 يناير، أي مساء يوم الثورة، وبعثنا بالباقي إلي موسكو وسائر المدن والأصقاع الروسية حتي حدود "سيبيريا"، وكان ذلك أعظم باعث علي الإشاعات التي تواترت بخصوص الإسعافات المالية التي وردت روسيا من مصادر يابانية إنجليزية.

فاستعرت في اليوم التالي نيران الثورة الروسية التي هي فجر ثورات القرن العشرين وتقاطر أولئك العمال البسطاء مئات ألوف إلي قصر الشتاء، وهم يظنون أنهم ذاهبون لتناول أيقونات من يدٍ إمبراطورهم، فابتدأ يومنا الأول الذي سُمي بـ "يوم فلاديمير".

أما السبب الذي لأجله ندمت علي إشعال جذوة الثورة فهو لأنني رأيت أنني مطوح ببلادي إلي لجة الخراب، وإنني أساعد اليابانيين علينا في حين نحن أشد فيه حاجة إلي الاتحاد منا في سواه، ولمّا طالعت الإشاعات المتعلقة بشأن طلب روسيا الصلح علي شروط تجور علي بحقوقنا، وتنزل من قدرنا أمام أوروبا والعالم بأسره، كدث أذوب حسرة وأسي.

ولا داعي أن أقصّ تفاصيل يوم "فلاديمير" وما تلاه من الوقائع الخطيرة والحوادث الجسيمة، لأنّ جميعها بنات أمس، ولا تزال هذه الثورة الرهيبة حتي السّاعة في سعي ولهب إذا خمدت في مدينة شُبت في أخرى، وسيكون لها في ارتقاء الجنس



البشري ما كان للثورة الفرنسية نحو مغيب القرن الثامن عشر، فإذا كنتُ قد أسأت
بها الآن إلي وطني فمن حيث أردت الإحسان.

الآن تسيل الدموع مذروفة، والدماء مسفوكة، والحسرات تلو حسرات، والزفرات
تلو الزفرات، ولكنّه سوف يأتي زمن وما ذلك ببعيدٍ حيث نري فيه الأمة الروسية
رافلة بأثواب المجد، وعلي رأسها تاج الفخار، وفي يمينها صولجان العزة، فهي الآن
في مهد الطفولة ومتى هرمت أوروبا واشتعل رأسها شيباً، وانحني ظهرها كبيراً تكون
روسيا غادة فتانة لا تزال في ربيع العُمر، ومقتبل الحياة، وإذا كانت هذه الثورة في
عداد الأسباب التي تبعث بأمتي ووطني إلي ارتقاء قمة الفخار، فكفي بها كفارة عن
ثأر آتامي وجرائمي التي أتوب عنها إلي الله إنَّ الله وليّ التائبين.





المحتويات

3	المقدمة
5	تمهيد
11	قبل أن تقرأ
39	الفصل الأول: الفقر.. والظلم.. والتنكيل
53	الفصل الثاني: الرحلة الرهيبة إلي سيبيريا
59	الفصل الثالث: مغامرات الهروب إلي الحرية
71	الفصل الرابع: عودة الحق المغتصب
77	الفصل الخامس: الأميرة.. وحكم الإعدام
95	الفصل السادس: ساعة من الديناميت
111	الفصل السابع: الحب حتي الموت
127	الفصل الثامن: سر الرجل الأعمى
139	الفصل التاسع: امرأتان.. ورجل
149	الفصل العاشر: المرأة.. اللغز



161	الفصل الحادي عشر: أسرار نسف قطار القيصر
177	الفصل الثاني عشر: الانتقام الرهيب
199	الفصل الثالث عشر: المرأة الحديدية
213	الفصل الرابع عشر: قصة القصر المهجور
2211	الفصل الخامس عشر: الثورة
233	المُعد في سطور





معد ومقدّم الرواية

وفين صفوت مختار

- من مواليد 19 يناير 1958م، مدينة طهطا - محافظة سوهاج.
- حاصل علي ليسانس الآداب والتربيّة، جامعة أسيوط كلية التربيّة بسوهاج، عام 1980م.
- حاصل علي الدبلوم الخاص في التربيّة وعلم النفس، جامعة أسيوط، كلية التربيّة بسوهاج، عام 1984م.
- كبير الأخصائيين التربويين بوزارة التربيّة والتعليم بدرجة وكيل وزارة (سابقاً).
- محاضر تربوي في تجمعات الشّباب، وأعضاء هيئات التدريس، وأولياء الأمور.
- أدرجت سيرته الذاتية والعلمية وأهم مؤلفاته بالموسوعة الحرة ويكيبيديا.
- عمل مُحَرِّراً صحافيّاً بمجلة « هو وهي » (قبرص)، ومجلة « دُبي الثقافية » (دولة الإمارات العربيّة).

• فاز بجائزة الشيخ « عبد الله المبارك الصباح » للإبداع العلمي علي مستوى الوطن العربي، عن نتاجه المتميز: «المُخدرات وأثرها المُدبِّر»، عن دار الشاعرة الدكتورة « سعاد الصباح » بدولة الكويت.

• تلقى خطاب شكر وتقدير من السيِّدة « سوزان مبارك »، بمناسبة ظهور بعض مؤلفاته التربويَّة. (رئاسة الجمهورية في 12 مارس 2002م).

• سجل للتلفزيون المصري، علي قناته السَّابعة، العديد من الحلقات التربويَّة والثقافيَّة في عدة برامج، منها: برنامج « الطفل والمجتمع »، وبرنامج « أوراق ملوَّنة ».

• قامت الأدبية والصحافية « سماح عادل » بإجراء حواراً مطولاً مع الكاتب، علي صفحات مجلة كتابات علي شبكة الإنترنت.

• قامت الصحافية « سعدية شعيب »، بتقديم آراء الكاتب تجاه قضايا الطفولة والأمومة وشؤون الأسرة الواردة في مؤلفاته، ضمن زاويتها المتخصِّصة (المرأة والطفل) بجريدة الأهرام اليوميَّة، في الفترة من عام 2003م وحتى عام 2007م بعد المُعالجة الصحافية.

• تُرجمت بعض مقالاته إلي اللُّغة الإنجليزيَّة.

• تناولت الصحف والمجلات المصريَّة والعربيَّة مؤلَّفات الكاتب بالنقد، والتحليل، والعرض، والإعلان، من بينها: جريدة المساء الأسبوعية، جريدة الأهرام اليوميَّة، جريدة الجمهورية، جريدة المصري اليوم، مجلة الوعي الإسلامي، المجلة العربيَّة.

• علي شبكة الإنترنت يحظي الكاتب بعشرات المواقع، والصحف الإلكترونيَّة التي تناولت سيرته الذاتية والعلميَّة، بالإضافة إلي أغلب مقالاته ومؤلَّفاته، منها: ويكيبيديا الموسوعة الحرَّة، موسوعة الكتب العربيَّة والأجنبيَّة -www.ebooks-





cloud.com، اتحاد الجامعات العربيّة www.eulc.edu.eg ، أكاديمية علم النفس، مكتبة الإسكندرية. مجلة فكر الثقافيّة www.fikr.mag.com ، جريدة البلاغ الالكترونية www.balagh.com ، موقع كتبي www.kotobi.com . دراسات الأهرام digital.ahram.org.eg .

• للكاتب حوالي (111) دراسة ومقالة في المجالات التربويّة، والسيكولوجيّة، والعلميّة، والثقافيّة المتنوعة، و المنشورة بالمجلات والدوريات المصريّة والعربيّة، مثل: مجلة القافلة، مجلة العربي، مجلة الفيصل، مجلة الخفجي، مجلة الوعي الإسلامي، مجلة البحرين الثقافيّة، مجلة منار الإسلام، المجلة العربيّة، مجلة الكويت، مجلة الفيصل العلميّة، مجلة الصلاح، مجلة الدفاع، مجلة الرافد.

• للكاتب (66) دراسة ومقالة التي تتعلّق بالسير الذاتية (أدب التراجم)، في مختلف المجالات وعلى رأسها الآداب والفنون التشكيليّة، والتي نُشرت بالمجلات والدوريات المصريّة والعربيّة، منها: مجلة هو وهي، مجلة الكويت، مجلة دُبي الثقافيّة، مجلة الرافد، مجلة الشارقة الثقافيّة، المجلة العربيّة.

• للكاتب (20) حواراً أجراها مع كبار الشعراء والأدباء وقادة الفكر في مصر، والتي نُشرت بالمجلات والدوريات المصريّة والعربيّة، منها: مجلة هو وهي، مجلة الكويت، مجلة المنهل، مجلة الحرس الوطني، المجلة العربيّة، مجلة الشعر.

• كتب المؤلّف في التراجم والسير الذاتية للأطفال، والتي نُشرت علي صفحات مجلة قطر الندي المصرية.

الكتب التي صدرت للمؤلّف:

- 1- مشكلات الأطفال السلوكيّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 1999 م.
- 2- أبناؤنا وصحتهم النفسيّة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2001م.
- 3- المدرسة والمجتمع والتوافق النفسي للطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2003 م.



- 4 - سيكولوجية الأطفال ضعاف العقول، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 5 - سيكولوجية الأطفال الموهوبين، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 6 - الأسرة وأساليب تربية الطفل، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 7 - مشكلة تعاطي المواد النفسية المخدرة، القاهرة: دار العلم والثقافة، 2005م.
- 8 - سيكولوجية الطفولة، القاهرة: دار غريب، 2005م.
- 9 - بستان المعرفة، القاهرة: دار موناليزا، 2007م.
- 10 - كتب ومكتبات الأطفال وتنمية الميول القرائية، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 11 - فن رعاية الطفل في البيت والمدرسة، القاهرة: دار الطلائع، 2009م.
- 12 - سيكولوجية الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: دار غريب، 2010م.
- 13 - وسائل الاتصال والإعلام وتشكيل وعي الأطفال والشباب، القاهرة: دار غريب، 2010م.
- 14 - تأخر الكلام عند الأطفال، القاهرة: دار البطوسي، 2010م.
- 15 - النمو الحركي للطفل وأهم الأنشطة الترويحية والمدرسية، القاهرة: دار الطلائع، 2011م.
- 16 - الصحة النفسية وأساليب تنشئة الطفل...أسريًا، وتربويًا، ومجتمعياً، القاهرة: دار الطلائع، 2012م.
- 17 - الموسوعة الأدبية الكبرى: أشهر المبدعات في تاريخ العالمي، القاهرة: دار الطلائع، 2013م.
- 18 - الطفل الموهوب، طرق اكتشافه، وأساليب رعايته، القاهرة: دار طيبة للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2017م.





- 19- إشباع الحاجات الأساسية للأطفال: الجسميّة، والعقليّة، والنفسيّة، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميّة، 2017 م.
- 20- الاكتئاب مرض العصر: كشف أسرارهِ، ومعرفة أسبابهِ، وإستراتيجيات الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميّة، 2017 م.
- 21- كيف تتخلّص من القلق وتبدأ الحياة من جديد، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلميّة، 2017 م.
- 22- أحذب نوتردام رواية للأديب الفرنسي « فيكتور هوجو »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 م.
- 23- أحذب نوتردام رواية للأديب الفرنسي « فيكتور هوجو »، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017 م.
- 24- أنا كارنينا رواية للأديب الروسي « ليو تولستوي »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .
- 25- أنا كارنينا رواية للأديب الروسي « ليو تولستوي »، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017 .
- 26- الآمال العظيمة رواية للأديب الإنجليزي « تشارلز ديكنز »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .
- 27 - الآمال العظيمة رواية للأديب الإنجليزي « تشارلز ديكنز »، إعداد وتقديم، الجزائر: دار الهدي، 2017 .
- 28 - ذهب مع الريح رواية للأديبة الأمريكية « مارجريت ميتشل »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .



- 29- كوخ العم توم رواية للأدبية الأمريكية « هاريت بيتشر ستو »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .
- 30- رواية للأديب الإنجليزي « جورج أورويل »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017.
- 31- ابنة الحظ رواية للأدبية التشيلية « إيزابيل الليندي »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .
- 32- محبوبة رواية للأدبية الأمريكية « توني موريسون »، إعداد وتقديم، القاهرة : دار الطلائع، 2018 .
- 33 - نساء صغيرات رواية للأدبية الأمريكية « لويزا ماي ألكوت »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2017 .
- 34- مدام بوفاري رواية للأديب الفرنسي « جوستاف فلووير »، إعداد وتقديم، القاهرة: دار الطلائع، 2018 .
- 35- مشكلات الأطفال : مظاهرها، أسبابها، طرق الوقاية والعلاج، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2018 م.
- 36- تربية الأبناء في عصر الإنترنت، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2018 م
- 37- كيف تقوي ذاكرتك وتتغلب على النسيان، القاهرة: دار طبية للنشر والتوزيع والتجهيزات العلمية، 2018م.
- 38- قمم أدبية: شعراء وأدباء في رحلتهم نحو المجد، جمهورية بلغاريا - بلوفديف: دار الدراويش للنشر والترجمة، 2019م.





- 39- أطفالنا وأحدث أساليب التربية، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 40- اضطرابات الأطفال النفسية والعقلية والسلوكية، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 41- كيف نمي ذكاء أطفالنا؟، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 42- عادات الفم السيئة عند الأطفال (مصّ الأصابع وقرض الأظافر)، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 43- أطفال التوحد الأوتيزم، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 44- الأطفال والشباب وإدمان الإنترنت، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 45- لا تدع القلق يُسيطر علي حياتك، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 46- اكتشاف ورعاية أطفالنا الموهوبين، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 47- كيف تتمتع بذاكرة حديدية؟، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 48- كيف نشبع حاجات أطفالنا؟، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.
- 49- وداعاً للاكتئاب والضغط النفسية، القاهرة: دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، 2019م.



50- خيرى شلبى.. الكاتب والإنسان، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامى، 2019م.
(بالاشتراك مع الأديبة ريم خيرى شلبى).

51- ألوان وظلال.. رؤاد الفن التشكيلى فى مصر والعالم، القاهرة: دار أفاتار للطباعة والنشر، 2019م.

52- إستراتيجيات تربوية فى رعاية الأطفال، القاهرة: دار حرف للنشر والتوزيع، 2019م.

53- سيكولوجية النمو والارتقاء فى المراهقة ، القاهرة: دار حرف للنشر والتوزيع، 2019م.

للتواصل مع المؤلف:

• هاتف منزل: 093/4774608

• هاتف محمول: 01063549339

E-mail: Wafeek.safwat2016@gmail.com

